



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة كربلاء

كلية العلوم الإسلامية

قسم الدراسات القرآنية والفقاه

ظاهرة التلطف في القرآن الكريم

دراسة تفسيرية

رسالة مقدمة إلى مجلس كلية العلوم الإسلامية / جامعة كربلاء
وهي جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير في الشريعة والعلوم الإسلامية
كتبت من قبل الطالب
علي فخري باش آغا

بإشراف

أ.د ناهدة جليل الغالبي

٢٠٢٥ م

١٤٤٧ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ
يَخْشَى﴾

صدق الله العلي العظيم

(طه : ٤٤)

ترشيح رسالة للطبع

نظراً لإتجاز فصول ومباحث الرسالة الموسومة بـ (ظاهرة التلطف في القرآن الكريم - دراسة تفسيرية) لطالب الماجستير (علي فخري باش أغا) فإني أرشحها للطبع.

~~التوقيع:~~

المشرف: د. ناهية جليل عبيد كسن
مكان العمل: كلية العلوم الإسلامية آج كرسلا
التاريخ: ١٨/٥/٢٠٢٥

إقرار المشرف

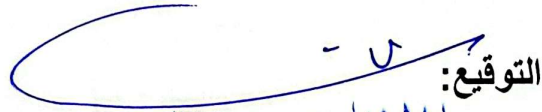
أشهد أن الرسالة الموسومة بـ (ظاهرة التلطف في القرآن الكريم - دراسة تفسيرية) للطالب (علي فخري باش أغا) قد تم إعدادها تحت إشرافي في جامعة كربلاء / كلية العلوم الإسلامية وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في الشريعة والعلوم الإسلامية.

التوقيع: 

المرتبة العلمية: أستاذ

الاسم: ناهية جليل عبدك
مكان العمل: كلية العلوم، الجامعة الإسلامية، كربلاء
التاريخ: ٢٦ / ٥ / ٢٠٢٥

بناءً على توصيات المشرفين والمقوم العلمي أرشح هذه الرسالة:

التوقيع: 

الاسم: د. د. عمار محمد حسين الأنصاري
رئيس القسم

التاريخ: ٢٨ / ٦ / ٢٠٢٥

شهادة الخبير اللغوي

اطلعت على رسالة الطالب/ه ()
بـ (ظاهرة التلصق في لغات كرم دراسة تفسيرية) الموسومة
(وقومتها لغوياً وأجد أنها صالحة للمناقشة .

التوقيع: 

المرتبة العلمية: دكتور

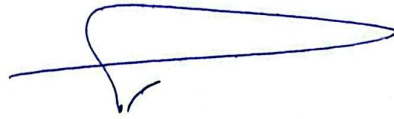
الاسم: آمال عبد الحسني تايه

مكان العمل: جامعة كربلاء / العلوم
الاسلامية

التاريخ: ٧ / ٧ / ٢٠٢٥

إقرار لجنة المناقشة

نشهد نحن رئيس لجنة المناقشة وأعضاؤها أننا اطلعنا على رسالة الماجستير الموسومة
بـ(ظاهرة التلطف في القرآن الكريم - دراسة تفسيرية) وناقشنا الطالب (علي فخري باش أغا)
في محتواها وفيما له علاقة بها ونعتقد أنها جديرة بالقبول بتقدير (١٠ ممتازاً) لنيل شهادة
الماجستير في الشريعة والعلوم الإسلامية.



أ.د. سيروان عبد الزهرة هاشم الجنابي
جامعة الكوفة / كلية التربية
رئيساً
٢٠٢٥/٩/١٧



أ.م.د. سالم جاري هدي
جامعة كربلاء / كلية العلوم الإسلامية
عضواً

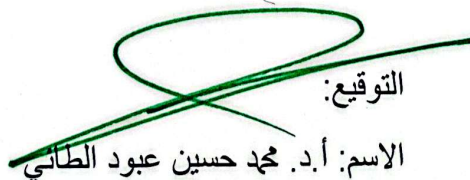


أ.د. ناهدة جليل عبد الحسن الغالبي
جامعة كربلاء / كلية العلوم الإسلامية
عضواً ومشرفاً



م.د. حيدر رمضان عبد
جامعة كربلاء / كلية العلوم الإسلامية
عضواً

صدقت في جامعة كربلاء / كلية العلوم الإسلامية



التوقيع:

الاسم: أ.د. محمد حسين عبود الطائي

العميد

التاريخ: ٢٠٢٥/٩/١٧

الإهداء

إلى سيّد الكلام، وإمام الحكمة، وباب مدينة علم المصطفى صلى الله عليه وآله
إلى من استقامت الحروف في حضرته، وخشعت العقول أمام بيانه
أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام
أنثر بين يديك هذا الجهد المتواضع، رجاء أن يُلامس شيئاً من نهجك
إلى من كانا لي سبباً للوجود، وعطاءً لا يُدان به جود
إلى أبي وأمي منبع الحُبِّ والبذل والأمان، أهدى إليكما ثمرةً من ثماركم
إلى زوجتي الغالية التي ساندتني، وولديّ العزيزين ليث وهيثم اللذين كانا
يتابعان كتابة الرسالة وينتظران إكمال رسالتي بفارغ الصبر
إلى أساتذتي الأجلاء مصابيح دربي، وحملة مشاعل الفكر
إلى إخوتي وزملائي في الدراسة، إلى رفيق الروح، ونديم العقل (علي طعمة)
فله مني مودة لا تنقضي ودعاء لا ينقطع.

الباحث

شكر و عرفان

الشكر لله أولاً وأخيراً فبنعمته تتم الصالحات، وبفضله تُنال الغايات، وبتوفيقه تُدرك المقاصد والنيّات.

أتقدم بكلّ احترام ومودة لأستاذتي المشرفة الفاضلة الدكتورة (ناهدة جليل الغالبي) لما أولته من رعاية قلّ نظيرها، وتوجيهه حصيف، ونقد بناء، ومتابعة دقيقة، فلها مني جزيل الشكر، وخالص الدعاء بدوام التوفيق ومد يد العون لكلّ باحث وطالب علم.

كما وأتوجه بأرق كلمات العرفان والامتنان، وأسمى عبارات الشكر، وأصدق المشاعر إلى كلية العلوم الإسلامية الموقّرة متمثلة بعميدها أ. د محمد حسين عبود والشكر موصول إلى السادة معاونين والسيد رئيس القسم أ. م. د عمار محمد حسين، والشكر موصول أيضاً إلى أ. د ضرغام كريم كاظم، لما أبدوه من تعاون علمي ومساعدة في إتمام هذا البحث، ولما وفروه من بيئة أكاديمية خصبة، ورعاية أبوية صادقة ومشهودة، كانت الدافع والسند في إنجاز هذه الرسالة.

كما وتنحني كلماتي إكراماً واحتراماً لكلّ أساتذتي الأجلاء الذين نهلت من معين علمهم، واقتبست من مصابيح فكرهم، فكانوا منارات في درب المعرفة وقدوة في مسالك البحث والتأمل.

وما كان لهذا البحث أن يكتمل ويرى النور لولا أستاذتي الدكتور سيروان عبد الزهرة الجنابي الذي أنحني له حباً وأجله احتراماً، بوصفه مرجعاً أستضيء بنوره واحتذي به، جمع بين عمق المعرفة ودقة المنهج، فكان بمكان المعين الذي نهلت منه، والأب الروحي الذي ألجا إليه لاستلهم علو الهمة وصدق النصيحة.

وأخيراً الشكر موصول لكلّ من أفادني وساندني وشجعني، لا سيما أسرتي التي كانت لي عوناً، ولا انسى زملاء الدرب ورفاق الرحلة العلمية، الذين كانوا عوناً في وقت الضيق، وسنداً في لحظات الجدّ، كانوا مثلاً في التعاون، فكان لي شرف صحبتهم وجميل الأثر لذكريات لا تُمحي.

الخلاصة

جاءت هذه الدراسة بعنوان (ظاهرة التلطف في القرآن الكريم – دراسة تفسيرية) تُظهر الدراسة الأهمية الكبيرة لفهم التلطف في القرآن الكريم، وتأثيره في تليين القلوب، وتهذيب الخطاب، وتوصيل الفكرة بأسلوب يُقبل من المخاطب دون نفور، وتعدُّ هذه الدراسة إسهامه ذات أثر بالغ في فهم الإعجاز القرآني والبعد التربوي والدعوي للنصّ القرآني، وتتناول هذه الدراسة مفهوم التلطف في القرآن الكريم من منظور تفسيري، وتكشف عن أبعاد عميقة تتعلق بالهداية والتربية والدعوة، وتهدف الدراسة لإثبات أنّ التلطف في القرآن الكريم ليس مجرد أسلوب بلاغي، بل هو ظاهرة نصية تفسيرية مقصودة تحمل دلالات تشريعية وتربوية ومقاصد دعوية عميقة، وقد اعتمد البحث فيها على التحليل التفسيري والبلاغي للنصوص القرآنية، فجاءت بنيته مكوّنة من مقدمة وأربعة فصول، الفصل الأول خصّص لتأصيل المفاهيم النظرية للدراسة ومواقع اتفاقها وافتراقها مع المفاهيم الأخرى ذات الصلة، تبعه الفصل الثاني معنوناً بدواعي استعمال التلطف ومن ثم جاء الفصل الثالث تحت عنوان أساليب التلطف في القرآن الكريم متمثلة بالمفارقة والاستدراج والحجاج، وختمت بفصل رابع تطبيقي لنطاق دلالة التلطف التفسيرية في آيات القرآن، تضمّن آيات القصص القرآني وآيات العقيدة وآيات الأحكام، خلص البحث إلى نتائج مهمة من أبرزها، أن التلطف في القرآن الكريم ليس مجرد حُسن تعبير، بل هو استراتيجية إلهية تربوية دعوية تسهم في فهم النصّ وتقبّله بعمق وقناعة، وأنّ هذه الظاهرة تعبّر عن بعد تأويلي متجدّر في بنية النصّ القرآني، يُسهم في تعزيز أثره التربوي والدعوي والمعرفي في آن معاً.

المحتويات

ت	العناوين	الصفحة
١	الآية	أ
٢	الإهداء	ب
٣	الشكر والعرفان	ج
٤	الخلاصة	د
٥	المحتويات	هـ - و
٦	المقدمة	١
٧	الفصل الأول: المفاهيم النظرية للدراسة ومواضع الاتفاق والافتراق بين التلطف والمفاهيم المقاربية	١٢
٨	المبحث الأول: بيان مفهوم الظاهرة والقرآن الكريم	١٤
٩	أولاً: مفهوم الظاهرة في اللغة والاصطلاح	١٤
١٠	ثانياً: مفهوم القرآن الكريم في اللغة والاصطلاح	١٦
١١	المبحث الثاني: مفهوم التلطف في اللغة والاصطلاح ودلالاته في الاستعمال القران	١٩
١٢	أولاً: مفهوم التلطف في اللغة	١٩
١٣	ثانياً: دلالة التلطف في الاستعمال القرآني	٢١
١٤	ثالثاً: مفهوم التلطف في الاصطلاح والمفهوم الكلي	٣٣
١٥	المبحث الثالث: مواضع الاتفاق والافتراق بين التلطف والمفاهيم المقاربية	٤٢
١٦	أولاً: الاتفاق والافتراق بين التلطف والمحذور اللغوي	٤٢
١٨	ثانياً: الاتفاق والافتراق بين التلطف واللفظ	٤٦
١٩	ثالثاً: الاتفاق والافتراق بين التلطف والمضامين ذات الصلة	٤٧
٢٠	الفصل الثاني: دواعي استعمال التلطف في القرآن الكريم	٥٣
٢١	المبحث الأول: الدواعي الدعوية المراعية للفطرة الإنسانية	٥٦
٢٢	أولاً: استجلاب الآخر	٥٦
٢٣	ثانياً: المساواة بين الأطراف لاستظهار الحق	٦٥
٢٤	ثالثاً: تخفيف المشقة في الأحكام	٦٩
٢٥	المبحث الثاني: الدواعي الأخلاقية والتربوية	٧٣
٢٦	أولاً: الاحترام والتأدب	٧٣
٢٧	ثانياً: مقابلة الإساءة بالإحسان	٧٨
٢٨	ثالثاً: التعفف عن ذكر المشمذات ومراعاة النفس الإنسانية	٨٢
٢٩	الفصل الثالث: أساليب التلطف في القرآن الكريم	٨٩
٣٠	المبحث الأول: دلالة أسلوب المفارقة	٩٢
٣١	أولاً: مفهوم المفارقة في اللغة	٩٢

٩٣	ثانياً: مفهوم المفارقة في الاصطلاح	٣٢
٩٨	ثالثاً: الشواهد قرآنية على المفارقة	٣٣
١٠٦	المبحث الثاني: دلالة أسلوب الاستدراج	٣٤
١٠٦	أولاً: مفهوم الاستدراج في اللغة	٣٥
١٠٧	ثانياً: مفهوم الاستدراج في الاصطلاح	٣٦
١١٠	ثالثاً: الشواهد القرآنية على الاستدراج	٣٧
١٢١	المبحث الثالث: دلالة أسلوب الحجاج	٣٨
١٢٢	أولاً: مفهوم الحجاج في اللغة	٣٩
١٢٤	ثانياً: مفهوم الحجاج في الاصطلاح	٤٠
١٢٥	ثالثاً: الشواهد القرآنية على الحجاج	٤١
١٣٤	الفصل الرابع: نطاق دلالة التلطف التفسيرية في القرآن الكريم	٤٢
١٣٧	المبحث الأول: دلالة التلطف في القصص القرآني	٤٣
١٣٧	أولاً: دلالة التلطف في قصة نبي الله نوح <small>عليه السلام</small>	٤٤
١٤٤	ثانياً: دلالة التلطف في قصة نبي الله لوط <small>عليه السلام</small>	٤٥
١٤٨	ثالثاً: دلالة التلطف في قصة نبي الله يوسف <small>عليه السلام</small>	٤٦
١٥٠	رابعاً: دلالة التلطف في قصة نبي الله أيوب <small>عليه السلام</small>	٤٧
١٥٥	المبحث الثاني: دلالة التلطف في آيات العقيدة	٤٨
١٥٥	أولاً: دلالة التلطف في آية خلافة الأرض	٤٩
١٥٨	ثانياً: دلالة التلطف في التذكير بنعم الله والمساواة بإيفاء العهد	٥٠
١٦٠	ثالثاً: دلالة التلطف في طلب موسى عليه السلام رؤية الله تعالى	٥١
١٦٢	رابعاً: التلطف في عدم ذكر الموت صراحة	٥٢
١٦٤	المبحث الثالث: دلالة التلطف في آيات الأحكام	٥٣
١٦٤	أولاً: دلالة التلطف في آية ليلة الصيام	٥٤
١٦٧	ثانياً: دلالة التلطف في آية كفارة الظهار	٥٥
١٦٩	ثالثاً: دلالة التلطف في الفعل كُتِبَ	٥٦
١٧١	الخاتمة وأهم النتائج	٥٧
١٧٤	المصادر والمراجع	٥٨
A	الخلاصة باللغة الإنكليزية	٥٩

المقّمة

المقدمة

الحمد لله الذي وسعت رحمته كلَّ شيءٍ، وعمَّ إحسانه جميع خلقه، وتجلَّى لطفه في أقداره وأحكامه وجميع شؤونه، فتلطف بعباده أمراً ونهياً، وفي عطائه ومنعه خيراً، حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، ونشكره على جزيل نعمه الظاهرة والباطنة، وعلى ما أفاضه علينا من فضله، وشملنا به من رعايته وتدبيره، ورأفته ورحمته، ونسأله سبحانه وتعالى، أن يُمنَّ علينا بفهم كتابه الكريم، والتأدب بأوامره ونواهيه، والافتداء بسُنَّة نبيه محمد وآل بيته الطيبين الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين) الذي بُعث رحمة للعالمين، ونوراً للمهتدين.

لقد منَّ الله علينا بالقرآن الكريم، نصّاً لغوياً عظيماً انطوت فيه حكمة السماء من جهة وإبداعها وبلاغتها من جهة أخرى، فراح يحاكي العقل والقلب معاً على حد سواء، حتى عجز البلغاء عن محاكاته وإعادته للسانهم وإنَّ خَيْلَ للبعض ذلك؛ وذلك إذ قد يراه الناظر من يُسر مادته، وظهور المعاني فيه أنه سهل يسير، بيد أنه إذا عمل ذهنه وحاول جاهداً ليأتِ بآية من مثله عجز عن بلاغته وتصاغر عند براعته، وذلك لحسن بيانه، وتناسب آياته وانسجامها في كلِّ سورة فكان حُسنًا لا يُجارى وتناسباً لا يُبارى، فالذوق السليم يستشعر جلال إعجازه، وفخامة إبداعه، ورقة معانيه، وقوة أدائه، فله طريقة في المناظرة، وثباتاً في المحاوره، فتستسيغه الأذهان وتهواه الأفئدة، ليفتح آفاق المعرفة والعلم والأدب والتعلم والتهديب والضبط وحسن السلوك ونقاء النفس، ليُقنع ويُفحم عن بيّنة، فيستوعب كلَّ الناس مع اختلاف ثقافتهم بين السداجة والعمق، ليلامس شفاف النفس ولبَّ العقل محصّلة.

أسباب اختيار العنوان

وقع اختيار الباحث قناعة و يقيناً على موضوع (ظاهرة التلطف في القرآن الكريم – دراسة تفسيرية) وذلك إدراكاً منه بأنَّ هذا الموضوع له من الأهمية بمكان في نطاق الدرس القرآني والبحث التفسيري ما يدعو إلى دراسته والخوض فيه وصولاً للثمرة المرجوة منه، ومواكبة لمتطلبات الخطاب الدعوي المعاصر، ولا سيما نحن نعيش في

واقع كثُرت فيه الخطابات القاسية والمتشددة، فانعدمت فيها المراعاة، وبانَ عليها الميل إلى العنف، فضلاً عن توضيح الأساليب النصية القرآنية التي اعتمدت في كيفية مخاطبة الناس، بخطاب تُلطفي رُوعي فيه استبدال ما قد يُفهم منه القسوة أو الشدة بألفاظ أجمل، ممّا يعكس البعد الإلهي في التربية والدعوة، إلى جانب البعد البلاغي في عدد من الدراسات، ولا بُدَّ من الإشارة إلى أنّ هذه الظاهرة قد لمستها يدُ الباحثين من الناحية البلاغية غير أنّها لم تنل حقها من البحث في الجانب التحليلي والتفسيري، لذا ستسعى هذه الدراسة إلى إبراز ملامح هذه الظاهرة وأبعادها التفسيرية والتربوية على حدِّ سواء.

أهمية البحث

١. تتأى أهمية هذه الدراسة انطلاقاً من أنّها مختصة بظاهرة نصية غاية في العناية والأثر التفسيري ألا وهي (ظاهرة التلطف في النصّ القرآني)، فهي سمة نصية تستحق الوقوف والتأمل فيها بوصفها وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني لا محالة.
٢. تميّزت لغة القرآن الكريم بأسلوب فريد متميز، لذا انبغى البحث والتحليل في حنايا هذا الأسلوب المبدع، ومنه ظاهرة التلطف المتجلية في كلام الله ﷻ المعجز الموجّه للإنسانية جمعاء، بمختلف مستوياتها الثقافية والعلمية والاجتماعية، وذلك بغية تقويم الإنسان وتوجيه المحتوى الداخلي والمعطى الخارجي له للارتقاء به في عملية مقصودة تتناسب واستعداده العقلي والنفسي وحماية كيانه وفطرته السليمة من أيّ ضررٍ أو سوءٍ أو أذىٍ حتى لو كان على مستوى اللفظ والتعبير.
٣. يُعدُّ التلطف أحد السبل التي وظفها النصّ القرآني لتحاكي الإنسان برقي ولباقة بغية إرجاعه لطريق الحق وتصحيح توجهاته الخاطئة أو رده عن منحى العناد الذي قد يعتريه نتيجة لمعتقداته السابقة مراعاة منه ﷻ ورحمة منه لعباده عامّة.

الدراسات السابقة

وقد تتبّع الباحث الدراسات العلمية في نطاق هذه الظاهرة فلم يجد فيما بُحِثَ دراسة سلّطت الضوء عليها سوى دراسات بحثتها من الناحية اللغوية والبلاغية فحسب ولم تخض في الشأن القرآني المحض أو البحث التفسيري بتجرّد، وإنّ تضمّنت بعض العنوانات على ذكر القرآن الكريم، وعلى الرغم من الجهود التي بُذلت بهذا الصدد؛ إلا

أنها لم تُعَنَّ بالجانب التفسيري بقدر عنايتها بالجانب اللغوي، والتي منها (ظاهرة التلطف في الأساليب العربية دراسة دلالية لتقبل الألفاظ لدى الجماعة اللغوية) للدكتور محمد بن سعيد بن إبراهيم الثبيني - جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية، وهي تمثل محاولة علمية للكشف عن البُعد الاجتماعي للغة، من خلال التركيز على ظاهرة التلطف بوصفها تعبيرًا عن الحسّ الجماعي تجاه الحشمة والتعذيب والحياء، وما يرتبط بها من قيم لغوية تعبّر عن التفاعل بين اللغة والمجتمع، وقد سعت الدراسة إلى تحليل ظاهرة التلطف ضمن إطار اللسانيات الاجتماعية، مبرزةً العلاقة الوثيقة بين السياقات الاجتماعية والتعبير اللغوي، مع التركيز على دوافع التلطف وأسبابه المجتمعية، وأهم الوسائل التي تلجأ إليها اللغة لتحقيق هذا الغرض، ومن أبرزها: الاستعمال المجازي، والتحريف الصوتي، وغيرها من الأساليب التي تعكس مرونة التعبير في ضوء معايير الجماعة اللغوية وخصوصياتها الثقافية، والدراسة الأخرى التي جاءت تحت عنوان (أساليب التلطف العربية - دراسة لغوية تداولية) بقلم الباحث يونس اعنز وول - جامعة محمد الأول، حيث سعت هذه الدراسة إلى استكشاف الإجراءات التعبيرية التي تندرج تحت مظلة التلطف في الخطاب العربي، وهي الأساليب التي تُستخدم لاستبدال المعاني الحادة أو المباشرة بتعابير أكثر قبولاً وتهذيباً في سياقها التخاطبي، وقد اعتمد الباحث في هذه الدراسة منهجاً لغوياً تداولياً تطبيقياً، مسقطاً أبرز مفاهيم الدراسات التداولية، مثل: القصد، والإفادة، والمقام، والسياق، والفعل الكلامي، على الأساليب التلطفية، بغرض تحليل بنيتها وتجلياتها في الخطاب، وتوضيح أبعادها الوظيفية ضمن السياقين الحضاري والتاريخي، كما اشتملت الدراسة على مقارنة، بين التداولية العربية القديمة، وما يقابلها من نظريات غربية حديثة، مبرزاً نقاط الالتقاء والافتراق بينهما في تناول هذه الظاهرة اللغوية.

أمّا (المحظور اللغوي بين اللامساس والتلطف في التعبير) للباحث بدر بن سالم بن جميل القطيطي، مجلة كلية الآداب - جامعة بنها، العدد الأربعون - أبريل ٢٠١٥م، يقوم هذا البحث على محورين أساسيين؛ أحدهما يتناول أسباب وقوع المحظور اللغوي في اللسان العربي، والآخر يبحث في الوسائل الممكنة لتحاشي الوقوع فيه، مستنداً إلى منهج وصفي تحليلي، ويتمحور التساؤل الرئيس الذي ينبني عليه هذا البحث حول: كيف يتمكّن شركاء

التواصل من التفاهم في ظل وجود محظورات لغوية؟ ويُعدّ هذا التساؤل بمثابة الإشكالية التي توجّهت الدراسة لمعالجتها، ومن خلال هذا المنظور، يسعى البحث إلى تسليط الضوء على البُعد الاجتماعي في دراسة الظاهرة اللغوية، مؤكداً على العلاقة الوثيقة بين اللغة والحياة الاجتماعية، ويمثّل هذا البحث محاولة لرصد كيفية تعامل المتكلم العادي مع المحذور اللغوي في ذهنه، والكشف عن أبرز الاستراتيجيات التعبيرية التي تُمكنه من تجاوزه، ومن ذلك: اللجوء إلى الكناية، أو المجاز، أو الترادف، بما يضمن سلامة التواصل دون المساس بالمحرم أو المرفوض اجتماعياً أو ثقافياً.

ومن الدراسات ذات الصلة أيضاً دراسة (التعبير عن المحذور والمحسن اللفظي في القرآن الكريم - دراسة دلالية) للباحث عصام الدين عبد السلام محمد إبراهيم أبو زلال، جامعة القاهرة - كلية الآداب، ٢٠٠١م، تناول الباحث فيه ظاهرة لغوية دقيقة في الخطاب القرآني، تتمثل في كيفية تعبير القرآن عن المعاني المحرّجة أو الحساسة بما يُعرف بـ(المحذور اللغوي)، بأساليب بليغة ترفع الحرج وتحفظ بنية النصّ، فيسلط الضوء على (المحسن اللفظي) من حيث كونه أداة جمالية تُستعمل لتعزيز الأثر البلاغي، ممّا يُضفي على التعبير القرآني جمالاً وقوّة، وقد اعتمد الباحث في دراسته على المنهج الدلالي التحليلي، محللاً الألفاظ ضمن سياقاتها، مبيّناً كيف أنّ التعبير القرآني يتحاشى المباشرة في بعض المواطن، ويستبدلها بتعابير أكثر أدباً ورفقاً، مستعملاً المحسنات اللفظية لإبراز المعاني وتقويتها.

أمّا دراسة (التلطف في لغة القرآن الكريم) للباحث احمد محمد فليح العموش، جامعة آل البيت - كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فتعدّ محاولة علمية لاستكشاف البعد البلاغي للتلطف في القرآن الكريم من خلال تتبعه للمواضع التي جنح فيها الخطاب القرآني إلى استعمال الألفاظ الرقيقة بدلاً من الألفاظ الجارحة أو الصريحة في موضوعات الحشمة والعلاقات الإنسانية كقضايا النكاح والطلاق والموت والمرض، مستدلاً بذلك على بلاغة الخطاب القرآني الذي يعكس سمو الرسالة وجمال التعبير.

وفي دراسة أجراها الباحث أحمد خضير عمير تحت عنوان (آيات التلطف في القرآن الكريم - دراسة تحليلية) نشرت في مجلة إشراقات تنموية العدد ٢٧، الجامعة العراقية - كلية الآداب، حيث ركّز فيها الباحث على مواضع ورود لفظة اللطيف والتلطف صراحة، متناولاً فيه آفاق اللطف الرباني وثمراته، والتلطف البشري وثمرته.

وعليه لم ينفرد بحث بهذه الظاهرة من الناحية التفسيرية سوى ما جاء في طيّات المدونات التفسيرية من إشارات سريعة ومتناثرة يمكن أن يلتقطها الباحث هنا أو يمسك بها هناك، وإنّ الدراسات السابقة لم توضّح الغايات الدلالية المرادة من استعمال الألفاظ التلطفية التي تكمن أصالة في الابتعاد عن كلّ ما هو قبيح أو مستهجن من الألفاظ وينأى عن كلّ ما هو مناف للذوق أو خارج عن نطاق الأدب بوصفه نصّاً قرآنياً مقدّساً صادراً من لدن حكيم عليم.

من هنا جاءت هذه الدراسة مغايرة للدراسات السابقة التي ارتكزت على الجوانب الجمالية للألفاظ التي وردت لديهم تحت عنوان (التلطف في التعبير) أو (المحذور اللغوي والمحسن اللفظي) أو ما يسمى أحياناً (بتحسين اللفظ) أو (اللامساس) وهو غير ما يبتغيه الباحث تماماً بل سينصب الجهد ههنا على الدلالات القرآنية التي جاءت في حنايا التلطف والعمل على الكشف عن أنماطها في النصّ القرآني والتي يمكن من خلال ذلك استشراف ما ورائها من قيم مضمونيّة وثمارٍ معنويّة تصبُّ في نطاق توجيه المتلقي لما يريده سبحانه.

أهداف البحث

سيسعى هذا الجهد العلمي إلى فتح نطاق الدلالة التفسيرية لهذه الظاهرة واعتماد بيان المصداق المضموني لها في الآيات الكريمات، إذ يخال الباحث ان استعمال التلطف في التعبير القرآني فيه بواعث دلالية عميقة لا تتوقف عند حدود ما ابدع فيه علماء التفسير سلفاً، إذ لا شك في أنّ هناك جملة من المعاني والمضامين التي تكمن وراء إشكال التلطف في النصّ القرآني والتي سيسعى الباحث جاهداً للوصول إليها في بحثه هذا .

وإذا كان لابدٌ لكلِّ جهدٍ معرفي من فرضيات عقلية يقوم عليها فإنّه يمكن القول بأنّ هذه الدراسة قد تأسست على جملة فرضيات علمية يمكن إدراجها في الآتي:

١. ستسعى هذه الدراسة إلى إثبات إعجاز النص القرآني من حيث مسابره للعقل البشري على مدى الزمان فكلما اتسعت القاعدة المعرفية للبشرية وازدادت سرعة الانطلاق العلمية لديها فإنّ المتلقي سيتوسع أفق نظره في النصّ القرآني ليفهم بذلك دلالات جديدة منه والتي يمكن أنّ تعدّ ظاهرة التلطف إحدى هذه المنطلقات ابتداءً، بوصفه مفهوماً يميّز بخصائص دلالية ووظيفية تفردّه عن غيره من المفاهيم المقاربة.

٢. بيان دواعي استعمال التلطف في القرآن الكريم وأثره نفسياً وعقدياً على المتلقي، إذ يحسب الباحث أنّ هنالك دواعي كثيرة في هذه الظاهرة تتجاوز مرحلة القول بأنّه أسلوب جمالي وأبداع كلامي ينضوي في نطاق البلاغة فحسب، بل هنالك أسباب أعمق من ذلك سيسعى هذا البحث لاستنطاقها والاستيثاق من وجودها.

٣. يرحّج الباحث أن للتلطف أساليبه التي تمثّل بنية تكاملية مقصودة تعمل على تحقيق مقاصد خطابية دعوية وتربوية، الأمر الذي يكشف عن عمق البناء النصي في القرآن الكريم.

٤. سيعمل الباحث على تحديد الميادين القرآنية الأغزر استعمالاً للتلطف والبحث وراء معرفة هذه الغزارة في هذا الميدان دون غيره، إذ قد تنفتح الدلالة التفسيرية وتتعدد المصاديق المضمونية في نطاق آيات معينة تابعة لميدان خاص دون سواه، فقد يفضي التلطف في ميدان معين إلى جملة من المعاني والمضامين العميقة التي يمكن فهم مجموعة من البواعث والدواعي من ورائها دون غيرها من الميادين مطلقاً، ولكلّ هذا سبب وغاية وحكمة لا محالة.

مشكلة البحث

أمّا المشكلات المعرفية التي سينهض عليها البحث فتكمن في الآتي:

١. إنّ موضوع التلطف لم يُلتفت إليه بوصفه دراسة تفسيرية، بل كانت جلّ الدراسات السابقة متعلقة باللغة أو الأسلوب أو البلاغة القرآنية، وعليه فهو ما زال أرضاً بكرّاً في هذا المجال لم تمسه أقلام الباحثين بعد.

٢. البحث عن الآراء التفسيرية الموجهة لهذه الظاهرة دلاليًا وقراءتها قراءة فاحصة وبمنطق النقد التفسيري من أجل الوصول للمراد الأصل من وجود هذه الظاهرة، ذلك بأنّ النصوص التفسيرية في هذا المنحى تمثل إشكالاً به حاجة إلى معالجة، إذ من المفسرين من نحا بهذه الظاهرة إلى منحى الحقيقة دون منحى التلطف المجازي على سبيل المثال.

٣. إن من جنس المشكلات البحثية في هذه الدراسة هو وجود إشكالية في ترسيم حدود مفهوم التلطف، فهل هو منطق بلاغي؟ أو أنه سمة شكلية جمالية؟ أو أنه أبعد من هذين المنحيين؟ إذ يحسب الباحث أنّ مفهومه يرتبط بالمعنى أكثر من ارتباطه بالشكل والجمال، إذ وراءه جملة من المعاني التفسيرية والدلالات التي يبتغي النصّ المقدّس إيصالها للمتلقّي بهذا الإيجاز الكلامي الرفيع لا محالة.

من هنا سيكون تركيز الباحث على ظاهرة التلطف والدلالة التفسيرية التي سنتتجها؛ لذا فقد اشتمل البحث على مقدمة تلتها أربعة فصول، ثمّ ختمت ذلك كلّه بنتائج وقائمة بالمصادر والمراجع، أمّا الفصل الأوّل فقد بيّنت فيه المفاهيم النظرية للدراسة ومواضع الاتفاق والافتراق بين التلطف والمفاهيم المقاربة، وقسمته على ثلاثة مباحث، فجاء المبحث الأول بعنوان (بيان مفهوم الظاهرة والقرآن الكريم)، تلاه المبحث الثاني تحت عنوان (مفهوم التلطف في اللغة والاصطلاح ودلالته في الاستعمال القرآني)، أمّا المبحث الثالث فسميته (مواضع الاتفاق والافتراق بين التلطف والمفاهيم المقاربة)، إذ إنّ هناك مفاهيم ومضامين مقاربة للتلطف لزم التطرق إليها وبيان ما يتفق منها والتلطف وما يفترق، ولأنّ للتلطف دواعيه المتنوعة وغاياته، لهذا رصدت الفصل الثاني في دواعي التلطف فجاء بعنوان (دواعي استعمال التلطف في القرآن الكريم) وقسمته على مبحثين، جعلت المبحث الأول معنوناً بـ(الدواعي الدعوية المراعية للفطرة الإنسانية) بيّنت فيه الدواعي المرتبطة بالفطرة الإنسانية، وخرجت فيه بثلاثة دواعٍ، أمّا المبحث الثاني فقد جاء بعنوان (الدواعي الأخلاقية التربوية)، وقد خرجت فيه بثلاثة دواعٍ أيضاً، ولأنّ لكلّ ظاهرة أساليبها ودلالاتها، لذا كان الفصل الثالث تحت عنوان (أساليب التلطف في القرآن الكريم ودلالاتها التفسيرية) وقسمته على ثلاثة مباحث، سميت المبحث الأول بـ(دلالة

أسلوب المفارقة) والثاني بـ(دلالة أسلوب الاستدراج) أمّا المبحث الثالث فسميته بـ(دلالة أسلوب الحجاج)، أمّا الفصل الرابع فقد جاء تحت عنوان (نطاق دلالة التلطف التفسيرية في آيات القرآن الكريم) وقسمته على ثلاثة مباحث أيضاً، فكان المبحث الأول بعنوان (دلالة التلطف التفسيرية في آيات القصص القرآني)، أمّا المبحث الثاني فجاء معنوياً بـ(دلالة التلطف التفسيرية في آيات العقيدة) على حين وردَ المبحث الثالث بعنوان (دلالة التلطف التفسيرية في آيات الأحكام)، ومن ثمّ أنتهى البحث إلى خاتمة، أودعتُ فيها النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه المسيرة البحثية، وحصيلة ما بُدّل من جهد علمي في التأمل والتفكير في هذه الظاهرة التي اعتمدها النصّ القرآني وسيلةً راقيةً لمخاطبة البشرية بأسلوبٍ غايةً في الدقة والإتقان والتهديب والسمو، ثمّ اتبعت الخاتمة بقائمة بأسماء المصادر والمراجع التي أعانته في كتابة هذا البحث.

أمّا أهم المشكلات العلمية والمنهجية التي واجهت الباحث أثناء إعداد هذه الدراسة، والتي تطلّبت منه وقتاً وجهداً مضاعفين لتجاوزها، ومن أبرزها ما يلي:

١. واجه الباحث ندرة في المصادر التي تناولت موضوع التلطف بشكل مستقل، ممّا تطلب منه بذل جهد إضافي للتقصي والبحث في كتب التفسير والبلاغة واللغة.

٢. صعوبة التوصل إلى تعريف جامع لمفهوم التلطف؛ وذلك بسبب اختلاف المعالجات التي تناوله بها الباحثون السابقون، حيث إنّ بعضهم اقتصر على تناول اللغوي، في حين ركّز آخرون على الجوانب الاجتماعية وأخرى البلاغية.

٣. التحديات المنهجية المتعلقة بتمييز التلطف عن المصطلحات المقاربة منه، مثل اللطف والرفق واللين، وذلك لما بينها من تشابه في الدلالة يقتضي دقة علمية في الضبط والتفريق.

٤. محدودية الدراسات السابقة التي تناولت التلطف في القرآن الكريم، إذ لم يجد الباحث إلا دراسات قليلة، ما استلزم منه الاعتماد على تحليل نصوص قرآنية متعددة وتوظيف المناهج التفسيرية والبلاغية لبيان مظاهر التلطف.

٥. ظهور بعض الإشكالات في أساليب التلطف ضمن إطار نظري واضح، ممّا استدعى من الباحث جهداً مضاعفاً لبناء رؤية متكاملة واختيار نماذج تجمع بين البعدين اللغوي والتفسيري.

الفصل الأوّل

الفصل الأول

المفاهيم النظرية للدراسة ومواقع الاتفاق والافتراق بين التلطف والمفاهيم المقاربة

المبحث الأول: بيان مفهوم الظاهرة والقرآن الكريم

أولاً: مفهوم الظاهرة في اللغة والاصطلاح

ثانياً: مفهوم القرآن الكريم في اللغة والاصطلاح

المبحث الثاني: مفهوم التلطف في اللغة والاصطلاح ودلالته في الاستعمال القرآني

أولاً: مفهوم التلطف في اللغة

ثانياً: دلالة التلطف في الاستعمال القرآني

ثالثاً: مفهوم التلطف في الاصطلاح والمفهوم الكلي

١. مصطلح التلطف عند القدماء

٢. مصطلح التلطف عند المحدثين

٣. ثنائية التلطف واللا تلطف في الاستعمال القرآني

٤. المفهوم الكلي للتلطف

المبحث الثالث: مواقع الاتفاق والافتراق بين التلطف والمفاهيم المقاربة

أولاً: الاتفاق والافتراق بين التلطف والمحذور اللغوي والمحسن اللفظي

ثانياً: الاتفاق والافتراق بين اللطف والتلطف

ثالثاً: الاتفاق والافتراق بين التلطف والمضامين ذات الصلة

١. الرحمة

٢. الرأفة

٣. الرفق

٤. التودد

الفصل الأول

المفاهيم النظرية للدراسة ومواقع الاتفاق والافتراق بين التلطف والمفاهيم المقاربة

سيخوض هذا التمهيد في بيان المفاهيم النظرية فضلاً عن مواقع الاتفاق والافتراق بين التلطف والمفاهيم المقاربة له والمضامين ذات الصلة، بدءاً ببيان مفهوم الظاهرة في اللغة والاصطلاح ومن ثمّ مفهوم القرآن الكريم في اللغة والاصطلاح وصولاً إلى مفهوم التلطف في اللغة والاصطلاح ودلالاته في الاستعمال القرآني وعند القدماء والمحدثين والوقوف على حدوده وفارقه عن المفاهيم المقاربة في المفهوم والمضمون، ومن ثم الخروج بمفهوم كلي للتلطف.

المبحث الأول / بيان مفهوم الظاهرة والقرآن الكريم

يتضمن هذا المبحث فروعاً عدّة تناولت المفاهيم النظرية وهي كالآتي: -

أولاً: مفهوم الظاهرة

١. لغةً

قبل الخوض في نطاق بيان مفهوم الظاهرة لابدّ ابتداءً من معرفة معناها في المعطى المعجمي لها، فالظاهرة هي: (كلُّ أرضٍ غليظةٍ مشرفةٍ كأنها على جبلٍ، والظاهرةُ هي: العَيْنُ الجاحظةُ، وهي خلافُ الغائرة، وقيل الظاهرة والظاهرة: خلاف الباطن والبطانة من الأقبية ونحوها)^(١)؛ وبذا نجد أنّ الظاهرة تعني الأرض الغليظة وقد تدلّ على معنى العين الجاحظة أو هي خلاف الباطن، من هنا نفهم بأنّ الظاهرة هي كلّ ما يبدو للعيان من حيث الظهور والعلو والإدراك بالعين وهي بهذا حتماً خلاف الباطن أو الخفي.

(١) الفراهيدي: الخليل بن أحمد: العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، مؤسسة

دار الهجرة، ط٢، ١٤١٠هـ: ٣٨/٤.

٢. اصطلاحاً

عرّفه صليبا: (الظاهر من الشيء ما انكشف لك منه دون دليل، وضده الخفي والباطن)^(١)، وهذا البيان التعريفي أقرب إلى المضمون المعجمي منه إلى الإيضاح الاصطلاحي منها، وقيل: (هي الواقع الخارجي المؤثر في الحواس كالظاهر الفيزيائية والكيميائية والحيوية والفلكية)^(٢)، وتأتي في مجال العلوم بمعنى آخر ف: (تطلق الظاهرة أيضاً على كلّ ما يبحث فيه العلم من الحقائق التجريبية أو على المعطيات التجريبية المباشرة من جهة ما هي مستقلة عن المدرك)^(٣).

أما الظاهرة عند المحدثين: (فهي الأمر ينجم بين الناس يقال بدت ظاهرة الاهتمام بالصناعة)^(٤).

وبناءً على المعنى اللغوي والاصطلاحي للظاهرة، يمكننا القول بأنّ الظاهرة ليست مجرد حضور أو ظهور سطحي؛ بل هي تمثّل نمطاً متكرراً أو سلوكاً ملموساً يتجلى واضحاً ضمن نطاقٍ ما، سواءً كان اجتماعياً أو لغوياً أو دينياً أو علمياً، ولأنّ دراسة ظاهرة التلطف ترتبط بمجموعة من الفنون المعرفية والعلوم التخصصية، التي يمكن رصدها وتتبع تجلياتها ضمن سياق النصّ القرآني، لذا وجب دراستها من عدّة جوانب؛ ذلك أنّها ظاهرة لغوية ترتبط بالبلاغة من جهة بوصفها تعبيراً بليغاً يتحكم به المتكلم من أجل إيصال المعنى بطرق فنية عالية الدقة، وترتبط أيضاً بالمنحى اللغوي التحليلي من جهة أخرى؛ لأنّ هذه الظاهرة التي تعتمد على مبدأ استبدال لفظة بلفظة أخرى جديدة، أجدر منها والطف، لها مغزى دلاليّ تحليليّ على المتلقي أنّ يفهمه وينتزع استنباطاً من النصّ، فإنّ لهذه اللفظة الجديدة دلالة جديدة ومعنى آخر يُزاد على النصّ، إذ لا يفهم ولا يُستنتج ولا يُدرك في حال استعمل اللفظ السابق تحديداً ومباشرةً، وعليه فهي ظاهرة تعتمد مبدأ التحليل من المتلقي، أمّا العلم الآخر الذي ترتبط به فهو علم التفسير لأنّها مودعة بشكل كبير جداً في كلّ مفاصل النصّ القرآني، فلا نجد سورة من سوره إلّا

(١) جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتب اللبناني- لبنان، ١٩٨٢م، ٢ / ٢٩.

(٢) م. ن: ٣٠.

(٣) م. ن: ٣٠.

(٤) م. ن: ٣٠.

ووجدنا فيها فناً من فنون التلطف أو أسلوباً من أساليبه التي عبّر الله تعالى به عن مراداته لأهل الأرض، لذا فإنّ المبدأ الأول لهذه الظاهرة وهويتها الأصل هي هوية تفسيرية والمنطلق الفني لها يدعونا إلى أن نقول بأنها ظاهرة بلاغية تباعاً، وأنّ المنحى الانتزاعي للمعنى منها يُمكننا من القول بأنّها ظاهرة لغوية دلالية تحليلية بالمحصلة الثالثة، وبهذا فإنّ المعنى المراد من هذه الظاهرة هو عملية إضافة معنى جديد، روعي فيه أبعاد تفسيرية، يجيء في المقام الأول مراعاة نفسيّة المتلقي بطريقة بلاغية عالية، يفهم منها المفسر أكثر مما لو استعمل اللفظ الأصل مباشرة دون استبداله.

ثانياً: مفهوم القرآن الكريم

١. لغة

لقد تباينت وجهات العلماء في تحديد المعنى اللغوي والمعنى المعجمي للفظ (القرآن) على عدّة آراء (فمنهم من رأى بأنّ لفظه (القرآن) مُرتجلة؛ أيّ إنّها لم تكن موجودة قبل نزول القرآن؛ بل ارتجلها الله سبحانه أيّ أنشأها بداعي نزول النصّ المعجز فأطلق عليه اسم (القرآن) فهي لفظة غير مُشتقة من لفظة أخرى وهي غير مهموزة تطلق بوصفها اسماً لكتاب الله تعالى كلفظة (التوراة) ولفظة (الإنجيل)^(١)، ومنهم من ذهب إلى أنّها مفردة عربية لها جذرها اللغوي في التداول الكلامي لدى العرب، وإنّها لفظة عربية مُشتقة من أصل غير مهموز؛ مُشتقة من الفعل (قرن) وهذا ما صرح به الأشعري بقوله: (هو مُشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممت أحدهما إلى الآخر وسُمّي به لقرآن السور والآيات والحروف فيه)^(٢).

(١) يُنظر: السيوطي: أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ): الإتيان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، من إصدارات: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١/٤٦١، والزركشي: بدر الدين محمد بن بهادر بن عبدالله الشافعي (ت ٧٩٤هـ): البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م، ٢٧٧/١.

(٢) السيوطي: الإتيان في علوم القرآن: ١/٤٤١.

أما الفرء فرأى بأن القرآن: (مُشتق من القرائن؛ لأنَّ الآيات منه يصدق بعضها بعضاً ويشابه بعضها بعضاً وهي قرائن)^(١).

على حين ذهب الزجاج إلى أنه (مشتق من القراء بمعنى الجمع، ومنه قرأت الماء في الحوض؛ أي جمعته)^(٢)، ويبدو أنه سُمِّي بهذا الاسم لأنه قد جُمعت السور والآيات فيه بعضها إلى بعض^(٣)، (وقال الراغب: سُمِّي قرآناً لكونه جمع ثمرات الكتب المنزلة السابقة)^(٤).

ومما تقدم من آراء يميل الباحث إلى أن لفظة القرآن مشتقة من اللفظ "قرأ" فهو أقرب ما يكون، إذ يعبر عن الجمع والضم والتلاوة، وهي المعاني التي تتسق مع حقيقة القرآن من حيث كونه كتاباً مجموعاً يُقرأ ويُتلى على الناس لكنه لا يُشبه أي نص يُقرأ؛ وذلك لديمومته وتجدد معانيه عبر العصور المواكبة لحاجات الانسان الفكرية والروحية والاجتماعية ف (قراءة النص القرآني بكل أبعاده واتجاهاته واستثمار دلالاته، يُعد من وجوه إعجازه إذ أنه يساير كل زمن في الوقت الذي هو فيه خارج عن قبضة الزمن)^(٥).

٢. اصطلاحاً

نظراً لخصوصية القرآن الكريم لعظم كينونته وسعة إعجازه، لذا فإنه لا يمكن أن يُحد بتعريف؛ غير أنه لابد من تعريف توضيحي له يُقرب فهمه للأذهان، وعليه فقد عرفه الغزالي بقوله أن (حدّ الكتاب ما نقل إلينا بين دفتي المصحف على الأحرف السبعة

(١) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن ١/١٤٤، ويُنظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن: ٢٧٨/١.

(٢) م.ن: ١/١٤٤.

(٣) يُنظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن: ٢٧٧/١، والسيوطي: الإتقان في علوم القرآن: ١/١٤٤.

(٤) الزركشي: البرهان في علوم القرآن: ٢٧٧/١.

(٥) يُنظر: سيروان عبد الزهرة الجنابي: تاريخ القرآن وعلومه، دار الرافد للطباعة - بغداد، الناشر: دار حدود للنشر والتوزيع - بيروت - لبنان، ط ٢، ١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م: ٣١، ويُنظر: فكر أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في حلّ الإشكالات التفسيرية للنص القرآني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الناشر: مركز كربلاء للدراسات والبحوث، ط ١، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م: ١١ - ١٢.

المشهوره نقلاً متواتراً ونعني بالكتاب القرآن المُنزَل^(١)، ولا خلاف في هذا فقد تسالم الجمهور مع الغزالي في حدّه للقرآن الكريم؛ متفقين على أنّ القرآن هو (ما نُقِلَ بين دفتي المصحف نقلاً متواتراً)^(٢).

وعرّفه الشوكاني بقوله: (هو الكلام المُنزَل على الرسول المكتوب في المصاحف المنقول إلينا نقلاً متواتراً)^(٣).

وعرّفه الزرقاني صاحب كتاب (مناهل العرفان): (أنّه الكلام المعجز المُنزَل على النبي، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته)^(٤).

أمّا السيد محمد باقر الصدر فقد عرّفه بأنّه: (هو الكلام المعجز المنزل وحيّاً على النبي ﷺ المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته)^(٥).

(١) الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد بن محمد: المستصفى، تحقيق: أحمد زكي حماد، ٨١/١.

(٢) محمد عبد العظيم الزرقاني (ت ١٩٤٨م): مناهل العرفان في علوم القرآن، دار احياء الكتب العربية، د.ط، د.ت: ٢٩٦/١.

(٣) الشوكاني: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق: أحمد عزو عناية، دار الكتب العربية، ط١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م: ٤٦/١.

(٤) م.ن: ١٥/١.

(٥) محمد باقر الصدر: بحوث في علوم القرآن، مجمع الثقلين العلمي - بغداد - العراق، د.ت: ٢١.

المبحث الثاني

مفهوم التلطف في اللغة والاصطلاح ودلالته في الاستعمال القرآني

أولاً: مفهوم (التلطف) في اللغة

التَّلَطُّفُ في اللغة مأخوذٌ من اللَّفْظِ (لَطَفَ) ويدور معنى هذه المفردة على مضمون الرفق^(١) وجاء في كتاب العين في مادة: (لَطَفَ) أَنَّ ((اللُّطْفَ: البرُّ والتَّكْرُمَةَ، وأمُّ لَطِيفَةٌ بولدها تُلَطِّفُ إِطْفَافاً، واللُّطْفُ: من طَرَفَ التحف ما أَلَطَفَتْ به أَخَاكَ لِيُعرفَ به بَرِّكَ، وأنا لَطِيفٌ بهذا الأمر، أي: رَفِيقٌ بِمُدَارَاتِهِ، واللُّطِيفُ: الشيء الذي لا يتجافى من الكلام وغيره، والعودِ ونحوه، كلامٌ لَطِيفٌ، وعودٌ لَطِيفٌ، لطفَ لطفاً.. وإن فيها للطفِ لطفٌ خلق: غير جسيمة)^(٢).

واللُّطِيفُ من الكلام: ما غَمَضَ مَعْنَاهُ وَخَفِيَ، ومن رَفَقَ وَدَنَا، وأُطِفَ اللهُ لك: هو أن يُوصَلَ إِلَيْكَ مرادك بلطف^(٣).

وعند الجوهري، جاء بمعنى الصُّغْر فنقول: (لَطَفَ الشيء بالضم يلطفُ لطفَةً، أي: صَغُرَ، فهو لَطِيفٌ، واللُّطْفُ في العمل: الرفقُ فيه، واللُّطْفُ من الله تعالى: التوفيق والعصمة، وألطفه بكذا، أي بره به، والاسم اللُّطْفُ بالتحريك، يقال جاءتنا لطفَةً من فلان، أي هدية، والمُلاطفة: المبارزة، والتلطفُ للأمر: الترفقُ له)^(٤).

(١) ابن فارس: أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م : ٣٣٧ / ٢.

(٢) الفراهيدي: العين : ٤٢٩ / ٧.

(٣) يُنظر: الكفوي : أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني: الكليات ، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م : ٧٩٧.

(٤) الجوهري: إسماعيل بن حماد (ت٣٩٣هـ): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين- بيروت، ط٢، ١٩٩٠م: ١٤٢٧ / ٤.

وعليه فإنّ معنى اللطف عموماً هو الرفق والخفاء أيضاً، وقد يدلّ على الصغر وصغر الشيء يوحي بضرورة التلطف معه رعاية له وحفاظا عليه، وعليه فهي توحى بالرفق أيضاً من جانب آخر.

وجاء في (الإفصاح في فقه اللغة) أنّ: (لَطَفَ يَلُطِفُ لُطْفًا: رَفَقَ وَدَنَا وَتَلَطَّفُوا وَتَلَطَّفُوا: رَفَقُوا وَتَوَاصَلُوا وَالْمَلَاظِفَةُ: الْمُبَارَّةُ وَ أَلْطَفَهُ بِكَذَا: بَرَّهُ بِهِ)^(١).

و(لُطْفُ الشَّيْءِ فَهُوَ لَطِيفٌ مِنْ بَابِ قُرْبٍ: صَغَرَ جِسْمُهُ، وَهُوَ ضِدُّ الضَّخَامَةِ، وَالْإِسْمُ اللَّطِيفَةُ، وَلُطْفَ اللَّهُ بِنَا مِنْ بَابِ طَلَبٍ: رَفَقَ بِنَا، فَهُوَ لَطِيفٌ بِنَا، وَالْإِسْمُ اللَّطْفُ، وَتَلَطَّفْتُ بِالشَّيْءِ: تَرَفَّقْتُ بِهِ، وَتَلَطَّفْتُ: تَخَشَّعْتُ وَيُقَالُ لَطَفَ اللَّهُ لَكَ، أَي أَوْصَلَ إِلَيْكَ مَا تَحِبُّ بِرَفْقٍ، وَاللُّطْفُ وَاللُّطْفُ بِاللُّطْفِ بِالتَّحْرِيكِ، يُقَالُ جَاءَتْنا لُطْفَةٌ مِنْ فُلانٍ أَي هَدِيَةٌ)^(٢).

عند التأمل في النصوص المعجمية السابقة، نجد أنّ التلطف قد يدلّ على البرّ وقد يشير إلى الهدية، وفي كلا المعنيين نلاحظ مضمون الرفق، فالبر مبنئ على التلطف، والمداراة والمباراة هي التلطف ذاته، وأما الهدية فتشير بما لا يقبل الشكّ إلى الرفق والمحبة والمواددة للمُهدى إليه محصلة، وعليه فإنّ الهدية نابعة من التلطف والتحنن في نفس المُهدي إلى المُهدى إليه مألأ.

من هنا نجد أنّ معنى التلطف يدور على معنى الرفق عموماً، فكلّ الدلالات التي يشير إليها أنّها هي راجعة لمعنى الترفق بطريقة أو بأخرى.

وبهذا يمكن القول بأنّ معنى الترفق يلتقي بمفهوم التلطف في الاصطلاح والمفهوم أصالة كما سيرد لنا تباعاً في تضاعيف الدراسة.

(١) حسين يوسف موسى وعبد الفتاح الصعيدي: الإفصاح في فقه اللغة: دار الكتب المصرية، ط ١، ١٣٤٨هـ - ١٩٢٩م: ٢ / ١٣٥.

(٢) حسن المصطفي: (معاصر): التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مؤسسة الطباعة والنشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ط ١، ١٤١٧هـ: ١٠ / ٢١٣ - ٢١٤.

ثانياً: دلالة التلطف في الاستعمال القرآني:

لابدّ لنا ابتداءً من تتبع المواضع التي وردت فيها هذه الكلمة أو مشتقاتها، للوقوف على المعاني المرادة في كل موضع من الآيات الكريمة، وهل أنّها جاءت بمعنى واحد أو كان لها جملة معان ودلالات بحسب ما يتناسب وموضعها في النصّ القرآني، (فالأصل في اللطف الدقة والرفق، ويقابل بذلك الغلظة والخشونة، ومن آثاره، البر والتكرمة والموودة والرحمة والرافة والإهداء والتخضع والتوجه إلى الجزئيات، وللطافة مراتب أيضاً من جهة الدقة والرفق، وكمال اللطافة إنّما يتحقق في الله ﷻ، فهو تعالى لطيف لا يُتصور فيه غلظة ولا خشونة، فهو ﷻ نور منبسط لا يحجبه شيء، لا نهاية في دقته، اللطيف المطلق الحق، فهي حقيقة يلزمها التوجه والمعرفة إلى الجزئيات والإحاطة بدقائق الأمور، تصاحبها الرأفة والعطف، والبر والإحسان)^(١).

وقد جاءت لفظة (اللطيف) في قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٢)

وقد جاء تفسير لفظ (اللطيف) في بعض المصادر التفسيرية بمعنيين: (أحدهما - أنّه اللطيف لعباده بسبوغ الإنعام، غير أنّه عدل من وزن (فاعل) إلى (فعليل) للمبالغة، الثاني - أنّه لطيف التدبير، وحذف لدلالة الكلام عليه)^(٣).

على حين أنّ الطبرسي ذكر في معنى التلطف سبعة أوجه، بقوله: ﴿وهو اللطيف﴾ قيل في معناه وجوه أحدها: إنّ اللطيف بعباده، بسبوغ الإنعام، غير أنّه عدل عن وزن فاعل إلى فعليل للمبالغة والثاني: إنّ معناه لطيف التدبير، إلاّ أنّه حذف لدلالة الكلام عليه، والثالث: إنّ اللطيف الذي يستقل الكثير من نعمه، ويستكثر القليل من طاعة عباده والرابع إنّ اللطيف: الذي إذا دعوته لبّاك، وإنّ قصدته آواك، وإنّ أحببته أدناك، وإنّ أطعته كافاك، وإنّ عصيته عافاك، وإنّ عرضت عنه دعاك، وإنّ أقبلت إليه هداك، والخامس:

(١) حسن المصطفوي: التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ١٠ / ١٩٣.

(٢) سورة الأنعام: ١٠٣.

(٣) الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي (ت ٤٦٠هـ): التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: احمد حبيب قصير العاملي، مطبعة مكتبة الإعلام الإسلامي، ط ١، ١٤٠٩هـ: ٢٢٦/٤.

اللطيف: من يكافئ الوافي، ويعفو عن الجافي، والسادس: اللطيف من يعز المفتر به، ويعني المفتر إليه والسابع: اللطيف: من يكون عطاؤه خيرة، ومنعه ذخيرة^(١).

على حين يرى آخر أنّ معنى اللطيف جاءت في قبال الكثيف بمعنى: (يدرك ما لا تدركه الأبصار، كالإبصار، ويجوز أنّ يكون من باب اللطّف، أي: لا تدركه الأبصار لأنّه اللطيف، وهو يدرك الأبصار لأنّه الخبير فيكون (اللطيف) مستعاراً من مقابل (الكثيف) لما لا يدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها^(٢).

ومن جملة هذه الآراء التي وردت في أقوال العلماء في معنى (اللطيف) نجد أنّه قد تعددت وكثرت لتشمل أكثر من معنى، لذا كانت الأقوال فيها تتفق تارة وتفرق أخرى، وسبب ذلك؛ أنّ كلّ منهم كان ناظراً إلى المعنى من زاوية معينة أو من حيثية مغايرة للآخر وإنّ اتفقوا في بعضها، وكلها آراء محترمة وأقوال معتبرة، لأنّها تلتقي ومعنى اللطيف أو يمكن القول بأنّها من المصاديق التي تنطبق عليها، ولكن يميل البحث إلى المعنى الأقرب والمراد في هذه الآية المباركة، والذي يتضح من خلال الرجوع إلى سياق النصّ، فالمعنى من دون شك لا ينفك عن سياق الآية، ففي قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ يتضح لنا المعنى الأكثر وضوحاً والأغلب ظهوراً، هو الخفاء؛ وذلك لارتباطه بما سبقه، فالآية بصدد التحدث عن الإدراك البصري، وتنزيهه ﷻ من إنّ يُدرك بالأبصار أي العين الباصرة وهو ما يستحيل أدراكه، ذلك بأنّه ﷻ ليس بالجسم حتى يُدرك، فلا يحده زمان ولا يحتويه مكان، ولا أين ولا كيف؛ فلا يؤيّن بأين ولا يكيّف بكيف، ليكون المعنى الأقرب أنّ (اللطيف) في مقابل الكثيف؛ الذي لا يمكن للحواس أدراكه، فهو ﷻ يُدرك ولا يُدرك.

(١) الطبرسي: أبو علي الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨ هـ): مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت، ط ١، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م: ٤ / ١٢٧ - ١٢٨ ويُنظر أيضاً: الطهراني: مير علي الحائري الطهراني: تفسير مقتنيات الدرر، مطبعة الحيدري، الناشر: الشيخ محمد الآخوندي، ١٣٣٧ هـ: ٤ / ٢٣٥.

(٢) المشهدي: محمد بن محمد رضا القمي (ت ١١٢٥ هـ): تفسير كنز الدقائق و بحر الغرائب، تحقيق: حسين دركاهي، ط ١، مؤسسة الطبع والنشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي: ٤ / ٤١١.

وجاء (اللطيف) في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(١).

فاللطيف ههنا جاءت بمعنى تدبير الأمور بعناية ودراية، فـ: (قوله: وهو اللطيف الخبير ومعناه هو اللطيف بعباده من حيث يدبرهم بلطف التدبير، فلطيف التدبير هو الذي يدبر تدبيراً نافذاً لا يخفوا عن شيء يدبره)^(٢).

وقيل أنّ معنى اللطيف هو العالم بأدق الأشياء؛ فالمراد هنا: (أيّ العالم بما لطف ودق... وقيل: اللطيف من كان فعله في اللطف بحيث لا يهتدي إليه غيره، وهو فعيل بمعنى فاعل كالقدير والعليم، وقيل: هو بمعنى الملطف كالبديع بمعنى المبدع، وقيل: اللطيف الذي يكلف اليسير، ويعطي الكثير)^(٣).

ويمكن أن نفصل القول في ذلك، بإيراده لعدّة معانٍ مفادها تنزيهه ﷺ عن غيره وامتناع إدراكه (فـ) اللطيف ليس على قلة وفضافة وصغر، ولكن ذلك على النفاذ في الأشياء، والامتناع من أن يُدرك، كقولك: لطف عن هذا الأمر، ولطف فلان في مذهبه، وقوله يخبرك أنه غمض فبهر العقل، وفات الطلب، وعاد متعمقا متلطفا لا يدركه الوهم، فهكذا لطف ربنا تبارك وتعالى عن أن يدرك بحد أو يحد بوصف، واللطافة منا الصغر والقلّة، فقد جمعنا الاسم واختلف المعنى)^(٤).

وقيل أنّ: (اللطيف من علّم المغيبات بلا مرشد واللطيف من عرف الغائبات بلا دليل واللطيف المشرف على الغائبات كإشرافه على الحاضرات واللطيف من أحسن إليك في لطف الخفاء والخبير من يخبرك بما في غيبك والخبير من يختبر أمرك فيأتيك بالألطف على حسب المصالح لئلا تستبطئه في المنع)^(٥).

(١) سورة الملك : ١٤ .

(٢) الطوسي : التبيان في تفسير القرآن : ٦٥/١٠ .

(٣) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن : ١٠ / ٧٦ .

(٤) البحراني: هاشم بن سليمان: البرهان في تفسير القرآن، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية – مؤسسة البعثة – قم: ٤٤١ / ٥ .

(٥) السلمي: أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين(ت٤١٢هـ): تفسير السلمي، تحقيق: سيد عمران، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م: ٣٤١ / ٢ .

وجاء في رأي آخر أنّ معنى اللطيف (مأخوذ في الأصل من (اللطف) ويعني كلّ موضوع دقيق وظريف، وكل حركة سريعة وجسم لطيف، وبناء على هذا فإنّ وصف الله تعالى بـ(اللطيف) إشارة إلى علمه عز وجل بالأسرار الدقيقة للخلق، كما جاءت أحياناً بمعنى خلق الأجسام اللطيفة والصغيرة والمجهرية وما فوق المجهرية، إنّ جميع ما ذكر سابقاً إشارة إلى أنّ الله اللطيف عارف ومطلع على جميع النوايا القلبية الخفية^(١).

أمّا صاحب تفسير نور الثقلين فيورد رواية عن الإمام الرضا عليه السلام يُفسّر فيها قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ إذ جاء في: (أصول الكافي بإسناده إلى الفتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن عليه السلام حديث طويل وفيه فقال: يا فتح أنما قلنا: اللطيف للخلق اللطيف لعلمه بالشيء اللطيف، أولاً ترى وفّقك الله وثبتك إلى أثر صنعه في النبات اللطيف ومن الخلق اللطيف ومن الحيوان الصغار ومن البعوض والجرجس وما هو أصغر منها ما لا يكاد تستبينه العيون، بل لا يكاد يستبان لصغره الذكر من الأنثى، والحدث المولود من القديم، فلما رأينا صغر ذلك في لطفه واهتدائه للسفاد والهرب من الموت والجمع لما يصلحه وما في لجج البحار وما في لحاء الأشجار والمفاوز والقفار وأفهام بعضها عن بعض منطقتها وما يفهم به أولادها عنها ونقلها الغذاء إليها، ثم تأليف ألوانها حمرة مع صفرة، وبياض مع حمرة، وإته ما لا يكاد عيوننا تستبينه لدمامة خلقها لا تراه عيوننا وتلمسه أيدينا، علمنا أنّ خالق هذا الخلق لطيف لطف بخلق ما سميناه بلا علاج ولا أداة ولا آلة، وأنّ كلّ صانع شيء فمن شيء صنع، والله الخالق اللطيف الجليل خلق وصنع لا من شيء^(٢).

وبهذا نجد بأنّ لللطيف معاني متعددة كما نقل في كتب التفسير، ولا سيما الرواية التي نقلها صاحب تفسير الثقلين عن أبي الحسن عليه السلام، والتي بيّنت لنا وأوضحت بعض معاني اللطف، من خلال إعطائنا الأمثلة التي تساعدنا على الفهم لنستقي منها المعاني العميقة

(١) ناصر مكارم الشيرازي (معاصر): الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل الناشر: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، د.ط، د.ت : ١٨ / ٤٩٣.

(٢) الحويزي: عبد علي بن جمعة العروسي (ت ١١١٢ هـ): تفسير نور الثقلين، تحقيق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، ط ٤، ١٤١٢ هـ، مؤسسة إسماعيليان - قم : ٥ / ٣٨٣.

والدلالات الواسعة التي تنضوي تحتها، ومما يمكن أن نلتمسه من كلامه ﷺ أشارته إلى الخلق اللطيف لعلمه ﷻ وتدبيره، وصنعه للنبات والحيوان ومن الحيوان الصغار، والصغر هو أحد المعاني التي تتفق واللفظ، ثم ساق أمثله لذلك منها البعوض والجرجس وما لا يكاد تستبينه العيون، وعدم ادراك الإنسان لها بالعين المجردة، إشارة منه لدقتها وهو أيضا احد معاني اللطف كما بينا^(١)، ويمكن التوصل إلى أحد المصاديق الأقرب لمعنى اللطيف من خلال سياق الآية، وبالرجوع إلى الآية التي سبقت ذلك وهو قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٢)، وبالنظر إلى سبب نزول هذه الآية (نقل بعض المفسرين عن ابن عباس إن سبب نزول هذه الآية: (إن جماعة من الكفار - أو المنافقين - كانوا يذكرون الرسول بالسوء بدون علمه، وكان جبرئيل ﷺ يخبر الرسول بذلك، وكان بعضهم يقول للآخر (أسروا قولكم) فنزلت الآية أعلاه موضحة أن جهرهم أو إخفاءهم لأقوالهم هو مما يعلمه الله تعالى وتأتي الآية اللاحقة دليلا وتأكيدا على ما ورد في الآية السابقة، حيث يقول تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير﴾^(٣)، ذلك بأن الله خالق كل شيء، لكنهم تصوروا لسذاجتهم وجهلهم بأنهم أن اسروا القول فإن الله لن يعلم ما يقولون، ﷻ عما يعتقدون، فهو الخالق الذي لا تخفى عليه خافية؛ لاطلاعه على أسرار الكون فضلا عن أسرار الإنسان والتي هي جزء بسيط من هذا الكون، بهذا نفهم أن (اللطيف) هو المراعي والحريص على تدبير أمور خلقه ومعرفة ذلك جميعا^(٤). ومنه لفظة (اللطيف) على لسان يوسف ﷻ التي وردت في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السَّبْحِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(٥)

(١) ينظر: البحراني : البرهان في تفسير القرآن : ٥ / ٤٤٢ .

(٢) سورة الملك : ١٣ .

(٣) ناصر مكارم الشيرازي : الأمل في تفسير كتاب المنزل : ١٨ / ٤٩٢ .

(٤) وقد وردت لفظة (اللطيف) بهذا المعنى في الآيات الكريمة من سورة الحج : ٦٣ وكذلك في سورة الأحزاب : ٣٤ .

(٥) سورة يوسف : ١٠٠ .

وأورد آخر أن في قوله: (إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ) لطيف في تدبير عبادته، إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته ويتسهّل دونها، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ، بوجوه المصالح في تدبير العباد، الْحَكِيمُ، الَّذِي يَفْعَلُ كُلَّ شَيْءٍ فِي وَقْتِهِ، وَعَلَى وَجْهِ تَفْتِزِي الْحِكْمَةِ^(١)

ويرى آخر أن اللطف مختص بالطيبين، إذ يقول: (يلطف بالطيبين، ويبلغ بهم إلى ما يشاؤهم من العز والكرامة " إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)^(٢)

فإيراد لفظة اللطف جاء في موارد مشيئته ﷻ لغاية وحكمة؛ إذ إن: (النظر إلى بيان اختصاص اللطف لموارد يشاء فيها إجراء اللطف على مقتضى الحكمة وتدبير النظام، واللام للاختصاص)^(٣)، على حين ذهب بعض المفسرين بأن معنى اللطف جاء مساوياً للرفق مصحوباً بالإحسان ذلك بأن: (اللطيف هو: الرفيق، ويقال معنى الآية: إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ (بمن) يشاء، وحقيقة اللطيف هو الذي يوصل الإحسان إلى غيره برفق)^(٤) واللفظ في إنقاذ العبد ونزع الشيطان عن يوسف ﷺ: (لطيف لطف بيوسف بإخراجه من السجن ونجى أهله من البدو، ونزع عن قلبه نزع الشيطان)^(٥). وتهيئة الظروف وتسبب الأسباب وتذليلها وتيسيرها هو من باب اللطف ذلك، (أَنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ أَيَّ إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا، قَيَّضَ لَهُ أَسْبَابًا، وَقَدَّرَهُ وَيَسِّرَهُ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ، الْحَكِيمُ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ، وَمَا يَخْتَارُهُ وَيُرِيدُهُ)^(٦)

(١) الكاشاني: فتح الله بن شكر الله (ت ٩٨٨هـ): زبدة التفاسير، تحقيق: مؤسسة المعارف، مطبعة عترت، مؤسسة المعارف الإسلامية - قم، د. ط، ١٤٢٣هـ: ٣ / ٤١٤.

(٢) محمد جواد مغنية: (ت ١٤٠٠هـ): التفسير الكاشف، دار العلم للملايين - لبنان، ط ٣، ١٩٨١م: ٤ / ٣٥٩.

(٣) حسن المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ١٠ / ١٩٤.

(٤) السمعاني: منصور بن محمد بن عبد الجبار المروزي (ت ٤٨٩هـ): تفسير السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، مطبعة السعودية - دار الوطن - الرياض ط ١، ١٤١٨هـ: ٦٨/٣.

(٥) العز بن عبد السلام: عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ): تفسير العز بن عبد السلام، تحقيق: د. عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم - بيروت، ط ١، ١٤١٦هـ: ٢ / ١٤١.

(٦) الزحيلي: وهبة بن مصطفى: التفسير الوسيط، دار الفكر - دمشق، ١٤٢٢هـ: ٢ / ١١٣٨.

وعليه فإنّ معنى (اللّطيف) هنا هو المراعي والمربي والمحافظ. من خلال هذه الجولة بين آراء المفسرين يمكننا أن نستشف من أقوالهم ما للتلطف من معانٍ وآفاق لا يمكن بحال من الأحوال عدّها لارتباطها بأحد أسماء الله تعالى، ويصعب سبر غورها مهما جهدنا في ذلك، ولكن يمكننا التعويل على المعنى المراد في هذه الآية من خلال النظر إلى السياق لبيان العلاقة بين تواجد (اللطيف) مع سياق النصّ ومن ثمّ الوقوف على المعنى المقصود، ومن الآثار التي يمكن أن نلمسها هي الإرادة الإلهية والتدبير المهيمن على كلّ إرادة ومحاولة تتناقض مع إرادة الله ﷻ والتي خيّبت آمال أخوته فتحققت بذلك رؤيته ﷻ التي هي من تدبير الله ﷻ وقضائه، ولم يكن ثمة عائق يحول دون إرادته إلاّ إنه ﷻ يفعل كلّ شيء في وقته لحكمة ما وهدف لا يعلمه إلا هو وانه مهما صَعُب الأمر فلفظ الله ومراعاته له هو النافذ. ومن المواضع التي وردت فيها لفظة (لطيف) أيضاً قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِنْقَالًا حَبَّةً مِنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾^(١).

جاء في تفسير هذه الآية المباركة، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ قال قتادة: (معناه - ها هنا - لطيف باستخراجها، خبير بمستقرها، واللطيف القادر الذي لا يحفو عن عمل شيء، لأنّ من القادرين من يحفو عن عمل أشياء كثيرة كإخراج الجزء الذي لا يتجزأ وتأليفه إلى مثله، فهو فإنّ كان قادراً عليه، فهو ممتنع منه، لأنّه يحفو عن عمل مثله)^(٢) وعليه فـ (اللطيف) هنا هو الذي (يصل علمه إلى كلّ خفيّ (خبير) عالم بكنهه)^(٣) على حين رأى آخر أنّ التلطف يحمل معنى القدرة والدقة في تعامله مع الأشياء، بقوله: ((اللطيف) إيماء إلى أنّ التمكن منها وامتلاكها بكيفية دقيقة تناسب فلق الصخرة واستخراج الخردلة منها مع سلامتهما وسلامة ما اتصل بهما من اختلال نظام صنعه)^(٤).
صنعه)^(٤).

(١) سورة لقمان : ١٦ .

(٢) الطوسي: التبيان في تفسير القرآن : ٨ / ٢٧٩ .

(٣) الكاشاني : زبدة التفاسير : ٥ / ٢٩٨ .

(٤) ابن عاشور: محمد الطاهر: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، دار سحنون للنشر والتوزيع- تونس، ١٩٩٧م : ٢١ / ١٦٤ .

واللطيف يحمل معانٍ عدة منها الرّحمة والتدبير والعلم والفضل بما ينفع الناس وما من شأنه أن يصب في مصلحتهم وذلك، (إِنَّ اللَّهَ أَطِيفٌ خَبِيرٌ أَيَّ إِنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ لَطِيفٌ بَعْبَادِهِ، يدبر لهم أمر المعاش، وأصل علمه أو فضله إلى كلّ شيء، عليم بما في أنحاء الأرض من الحب مهما صغر، خبير بمصالح خلقه ومنافعهم وأحوالهم، لا يخفى عليه خافية، فيحقق لهم المصلحة بتدبيره)^(١)، وعليه فاللطيف هنا العالم المتمكن القادر على إدراك أصعب الأشياء وأعسرها دون جهد.

وبذلك فإنّ آراء المفسرين وأقوالهم، تدور حول عدّة معانٍ وهي جميعاً لا تخرج من دائرة التمكن والقدرة والمعرفة والدقة، فلا تخفى عليه خافية، فيدبر الأمور بعلمه، وقد ضرب الله لنا مثلاً بمثقال حبة الخردل لصغرها ودقتها، ومن ثمّ تكون في صخرة أو في أيّ مكان في السموات والأرض، فإنّ الله سبحانه قادر على الإتيان بها، وهو أمر يستحيل أن يدركه أحد وتعجز الدنيا بكلّ إمكاناتها أن القيام به، وهو أمر مختص بالقادر وحده، فمقادير الأكوان بيده يضبطها ويحفظها من الاختلال، بما يتناسب والمصالح الكونية العامة.

ومن المواضع التي جاءت فيها لفظة (اللطيف) عزّ وجلّ: (اللَّهُ أَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)^(٢).

إنّ معنى اللطف هو رعايته لعباده بطريقة خفية (فلطفه بعباده إيصاله المنافع إليهم من وجهٍ يدقُّ على كلّ عاقلٍ إدراكه، وذلك في الأرزاق التي قسمها الله لعباده وصرفت الآفات عنهم، وإيصال السرور إليهم والملاذ، وتمكينهم بالقدرة والآلات إلى غير ذلك من أطافه التي لا تُدرِك على حقيقتها ولا يوقف على كنهها لغموضها)^(٣)، فد (الله تعالى كثير اللطف بعباده، بالغ الرأفة بهم، فيوصل إليهم أعظم المنافع ومنها إنزال الكتاب المقترن بالحقّ، ويدفع عنهم أعظم المضار والبلايا ومنها تأخير العذاب عن الخلق، كما

(١) الزحيلي: وهبة بن مصطفى: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر- بيروت، ١٤١٨هـ: ١٧ / ٢٦٣.

(٢) سورة الشورى: ١٩.

(٣) الطوسي: التبيان في تفسير القرآن: ٩ / ١٥٠.

في الآيات المتقدمة، ومن أطافه ومنافعه أنه يرزق جميع عباده، البرّ منهم والفاجر، يرزق من يشاء منهم كيف يشاء، فيوسع على هذا، ويضيق على هذا^(١).

فإلفه ﷺ في هذه الآية، جاء مصاحباً للرزق ومشبيته بحسب السياق، فرزقه مبني على التلطف، إذ يرزق بناءً على ما تتطلبه المصالح، ووفق ما تقتضيه حكمته التي لا تُدرك، فمصاديق الرزق كثيرة، كالعلم، والعافية، والمال، والبنون، وغيرها بحسب المصالح المترتبة التي لا تُدرك، والمفهوم الأبرز والأوضح هو التمسك بالحق، فعن (محمد بن يحيى عن سلمة بن الخطاب عن الحسين بن عبد الرحمن عن علي بن أبي حمزة عن أبي بصير عن أبي عبد الله ﷺ قال: قلت: الله لطيف بعباده يرزق من يشاء قال: ولاية أمير المؤمنين ﷺ)^(٢) فلا رزق أعظم من التمسك بالحق ولا حق متمسك به كالتمسك بولاية أمير المؤمنين ﷺ فهو المصدق للحق ولا ريب.

والموضع الآخر الذي جاء على ذكر لفظة (اللطيف) في القرآن الكريم هو قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾^(٣).

جاء في تفسير هذه الآية الكريمة: (فليأتكم برزق منه وليتلطف، في شرائه وإخفاء أمره، ولا يشعروا بكم أحداً، أي لا يعلمن بمكانكم أحداً، وقيل: المعنى وإن ظهر عليه فلا يوقعن إخوانه فيما وقع فيه لأنهم، إن يظهروا عليكم، ويعلموا بمكانكم، يركبواكم)^(٤).

على حين ذهب مفسر آخر إلى أن التلطف هنا جاء بمعنى الغبن، وهو ما لا نتفق معه عليه، ذلك بأنه لا يتناسب والمقام، إذ يقول: (فليأتكم برزق منه وليتلطف، وليتكلف اللطف في المعاملة حتى لا يغبن، أو في التخفي حتى لا يعرف، ولا يشعروا بكم أحداً، ولا يفعلن ما يؤدي إلى الشعور، (إنهم إن يظهروا عليكم) إن يطلعوا عليكم ويعلموا مكانكم، أو

(١) الزحيلي: وهبة بن مصطفى: التفسير المنير: ٢٥ / ٤٧.

(٢) الحويزي: نور الثقلين: ٤ / ٥٦٩.

(٣) سورة الكهف: ١٩.

(٤) الطوسي: التبيان في تفسير القرآن: ٧ / ٢٤.

يظفروا بكم، والضمير للأهل المقدّر في - أيّها، يَرْجُمُوكُمْ - يقتلوكم بالرجم، وهو من أخبث القتل - أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مَلَّتِهِمْ -^(١).

وعليه فلا نتفق ومعنى الغبن، الذي أورده ههنا فهم ليسوا بصدد الاهتمام بالغبن في البيع والشراء، بقدر اهتمامهم بالتخفي؛ خوفاً من أن يفتضح أمرهم، ونواقفه تماماً في معنى التخفي.

فالآية الكريمة جاءت في سياق الحديث عن فتية فرّوا بدينهم إلى الكهف خشية الفتنة، وبعد مضي زمن طويل أرسل أحدهم إلى المدينة ليأتيهم بالطعام مع التوصية ﴿ولياتكم برزق منه وليتلطف﴾، إنّ حمل التلطف على التخفي والاحتياط في التصرف أظهر وأقرب إلى روح القصة وسياقها؛ إذ كان الفتية يخشون أن يُكتشف أمرهم، فيكرهوا على العودة إلى دين قومهم أو يُفتنوا فيه، كما يفهم ذلك بوضوح من تكملة الآية: ﴿إنهم إن يظهروا عليكم يرموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً﴾، فالآية تشير صراحة إلى خوفهم من افتضاح أمرهم، وعليه فالتلطف هنا يعني: التحرز والاحتياط في سلوك المبعوث، والتخفي حتى لا يُعرف حالهم، لا اجتناب الغبن في البيع والشراء.

وعليه فإنّ تفسير الكاشاني للتلطف بمعنى الغبن يُعدّ تفسيراً مستبعداً، وليس راجحاً في ضوء السياق القرآني ومقاصد القصة، لأنّ الاحتياط من الغبن في البيع ليس محور اهتمام الفتية هنا، وإنما اهتمامهم منصبّ على عدم انكشاف حالهم، وهذا يؤكد أنّ التفسير الأوفق هو حمل التلطف على التخفي والتحرز من أعين الناس.

وبهذا أمكننا القول، إنّ معنى التلطف في هذه الآية الكريمة هو التخفي، وعلة ذلك واضحة من خلال تتبع مجريات القصة، والتي تعلّل سبب التلطف؛ خوفاً من إشعار الآخرين بهم ومن ثمّ فإنّ ذلك يؤدي إلى كشف أمرهم وما سيترتب عليه من إلقاء القبض عليهم والتنكيل بهم وقتلهم أو إرغامهم على الرجوع إلى ملتهم الأولى والنتيجة ستكون وخيمة إذ لا فلاح مع خسارتهم لدينهم.

أمّا مصطفىوي فقد اجمل القول في بيان المعاني التي وردت في كلّ موضع من الآيات الكريمة في ضمن سياق النصّ، إذ يقول: (الله لطيفٌ بعباده يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ، إِنَّ رَبِّي

(١) الكاشاني: زبدة التفاسير: ٩٥ / ٤.

لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، فتمامية الدقة والرفق في ذاته تعالى، وانتفاء الغلظة والخشونة عنه أصلاً يلازم ظهور هذه الصفة وتجليها وجريانها في قبال الخلق، وإنعامهم وتكرمتهم ورأفتهم والتعبير في الآية الأولى بحرف الباء، وفي الثانية باللام: فإنّ النظر في الأولى إلى تعلّق اللطف بالعباد والمعاملة معهم بلين الجانب في دقة وتوجه تام ثاقب، فاللطف يتحقّق في رابطة العباد ومتعلّقاً بهم، وفي الثانية: النظر إلى بيان اختصاص اللطف لموارد يشاء فيها إجراء اللطف على مقتضى الحكمة وتدبير النظام، واللام للاختصاص، وعلى هذا يذكر في الأولى: يرزق من يشاء وهو القويّ العزيز، وفي الثانية يحذف المتعلّق ويذكر علمه وحكمته^(١).

ويضيف موضحاً في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾، وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ فَنَكُنْ فِي صَحْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ يتّصف اللطيف في الآيات بصفة كونه تعالى خبيراً، فإنّ النظر فيها إلى الإحاطة والإطلاع وكونه تعالى عالماً وخبيراً، فالإحاطة والخبرة تناسب تحقق الرفق والدقة في هذه الموارد وتكمل معانيها المنظورة، كما أنّ ذكر اسم اللطيف في الآيات الكريمة للتعليل ولبيان البرهان في الأمور المذكورة، ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ... وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ الورق: السكّة المضروبة من الفضة، والتلطف اختيار اللطف وأخذه في جريان الأمر، بمعنى إجراء الرفق مع الدقة في جريان المعاملة والمذاكرات، حتّى لا يتوجّه إليهم ضرر منهم^(٢).

وهو محطّ نظرٍ وكلام، فقد أشار المصطفوي في بيانه لمعنى التلطف في قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ إلى أنّ معنى التلطف بإجراء الرفق مع الدقة في جريان المعاملة والمذاكرات، بأن يكون المرسل حذراً في المعاملة ومتلطفاً في التعاطي مع القوم، خوفاً من أن يكتشف أمرهم؛ ذلك لعدم درايتهم لما آلت إليه الأمور والتغييرات

(١) حسن المصطفوي: التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ١٠ / ١٩٤.

(٢) يُنظر: حسن المصطفوي: التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ١٠ / ١٩٤-١٩٥.

الإعجازية التي حصلت معهم، فهم ما زالوا يعتقدون بأنهم يعيشون في زمنهم الذي عانوا فيه من البطش والمطاردة من قبل السلطات الظالمة آنذاك في أثناء دعوتهم الناس للهداية، وهو أمر نتفق فيه مع المصطفوي إلا أننا نختلف معه في قوله: (مع الدقة في جريان المعاملة والمذاكرات، حتى لا يتوجه إليهم ضرر منهم) فما ذهب إليه لا يخلو من نظر، فعند التأمل الدقيق في السياق النصي، سيفضي إلى نتيجة مغايرة ستظهر ما يخالفه ويُضعف اعتماده في مقام الترجيح العلمي، ذلك أن ما ذهب إليه لا ينهض دليلاً قاطعاً في هذا الموضوع أو مرجحاً على أقل احتمال، إذ لم يأت على ذكر المعنى الأوضح والمراد الأرجح من لفظة (وليتلطف) ألا وهو التخفي؛ كي لا يتعرف عليه القوم، كما هو واضح من السياق، الأمر الذي من شأنه أن يكشف أمرهم، والذي أشار إليه غير واحد من المفسرين، والمستفاد من سياق الآية كما أوضحنا، فالآية تصوّر حال فتية لجأوا إلى الكهف فراراً بدينهم، وقد ناموا فيه سنين طويلة، ثم أفاقوا وأرادوا إرسال أحدهم لشراء الطعام مع توصية بالتلطف، خشية افتضاحهم والحيطة التامة في الدخول والخروج.

وعليه فلا معنى للدقة في المفاوضات أو المعاملات كما أشار بتعبيره وهي عبارة غير واضحة المعالم كما يبدو، وإنّ المعنى الراجح والواضح كما بيّن هو التخفي، وهو القول الأرجح لما فيه من انسجام أوفى مع مقتضى السياق والدلالة النصيّة، إذ أنّه المعنى الأوفق بمقام القصّة ومقتضيات البلاغة، لا الدقة في المعاملة أو التداول.

ثالثاً: مفهوم التلطف في الاصطلاح والمفهوم الكلي:

١. مصطلح التلطف عند القدماء:

تناول مفهوم التلطف عدد من العلماء، وربما يمكننا القول أن ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) هو من أوائل العلماء الذين عرضوا له بوصفه مصطلحاً، فقد جاء على ذكره في كتابه (عيون الأخبار) بعنوان مستقل سمّاه (التلطف في الكلام والجواب وحسن التعريض)^(١) حيث ساق فيه حادثة دالة على التلطف، حيث قال: (مات ابنٌ لشريح ولم يشعر به أحد، فغداً عليه قوم يسألون به، وقالوا: كيف أصبح من تصل يا أبا أمية؟ فقال: الآن سكنَ علزّه* ورجاه أهله)^(٢)، وهنا نجد في إجابة شريح للقوم تعريض فلم يأت على ذكر الموت بلفظه الصريح، بل تلطف عن ذلك، بقوله: الآن سكن علزّه ورجاه أهله، وهي بمعنى الآن سكنَ ألمه ورجاه عند الله الرحمة والمغفرة.

ولقد عرّف التلطف جملة من العلماء ضيقاً واتساعاً كلٌّ بحسب رؤيته للمفهوم من وجهة نظره وكان من بين أولئك أبو هلال العسكري؛ إذ يقول: (التلطف: وهو أن تتلطف للمعنى الحسن حتى تهجّنه، والمعنى الهجين حتى تحسنه)^(٣)، مورداً حادثة وقعت بين يحيى البرمكي وعبد الملك بن صالح، وهي: (أن يحيى بن خالد البرمكي قال لعبد الملك بن صالح: أنت حقود، فقال يحيى: إن كان الحقد عندك بقاء الخير والشر فإنهما عندي لباقيان، فقال يحيى: ما رأيت أحداً احتجّ للحقد حتى حسّنه غيرك)^(٤).

(١) يُنظر: ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم الدنيوري (ت ٢٧٦هـ): عيون الأخبار، تحقيق: منذر محمد سعيد أبو شعر، مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة، ١٩٩٦م: ١ / ٢٠٩.

* العَلزُّ: الفلق يأخذ المريض، يُقال: بات علزاً: أي قلقاً، لا ينام ولا يستقر من الوجع، الحميري: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: ٧ / ٤٧٤١.

(٢) ابن قتيبة: عيون الأخبار: ١ / ٢١٠.

(٣) العسكري: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى (ت ٣٩٥هـ): الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، بيروت: ٤٢٧.

(٤) م. ن: ٤٨٢.

عند النظر إلى تعريف العسكري للتلطف نجد مفارقة معرفية واضحة ذلك بأن قوله (والمعنى الهجين حتى تحسنه) لا إشكال عليه باعتبار أنّ التلطف يكمن في إخفاء اللفظ للتعبير عن المعنى الحقيقي واستعاضته بلفظ آخر غير حقيقي لكنه يدلّ على المعنى الحقيقي بحلة جديدة ودلالة مقبولة راقئة مع انطوائه على غايات أخرى يبتغيها المتكلم، وعليه فلا غضاضة في هذا الجزء من تعريف العسكري للتلطف، غير أنّ قوله في الجزء الأول منه (للمعنى الحسن حتى تهجنه) لا يتفق ومعنى التلطف، ذلك بأنّ الغاية الأولى من التلطف هي تحسين القبيح من المعنى بلفظ جديد وليس تقبيح المعنى الحسن بلفظ قبيح فهذا ما لا يبتغى منه ولا يراد، فالتلطف موافق لمعنى الترفق أو اللين أو الترفق وليس مرادفاً للتقبيح وتحويل الجميل إلى خلافه فهذا مما لا يتناسب والتلطف لا اسماً ولا معنىً، من هنا نختلف مع العسكري في مقولته هذه في الوقت الذي نتفق معه تماماً في مقولته الثانية، إذ لا تلطف في تحويل الحسن إلى قبيح بل تقبُّح لا محالة وقد ألمح الجرجاني في (أسرار البلاغة) إلى أنّ التلطف يعتمد في جوهره على ردّ شيء إلى شيء آخر^(١)، وهذا لا يبتعد كثيراً عن مفهوم التلطف غير أنه مبني على منطوق الوجازة وشدة الاختصار؛ فكان المعنى هو رد اللفظ المعبر عن معنى حاد قاسٍ إلى لفظ معبر عنه برهافة وتجلُّل، فكأنه رد القبيح إلى الجميل أو رد المعنى المتمرد إلى المعنى الوديع الساكن المتقبل في النفس دون الآخر المرذود دونه، لذا فالتلطف هو الملاينة في الكلام والخطاب على حد سواء كما يذهب إلى ذلك الراغب الأصفهاني^(٢).

وذهب آخر إلى أنّ مفهوم التلطف يوافق مفهوم الاحترام وعدم الاستعلاء؛ فـ:(التلطف كقول كلٍّ أحد لمن يساويه في المرتبة: (افعل)، بدون الاستعلاء)^(٣).

(١) يُنظر: الجرجاني: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٤٧١هـ): أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق: السيد محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م: ٧٤.
(٢) يُنظر: الراغب الأصفهاني: الحسين بن محمد بن المفضل (ت ٤٠٢هـ): محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ١/ ٢٧٦، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ.

(٣) السكاكي: أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي (ت ٦٢٦هـ): مفتاح العلوم، ضبطه وكتبه هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م: ٣١٩.

فكأنّ التلطف ههنا مساوٍ إلى معنى الاحترام وعدم التكبر على الآخر، وفي هذا جانب من مضمون التلطف من حيث إنّه يميل الكلام معه إلى عدم ذكر القبيح للمتلقى من باب الاحترام والحفاظ على فطرته الذوقية، نفية سليمة من الخدش اللفظي أو الأذى اللغوي الذي يسببه له ذكر اللفظ كما هو من دون تلطف.

وقد ذكر بعضهم (التلطف) في موضوع التغاير، إذ: (سمّاه قوم التلطف وهو أن يتلطف الشاعر بتوصله إلى مدح ما كان قد ذمه هو أو غيره فأما مدح الإنسان ما ذمه غيره فإنّ الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أتى فيه بما يمتزج صافي مشربه بالأرواح وينقلنا ببديع بلاغته من الإبهام إلى الإيضاح فمن ذلك خطبته التي مدح فيها الدنيا مغايراً لأمثاله في ذمها حيث قال: أيها الدائم للدنيا المغتر بغرورها بمّ تدمها أنت المتجرئ عليها أم هي المتجرئة عليك، متى استهوتك أم متى غرتك أمصارع أبائك من البلى أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى كم عللت ولديك وكم مرضت والديك تبغي لهم الشفاء وتستوصف لهم الأطباء لم ينفع أحدهم إشفافك ولم تشف لهم بطبك ولم تدفع عنهم بقوتك قد مثلت لك بهم الدنيا نفسك وخيلت لك بمصرعهم مصرعك إن الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها ودار موعظة لمن اتعظ بها مسجد أحباب الله ومصلى ملائكته ومهبط وحي الله ومتجر أوليائه اكتسبوا منها الرحمة وربحوا منها الجنة فمن ذا يذمها وقد أدبت بنيتها ونادت بفراقها ونعت نفسها وأهلها فمثلت لهم ببلائها البلى وشوقتهم بسرورها إلى السرور وراحت بعافية وابتكرت بفجيرة ترغيباً وترهيباً فذمها رجال غداة الندامة وحمدوا آخرون ذكرتهم الدنيا فذكروا وحدثتهم فصدقوا ووعظتهم فاتعظوا)^(١)، وقد جاء بهذا الكلام شاهداً على موضوع التغاير، والذي سمّاه قوم التلطف على حدّ تعبيره، إلا أنّ حقيقة الأمر تتضح عند قراءة نص الإمام عليه السلام قراءة فاحصة، إذ نجد أنّ هذا الموضوع الذي تحدّث عنه؛ هو أقرب ما يكون للمفارقة منه إلى التلطف، فالمفارقة هي مصطلح مواز للمغايرة، وإنّ موطن المفارقة في هذا النصّ، هو أنّ الإمام عليه السلام قد امتدح الدنيا على غير ما جرت عليه العادة

(١) الحموي: أبي بكر بن علي بن عبد الله ابن حجّة (ت ٨٣٧هـ): خزنة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: عصام شعيتو، دار مكتبة الهلال - بيروت، ط ١، ١٩٨٧م: ١٠٢.

من ذمّها، كما هو متداول في غير موضع من كلامه، وذلك كقوله عليه السلام: (وإن دنياكم عندي أهون من ورقة في فم جرادة تقضمها، ما لعلّي ونعيم يفنى، ولذة لا تبقى...) (١)، وفي موضع آخر وهو يصف حالها، بأن: (خَيْرُهَا زَهِيدٌ، وَشَرُّهَا عَتِيدٌ، وَجَمْعُهَا يَنْفَدُ، وَمُلْكُهَا يُسَلَّبُ، وَعَامِرُهَا يَحْرَبُ) (٢)، وشواهد كثيرة كلّها كانت تدم الدنيا، إلا أننا نراه في هذا الموضع يمتدح الدنيا، ويذمّ ذمّ الرجل لها من باب أنّها واعظة للإنسان، فهي تقدّم الكثير من الشواهد التي تُنذر الإنسان وتحذّره، فتارةً بفقد الأمهات وأخرى بمصارع الآباء، وأحياناً بالأمراض والعلل، وغيرها بمآلات وحوادث لا تُحمد عقباها والتي تمرّ على الإنسان فيشهدّها في أقرب الناس إليه وأحبّهم إلى قلبه، لذا فهي واعظة إيّاه، وهنا تكمن المفارقة في أنّ الإمام عليه السلام قد امتدح الدنيا في الوقت الذي كان مُنتظراً منه أن يذمّها فيه، لأنها مذمومة في أصلها. وعليه فإنّ ما تحدّث به الإمام عليه السلام هو مفارقة وليست تلطفاً مطلقاً، لأنّه امتدح الدنيا ههنا في الوقت الذي يخال المتلقي بأنّه سوف يذمّها، بناءً على أنّه قد ذمّها في مواضع كثيرة في كلامه، وهذا ما دأب عليه الناس، إذ لا يذكّر أحدٌ الدنيا في كلامه إلاّ وذمّها، وعليه فهي من باب المفارقة لا التلطف، وبهذا يتحقّق الباحث من إطلاق لفظة التلطف على هذا المنحى الأسلوبى الذي اتبعه الإمام عليه السلام فما كان هذا إلاّ مفارقة، وهي الأوفق للمغايرة لا محالة.

ومال آخر إلى أنّ التلطف: (هو طرح الألفاظ المستهجنة واستبدالها بألفاظ مقبولة) (٣)، فكأنّه ههنا عرّف التلطف إجرائياً وهو إقصاء القبيح واستبداله بالحسن، إذ ركّز على طريقة المتكلم في استعمال التلطف عملياً، وفي التعريف وجه صالح ومذهب مُتقبل (إلى ما فيها من حسن التلطف في إطراح الألفاظ المستهجنة كما جاء في القرآن الكريم من الكنايات التي تتعلق بالنساء كالنهي عن أخذ المهور مع ذكر السبب في قوله عَلَيْكُمْ: ﴿وَكَيْفَ

(١) الشريف المرتضى: علم الهدى علي بن الحسين الشريف (ت ٤٣٦ هـ): رسائل الشريف المرتضى، مطبعة الخيام - قم، الناشر: دار القرآن الكريم - قم، ط ١، ١٤٠٥ هـ: ٣ / ١٤٠.

(٢) الشريف الرضي: نهج البلاغة، تحقيق: الشيخ قيس بهجت العطار، مؤسسة الرافد للمطبوعات، ٢٢١، خطبة (١١٢).

(٣) يُنظر: المراغي (ت ١٣٧١ هـ): علوم البلاغة - البيان والمعاني والبديع، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ٢٠٠٢ م: ٣٠٩.

تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا^(١)، وقوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَرَوُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ^(٢)، إلا أنها قد تكون طريقاً من طرق الإيجاز والاختصار كقوله تعالى: كناية عن كثير من الأفعال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ^(٣)، وقولهم كناية عن الجامع لكل شيء (هو سفينة نوح)^(٤).

لذا فإن مفهوم التلطف عند القدماء يلتقي بمفهومه اللغوي في المعنى والمقصد في الآن ذاته، وأن (التلطف) مفهوم ذو طابع أخلاقي يراد منه كل ما هو حسن ينبع من الخلق النبيل والرقي في التعاطي بين النص والملتقي لتكون أولى ثمراته هي أن يخلق جواً من الود والعلاقة المبنية على الحب والاحترام فيفسح المجال لإيجاد أرضية مشتركة ولغة تحاور راقية، تراعي الذوق واللياقة وتبتعد عن كل ما من شأنه أن يوقع الاختلاف أو ما من شأنه أن يسبب الأذى النفسي والآثار المترتبة عليه.

٢. مصطلح التلطف عند المحدثين:

تناولت الدراسات الحديثة موضوع التلطف بوصفه أحد الأساليب اللغوية المتداولة، ذلك بأن ميادينها متعددة الأنماط بحسب المواقف المتنوعة التي تتطلب من المتكلم أسلوباً يتناسب والمقام والمقصد المراد، فيلجأ المتكلم إلى استعمال الألفاظ الصريحة في التعبير عن مقصده في المواضيع التي لا يستحي المرء منها، على حين يميل إلى استعمال الألفاظ غير الصريحة في المواطن التي يخجل من ذكرها أو يتعفف عنها أو يستقبحها، تلطفاً منه ولياقة، وهذا ما هو ما عبر عنه بـ(حسن التعبير) أو (اللامساس) في نطاق الدراسات الحديثة^(٥).

(١) سورة النساء: ٢١.

(٢) سورة البقرة: ١٩٧.

(٣) سورة المائدة: ٧٩.

(٤) المراعي: علوم البلاغة: ٣٠٩.

(٥) يُنظر: ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال بشر، مكتبة الشباب - القاهرة،

١٩٩٠م: ٧٧.

وقد عُرّف التلطف من المحدثين بتعريفات عديدة منها، أنه: (استعمال مجاز ملطف في مكان كلمة أو عبارة موجعة أو بغيضة)^(١).

ففي نطاق هذا التعريف نجد أنّ هنالك ما ينبغي الالتفات إليه فيه، إذ نلاحظ أنّ هذا التعريف فيه شيء من تضيق المعنى لمصطلح (التلطف) وذلك من خلال إلباسه ثوب المجاز فقط، فالتلطف قد يأتي مجازاً وقد يكون حقيقةً؛ وذلك بحسب اللفظ المستعمل وقصد المستعمل منه، وعليه فإنّ تحديده للتلطف بالمجاز إنّ كان بالمعنى العام فقد أصاب، إذ يُذكر المجاز ويراد منه عدّة أساليب بلاغية كالكناية والتعريض وغيرها، بحسب المقام والمناسبة والسياق النصي.

وعرّفه آخر بقوله إنّه: (استخدام كلمة أو عبارة مكان تعبير يُعدُّ صريحاً ومكشوفاً، أو فظاً، أو منقراً، أو لاذعاً وجارحاً)^(٢).

وهو كذلك فالتعريف في كون استعمال التلطف مكان الكلمة أو العبارة الفظة أو المنقّرة أو اللاذعة أو الجارحة لا كلام فيه، إلا أنّ قوله (يعدُّ صريحاً أو مكشوفاً) ليس بدقيق، إلا إذا قيّد بقيد يُوجب الاستبدال، فاللفظ الصريح أو المكشوف قد لا يكون سبباً أو مسوّغاً لإجراء التلطف، فمن الصريح من التعبير ما لا يعدّ منقراً أو فظاً أو جارحاً فليس كلّ صريح ينبغي أن يستعمل فيه التلطف؛ وعليه فإنّ إطلاق صاحب التعريف عبارة (تعبير يعد صريحاً أو مكشوفاً) أمر غير مرضٍ لأنّه لا يستبطن في داخله الإشارة إلى القبيح أو الفظّ أو الجارح إلزاماً قسرياً، ذلك بأنّ إطلاق اللفظ في تعريفه لا يُوجب تقييده من تلقاء القارئ أو المتلقي للتعريف والحال هذه.

وعرّف أيضاً بأنّه: (استبدال تعبير بأخر يكون أكثر مقبولية من التعبير الأول)^(٣)، وفي هذا التعريف نجد أنّ هنالك من الوجازة ما يخلّ بمفهوم التلطف، إذ لم يتناول (التلطف) كليّةً فعبارته (استبدال تعبير بأخر أكثر مقبولية) يوحي بأنّ (التلطف) استبدال تعبير

(١) أحمد محمد فليح العموش: التلطف في لغة القرآن الكريم، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت - كلية الآداب والعلوم الإنسانية، إشراف: د. سعيد جبر أبو خضر، ٢٠١١م : ٩.

(٢) يُنظر: سعيد جبر أبو خضر: أثر التلطف في التطور المصطلحي، المجلة العربية للعلوم الإسلامية، ١١٢/٢٠١٠م: ١٧٣.

(٣) مبارك مبارك: معجم المصطلحات الألسنية، دار الفكر اللبناني - بيروت، ط١، ١٩٩٥م: ١٠١.

مقبول من المتلقي أساساً بقرينة قوله (بأخر أكثر مقبولية من التعبير الأول) وفي حقيقة الأمر أنّ من التعبيرات المستبدلة بفعل التلطف ما هي غير مقبولة أساساً بل يتعفف اللسان عن ذكرها أو الإتيان عليها كالألفاظ التي تتعلق بالجنس أو الأعضاء التناسلية أو الألفاظ التي تتعلق بالأفعال الشائنة التي لا يترفع الإنسان العاقل عن نطقها فحسب، بل يشمئز منها وتنفر نفسه دونها، أو على أقل احتمال مما يعدّ فيه انتقاص أو إحياء بذلك، وعليه فليس الأمر بهذا التصور قط، وبذا فإنّه يمكن القول بأنّ التعريف لا يلتقي بمفهوم التلطف، بقدر ما هو تعريف أقرب للطف، فالتلطف استبدال تعبير غير مقبول أساساً بتعبير مقبول، وبذا يمكننا القول إنّ استبدال تعبير بأخر أكثر مقبولية هو اللطف بعينه لا التلطف، فكل تلطف فيه لطف وليس كلّ لطف فيه تلطف، وهذا ما سيأتي البحث على ذكره في تضاعيف الدراسة.

وفي تعريف آخر عرّف (التلطف) مفيداً بالتعبير بصفة السرور وذلك بقوله: (استبدال تعبير غير سار بأخر أكثر مقبولية منه)^(١)، وهو بتعريفه هذا يحيل علّة استبدال التعبير بغية التلطف إلى كون التعبير غير سار بتعبير آخر سار وذلك بقرينة تقييده بلفظة (غير سار)، فهو بهذا المعنى قد أحال سبب التلطف على التهوين ومراعاة الحالة النفسية للمتلقى والحفاظ على شعوره من أيّ أذى، مستبعداً بهذا بقية الدواعي التي يلجأ إليها المتكلم أو النصّ في استعماله التلطف.

أمّا في معجم المصطلحات اللغوية فإنّ التلطف هو (الإتيان بكلمة أو عبارة ملطّفة فراراً من كلمة أو عبارة مستكرهة أو غير لائقة اجتماعياً)^(٢)، وهو تعريف نجده مقارباً إلى بيان بعض دواعي التلطف التي ينعقد عليها منه إلى بيان ماهية التلطف نفسه.

وقد أوجز أحمد مختار عمر في تعريف (التلطف) بقوله: (وهو في حقيقته إبدال الكلمة الحادة بكلمة أقلّ حدّة وأكثر قبولاً)^(٣).

(١) محمد علي الخولي: معجم علم اللغة النظري، مكتبة لبنان، ط ١، ١٩١ م: ٨٨.

(٢) رمزي البعلبكي: معجم المصطلحات اللغوية، دار العلم للملايين - بيروت، ط ١، ١٩٩٠ م: ١٧٩.

(٣) أحمد مختار عمر: علم الدلالة، دار النشر: عالم الكتب - مصر، ط ٥، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م:

لقد استطاع أحمد مختار عمر إعطاء تعريف التلطف حقه حيث استوعبه مفهوماً وأجراً وإيجازاً، فالكلمة الحادة على حد تعبيره قد شملت كل كلمة قبيحة أو مستهجة أو خادشة للحياء أو مؤذية للمتلقي، غير أنه استبعد (العبارة) من تعريفه وقيد التلطف بـ(الكلمة) فقط، ولو استبدل الكلمة بلفظة (عبارة) لكان أجدى وأوفى للمراد؛ لأنّ العبارة تشمل

٣. ثنائية التلطف واللا تلطف في الاستعمال القرآني

لم يقتصر الاستعمال القرآني على التلطف في اختيار الفاظه وعباراته، بل وازن بين التلطف والغلظة تبعاً لمقتضى الحال ومقام المخاطبين، فكما نجد في آيات كثيرة تعبيرات موحية بالرحمة والرافة، نجد في مواضع أخرى خطاباً يتسم بالصرامة والغلظة، ويتضمن وعيداً بالعقاب، وهذا التنوع الأسلوبي يكشف عن البنية التربوية والبلاغية المتكاملة للقرآن الكريم، حيث يستعمل التلطف لجذب القلوب واستمالة النفوس الى الهداية، والوعيد لزرع النفوس وردعها عن الغواية.

ومن الشواهد القرآنية على ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبئس المصير﴾^(١)

إذ تجمع هذه الآية الكريمة بين القدة في الخطاب، والوعيد بالتهديد بجهنم والعذاب بأن مصيرهم النار وبئس المصير، ذلك أن لا رافة ولا هودة مع الطغاة اللئام ولا شيء لهم عند الحق والعدل إلا السيف، وأي شرع وقانون يرحم ويتساهل مع الذين يستهينون بحياة الناس، وينشرون الرعب والذعر في القلوب)^(٢)، وهذا الأمر الألهي لنبيه هو من باب حماية الجماعة المؤمنة ففي سياق المواجهة مع الباطل، وعندما تستنزف جميع المحاولات التي تحمل صفة اللين والرحمة، عندها ينبغي مواجهة الباطل بالغلظة الحماية المجتمع من شرورهم، وهي من باب التلطف أيضاً بعباد الرحمن، ذلك ان الرحمة والرافة هي القضاء على العنوان وأهله، والله سبحانه رحيم في ناره تماماً كما هو رحيم

(١) سورة التوبة: ٧٣

(٢) محمد جواد مغنبة: التفسير الكاشف: ٣٦٧/٧

في جنته^(١)، فالبلاغة تقتضي أن يكون الخطاب موافقاً للمقام وهو ما استعمله النص القرآني حين لم ينفذ اللين والتلطف معهم، ليات الخطاب اللاتلطي لأحداث الصدمة الوجدانية وردع الظالم، وهو ما داب عليه الاستعمال القرآني من باب التدرج من اللين إلى الشدة وفقاً لمقام المخاطب، فالغلظة ليست آية في نفسها، وإنما وسيلة لحماية المؤمنين وزجر الظالمين، فهي ليست قسوة مجردة، بل إن القسوة أحياناً تكون رحمة للناس جميعاً؛ لأن فيها ردع لشورور الظالمين.

لذا يتبين مما تقدم إن الخطاب القرآني قد استعمل التربية بالموازنة بين الترغيب والترهيب ليتناسب الخطاب مع المخاطب وفق منهجية غايتها هداية الناس وإصلاحهم والوقوف بوجه كل ظالم.

٤. المفهوم الكلي للتلطف:

بعد كل ما تقدم وما عرضنا له من المعنى اللغوي والمفهوم الاصطلاحي لظاهرة التلطف عند القدماء والمحدثين، يمكن القول بأن التلطف بوصفه مفهوماً يتفق والمعنى اللغوي له، فهو مفهوم واسع باستعمالاته، وعميق بأبعاده، إذ تنطوي تحته صور مختلفة، ومعانٍ مؤتلفة، كاللين والأناقة، واللياقة واللباقة، ودواعي متعددة تتردد بين الدعوة ومراعاة الفطرة الإنسانية وبين القيم الأخلاقية والتربوية، وأساليب بلاغية متنوعة، إلا أنه مهما تعددت صورته، أو مراتبه، أو أساليبه، لا ينفك عن معنى الرفق، فالرفق ملازم له أينما وظّف، وكيفما كان في قول أو فعل، فعلى صعيد القول وهو المعنى في دراستنا يكون عبارة عن انتقاء اللفظ أو العبارة أو استبدالهما بألفاظ وعبارات أخرى، بما يجمل المعاني والألفاظ، وإن كثرت دواعيه، كمرعاة النفس البشرية عما يُستهجن ذكره، أو يُستحى منه تسميته صراحةً، أو بما يحفظ مشاعر المتلقي، ذوقاً وأدباً، ومهما اتسعت أبعاده النفسية أو الاجتماعية أو غيرها، فهو ينطلق من مبدأ الرفق لا محالة، وكذلك الحال في الفعل، فكل تصرف باعته الرفق، فهو يحمل صفة اللطف ابتداءً وإذا ما حاكى دواعي التلطف يعدُّ تلطفاً، وبهذا لا يخرج المفهوم عن حدود المعنى اللغوي للفظ قط.

(١) محمد جواد مغنية: التفسير الكاشف: ٣٦٧/٧

وعليه فإنّ التلطف يعدُّ مظهرًا من مظاهر اللطف، وهو أحد وجوهه التطبيقية، وذلك باستبدال الألفاظ القاسية أو الجارحة أو المباشرة بألفاظ أطف وأرفق، مراعاة لحال المُخاطَب وظروف التلقّي، مع الحفاظ على المعنى المقصود، فالتلطف ظاهرة لغوية بلاغية تُعبّر عن وعي المُخاطَب بمقتضيات المقام، سعيًا إلى إيصال المعنى المراد بأدنى قدر من النفور أو الاستفزاز خاصة في مواضع التوجيه نحو المعاني الإيمانية أو التشريعية أو العقائدية، التي يصعب تقبلها، وربما تُثير النفور أو الإنكار فيما لو طُرحت بعبارة جافة أو مباشرة، ليجمع التلطف بذلك بين الرقة في التعبير، والجمال في الأداء، والقوة في الإقناع والتأثير، والخفاء في التدبير، والرفق في المقصد، مع الاحتفاظ بجديّة الخطاب وموضوعيته وهيئته، من دون أن يخل بالسياق أو يُضعف سلطة النص.

المبحث الثالث

مواقع الاتفاق والافتراق بين التلطف والمفاهيم المقاربة

سنبيّن في هذا المبحث المفاهيم المقاربة التي تلتقي مع التلطف اتفاقاً وافتراقاً، ذلك أنّ المفهوم لا يمكن أن يبحث بمعزل عن جملة من المفاهيم المقاربة له والتي تلتقي معه أو تتقاطع معه في بعض دلالاتها، من هنا تأتي أهمية هذا المبحث، إذ نسعى فيه إلى بيان الحدود المفهومية بين التلطف وبعض المفاهيم؛ بغية الكشف عن التمايزات الدقيقة التي تجعل من التلطف صيغة تعبيرية مخصصة.

أولاً: الاتفاق والافتراق بين التلطف والمحذور اللغوي والمحسن اللفظي

يتداخل مفهومي التلطف والمحذور في سياق الخطاب تداخلاً لغوياً وثيقاً، إذ أن المحذور لا يخرج عن كونه وجهاً من وجوه التلطف وامتداداً له، فالتلطف يقوم على حُسن اختيار اللفظ وبديله بما يضمن استمالة المتلقي وابعاده عن الجفوة والصدمة، فيما يتجلى المحذور بوصفه أحد تجليات هذا المسلك البلاغي، حيث يُتجنّب اللفظ الصريح المستهجن أو المنقّر، ويستبدل بتعبير آخر يوافق الذائقة ويراعي السياق ومن ثمّ، فإن العلاقة بينهما ليست علاقة تقابل أو تضاد بل علاقة جزء من كل، فالمحذور اللغوي فرع من فروع التلطف يتأسس على ذات المبدأ البلاغي المتمثل في رعاية المقام وحفظ كرامة المخاطب، وبذلك فإن البحث في المحذور اللغوي يفتح آفاقاً أوسع في فهم التلطف، ويبرز كيف جاء التعبير القرآني على وعي دقيق بالمتلقي، ف(المحذور يطلق على ألفاظ يتحسب استعمالها تحت تأثير مدلول مقدس أو ملعون، حرّم ذكره أو لمسه أو الاقتراب منه، وتحلّ محلّ اللفظة التي تدل على هذا الشيء لفظة أخرى خالية من فكرة الضرر والأذى)^(١).

وهو بهذا يقترب كثيراً من مفهوم التلطف من حيثية استبدال لفظة مكان أخرى كما بيّنا، ولجملة أسباب مشتركة مع التلطف والتي منها أن تكون اللفظة مستهجنة أو غير

(١) عصام الدين بن سلام محمد إبراهيم أبو زلال: التعبير عن المحذور اللغوي والمحسن اللفظي في القرآن الكريم- دراسة دلالية، أطروحة دكتوراه، جامعة القاهرة - كلية الآداب، إشراف د. عبد المنعم تليمة، ٢٠٠١م: ٢٤.

مرغوب فيها أو أنها كلمة تسبب الضرر، زيادة على ذلك؛ فهناك أسباب عديدة منها ما تدعو إلى تفعيل الحظر اللغوي واستعمال المحسن اللفظي بحق بعض المفردات ومن جملة الأسباب التي تقتضي حظر المفردات لتدخل حيز المحظورات هي أسباب اجتماعية تفرض على الفرد والجماعة ضرورة الالتزام بها، فلا يتفوه بها أحد، وثمة عوامل مسوغة لهذا المنع أو الحظر والتي منها العامل الديني والسياسي والاقتصادي والثقافي والنفسي والمجتمعي^(١)، فيكون سبباً ودافعاً إلى استعمال الكناية أو التورية أو التعبير الرمزي بوصفها محسنات لفظية، لئيجاوز بذلك التعبير المباشر، ف(المحظور خلاف المباح لأنه ممنوع منه)^(٢)، ولذا يعرف اللفظ المحظور بأنه (لفظ يمنع استعماله في سياق معين لعوامل عدة، يتكون من كلمة أو أكثر، قابل للتغيير متنوع بين الحقيقة والمجاز)^(٣).

فالعلاقة بين التلطف والمحظور اللغوي تقع في دوائر دلالية متعددة كدائرة الألفاظ الجنسية، ودائرة قضاء الحاجة، وألفاظ المرض والموت، وكلها ألفاظ لغوية اجتماعية انشغلت اللسانيات الاجتماعية بها، ولكن الألفاظ الجنسية كانت تمثل جوهر المحظورات اللغوية، وهو أمر عام على مستوى اللغات والثقافات^(٤).

فهي تشكل جزءاً كبيراً من الوعي الثقافي للجماعة اللغوية، وأيضاً تبعاً للمعتقدات الصائبة منها وغير الصائبة على حد سواء، كالتشاؤم أو التفاؤل، أو الموت، والأمراض، والأرواح الشريرة^(٥)، ويمكن تقسيم المحظور بلحاظ دوافعه على ثلاثة أنماط هي:

(١) يُنظر: عاطف عبران: بلاغة التعبير عن المحظور اللغوي في الحديث الشريف، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مجلد: ٨، عدد: ٤، ٢٠١٩م: ٥٤٥ - ٥٤٦.

(٢) المطرزي: أبي الفتح ناصر الدين (ت ٦١٠هـ): المغرب في ترتيب المعرب، تحقيق: محمود فاخوري و عبد الحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد - سوريا: ٢١٢ / ١.

(٣) عصام الدين بن سلام محمد إبراهيم أبو زلال: التعبير عن المحظور اللغوي والمحسن اللفظي في القرآن الكريم دراسة تحليلية: ٧٢.

(٤) أحمد عبد الله نصير: التلطف اللغوي في أسلوب القرآن الكريم - دراسة تحليلية في ضوء علم اللغة الاجتماعي، مجلة كلية الآداب جامعة بور سعيد، العدد الحادي والعشرون، يوليو ٢٠٢٢م.

(٥) يُنظر: محمود السعران: اللغة والمجتمع - رأي ومنهج، طبع بالإسكندرية، ط ٢، ١٩٦٣م: ١٣٠.

محذور الخوف، ومحذور الاحتشام، ومحذور اللياقة والأدب^(١)، فهذا التقسيم يُبين دواعيه التي من أجلها يُلجأ إليه.

وكذلك الأمر مع المحسن اللفظي الذي يعدُّ الوجه الثاني للمحذور، إذ إنّ المحظورات اللغوية (بمعنى الممنوع والمقبول من الكلام، وهي ظاهرة ذات شقين: يشمل الشق الأول المحذور اللغوي أو الكلمات المحظورة، ويشمل الشق الثاني تحسين اللفظ أو الكلمات المحسنة)^(٢)، فمتى ما تم حظر مفردة ما جاءت مفردة أخرى لتحلّ محلّها، ولتداخل هذه المصطلحات تاريخ طويل، إذ تنطوي تحتها مسميات عديدة منها (حُسن التعبير) الذي يدخل أيضاً في هذه المعادلة في قبال المحسن اللفظي، فقد استعمل هذان المصطلحان بمعنى ومفهوم واحد؛ فالمحسن اللفظي (لفظ بديل للمحذور اللغوي، يفضّل استعماله في سياق معيّن لعوامل متعددة، يتكون من كلمة أو أكثر، قابلٌ للتغيير والتحول إلى محذور لغوي متنوع بين الحقيقة والمجاز)^(٣)، فعدم الثبات والتغيّر، يعدّ فارقاً يرسم لنا خطأً آخر يفصل مفهوم التلطف المحافظ على ثبوتيته وخصوصيته عن غيره، ذلك أنّ المحسن اللفظي قد يتحول إلى محذور لغوي؛ بسبب استعماله الكثير فيصبح مرتبطاً بها، فقد (تذهب أهميته ويؤول إلى الانحطاط، فإذا ما كثر استعماله؛ تعرض لفقدان خاصية الرأفة واللفظ فيه، فبدلاً من أن يدلّ على الفكرة المحظورة بطريق غير مباشر، يصبح مرتبطاً بها ارتباطاً مباشراً، ومن ثمّ يصير غير ممكن الاستعمال)^(٤).

ومن أمثلة موضوعات المحذور اللغوي في القرآن الكريم والتي من الممكن تسميتها مقاربةً بوصفها وجهاً من وجوه التلطف، والتي يُمكن توظيفها في القرآن الكريم، موضوع (الحيض) فالنصّ القرآني يتحاشى هذه الألفاظ التي يعدُّ الخوض فيها خادشاً

(١) يُنظر: عصام الدين بن سلام محمد إبراهيم أبو زلال: التعبير عن المحذور اللغوي والمحسن اللفظي في القرآن الكريم دراسة دلالية : ٤٨.

(٢) كريم زكي حسام الدين: المحظورات اللغوية – دراسة المستهجن والمحسن من الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، ١٩٨٥م : ٧.

(٣) عصام الدين بن سلام محمد إبراهيم أبو زلال: التعبير عن المحذور اللغوي والمحسن اللفظي في القرآن الكريم — دراسة تحليلية: ٧٢.

(٤) ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة : ١٩٦.

للحياء، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَعْتَزُوا لِلنِّسَاءِ﴾^(١)، فلم يخض النصّ القرآني في شرح تفاصيل كلمة "أدنى" تلطفاً وتجنباً عن ذكر الألفاظ الفجة والخادشة للحياء، لذا تتضح أوجه الاتفاق والافتراق، فالمحظور اللغوي أو المحسن اللفظي والتلطف كلاهما يتفقان من حيث الأجراء، إذ إنهما يستهدفان المفردة فتستبدل بأخرى خالية من أيّ معنى مستهجن غير مقبول أو مرغوب فيه بمفردة مقبولة، فيجتمعان في كونهما يبتعدان عن التعبير المباشر غير المقبول، إذ أنّ المحظور ينطلق من قاعدة المنع، ولا تكتمل العملية إلا إذا أضفنا المحسن اللفظي إلى جنب المحظور، على حين أنّ التلطف يختزل العمليتين وهو نابع من حسن التعبير والمراعاة، إضافة إلى أنّ التلطف يترك مجالاً للمتلقى لتأويله وإعمال الخيال في معانيه المرادة، على حين ان المحظور اللغوي غالباً ما يكون مبنياً على ضرورة اجتماعية، فهو مرتبط باللغة التداولية في ضوء السياق والمعرفة المشتركة بين المتحدثين، على حين أنّ التلطف في النصّ القرآني خيار أخلاقي له أهدافه التربوية والتوعوية، وأيضاً فإنّ للتلطف مؤداه الذي يُنتظر منه الثمرة المرجوة بالمحصلة النهائية، وكذا الحال مع المحسن اللفظي؛ ذلك أنّ النصّ القرآني لا يستعمل الألفاظ والعبارات للتجميل والتزيين فحسب كما في المحسن اللفظي الذي هو تقنية تزيينية داخل النصوص الأدبية البشرية، على حين إنّ نصّ متكامل بين المعنى واللفظ، فكلّ لفظ فيه يحمل معنى جديداً محدداً وكلّ تجميل لفظي هو جزء لا يتجزأ من البنية الدلالية للنصّ القرآني.

ثانياً: الاتفاق والافتراق بين التلطف واللفظ

قد يُظن أنّ اللفظ هو التلطف بعينه وأنّه لا فارق بينهما، وأنهما متساويان أو مترادفان في المعنى، وهذا ما لمسناه من بعض من عرّفوه من المحدثين، وهذا بسبب تقاربهما في اللفظ والمعنى، ولكن حقيقة الأمر إذا ما تأملنا قليلاً في طبيعة العلاقة بين المصطلحين؛ سنلاحظ أنّ بينهما عموماً وخصوصاً من وجه، إذ يحسب الباحث أنّ كلّ تلطف هو لطف، ولا يمكن تحقق العكس، ذلك بأنّ اللطف مفهوم أوسع وأشمل من

(١) سورة البقرة: ٢٢٢.

التلطف، إذ إنّ (التلطف أعمال اللطف والرفق وإظهاره)^(١)، ولا يعدُّ التلطف إلاّ وجهاً من وجوهه ومسلكاً من مسالكه، فالتلطف ظاهرة نصيّة تقتضي استبدال لفظٍ بآخر أقلّ حدّةً، ويكون ظاهراً في الخطاب ويرتبط بسلوك إرادي، يفى بالمعنى المطلوب محصلةً، وعليه فهو بالمآل الأخير ظاهرة لغوية تنضوي في الخطاب الكلامي والنص الكتابي، على حين أنّ اللطف لا يرتبط بالظاهرة النصيّة فحسب، بل هو يشمل اللطف في الكلام والمعاملة والحركة مع الآخر تحبباً لا من باب استبدال لفظة بأخرى، فاللطف يتجاوز الاطار النصي الظاهر ليشمل مجمل السلوكيات الرقيقة والمحملة بالرحمة والرفق، قولياً وفعلياً، ظاهرياً وخفياً، كالتدبير الإلهي الذي يتجلى في أسمى صورته وأكملها، والمُدرك بنتائجه.

والتلطف يُراعى فيه المتلقي أكثر من مراعاة المتكلم، على حين أنّ اللطف قد يكون نابعاً من المتكلم، وليس بالضرورة أنّ يكون المتلقي مستحقاً لذلك اللطف، فدواعي اللطف نابغة من ذات المتكلم وأخلاقه وسجيته وسلوكه ابتداءً من دون إبدال لفظة مكان أخرى، وكذلك فإن اللطف لا يُبنى على إخفاء شيء مستهجن أو قبيح أو مما لا يُستساغ، كما في التلطف، الذي يكون مبنياً على إخفاء شيء مما ذكرنا، فاللطف عملية ملاينة ومجااملة، على حين أنّ التلطف يأتي بتكلف مستبدلاً لفظاً بآخر يفضي إلى دلالات ومعانٍ أخرى، فهو لا يقف عند حدود اللياقة والمجااملة كما اللطف.

وعليه يتضح أنّ اللطف صفة راسخة تدلّ على الرقة واللياقة وينطلق من سجية المتكلم وخلقه، له معانٍ متعددة وواسعة كالتعاطف واللين وطيبة القلب ومراعاة المشاعر والإحسان والاهتمام^(٢)، ومن مصاديق اللطف ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(٣)، فلفظه ﷺ بنبيه يوسف عليه السلام كان

(١) الطباطبائي: الميزان: ٢٦٠/١٣

(٢) ديفيد هاملتون: اللطف وآثاره الجانبية الخمسة، دار الخيال، د.ط، ٢٠١٨م: ٢٩.

(٣) سورة يوسف: ١٠٠.

في إبداله كل تلك الآلام والمحن والحوادث التي مرّ بها، إلى أسباب الحياة والنعمة والإحسان ف(قوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ تعليل لإخراجه من السجن ومجيئهم من البدو ويشير به إلى ما خصّه الله به من العناية والمئة وإنّ البلايا التي أحاطت به لم تكن لتتحل عقدها أو لتتحرف عن مجراها لكن الله لطيف لما يشاء نفذ فيها فجعل عوامل الشدة عوامل رخاء وراحة وأسباب الذلة والرقية وسائل عزة وملك^(١)، أمّا التلطف هو أمر مقصود ومعالجة لفظية لإظهار الرفق واللين في الخطاب، ويحمل بُعداً بلاغياً وأخلاقياً ورسالةً تربويةً ودعويةً غايتها الهداية واستجلاب الآخر إلى الحق والطريق المستقيم.

ثالثاً: الاتفاق والافتراق بين التلطف والمضامين ذات الصلة (الرحمة، الرأفة، الرفق، التودد)

يعدّ التلطف من القيم التعبيرية والوجدانية الذي ينضوي في ضمن منظومة أخلاقية متكاملة، فتتداخل مع مضامين قريبة، وبالرغم مما يبدو من تقارب في الغايات بين التلطف وهذه المعاني، فإنّ بينها وبين التلطف حدوداً دلالية دقيقة، ولكلّ منهما خصوصية في مجاله ودلالاته، ومن هنا كان لزاماً تمييز مواقع الاتفاق والافتراق بينهما، والتي سنتضح فيما يلي:

١. الرحمة:

عند استنطاق المعجم العربي لهذه المفردة، نجد بأنّ الجذر اللغوي لمفردة الرحمة (رح م: الرَّحْمَةُ الرِّقَّةُ والتعطف و المَرْحَمَةُ مثله وقد رَجِمَهُ بالكسر رَحْمَةً و مَرْحَمَةً أيضاً و تَرَحَّمَ عليه و تَرَاخَمَ القوم رَجِمَ بعضهم بعضاً)^(٢).

(١) الطباطبائي: الميزان: ٢٤٨/١١.

(٢) الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القاهر (ت ٦٦٦هـ): مختار الصحاح، مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٥م: ٢٦٧.

ومعنى الرحمة في اللغة يدلّ على الرقة والرأفة^(١)، فمعاني الرحمة تدور على العطف والرأفة والرقة، ولا تقف الرحمة عند حدود الشعور، بل وتقتضي العمل أيضاً، فالرحمة صفة تقتضي إرادة إيصال الإحسان والخير والمصالح للناس^(٢).

والأصل في موضوع الرحمة أنّ (اسم الرحمة موضوع في اللغة العربية لرقة خاطر وانعطافه نحو حي، بحيث تحمل من اتصف بها على الرفق بالمرحوم والإحسان إليه، ودفع الضرر عنه، وإعانتة على المشاق)^(٣).

فالرحمة تعدّ شعوراً عميقاً بالرقة والعطف وتقتضي إرادة إيصال الإحسان والخير للناس، وتستلزم الشفقة، فهي جزء أساس من التلطف، وهي بمكان الدافع للتلطف مع الآخرين، سعياً لتخفيف آلامهم أو تيسير أمورهم وإدخال السرور إلى قلوبهم، فالرحمة تعدّ إحدى مظاهر التلطف وسماته الملازمة له، وهي الباعث للتلطف بالمحصلة.

٢. الرأفة:

عند الرجوع إلى المعطى اللغوي لهذه المفردة نجد أنّ (الرأفة: أشدُّ الرحمة)^(٤). فهي تلتقي مع معنى الرحمة، ولكن (الرأفة أبلغ من الرحمة ولهذا قال أبو عبيدة: إنّ في قوله تعالى: (لَرَأَوْفٌ رَحِيمٌ)^(٥)، تقديماً وتأخيراً أراد أنّ التوكيد يكون في الأبلغ في المعنى فإذا تقدم الأبلغ في اللفظ كان المعنى مؤخراً)^(٦).

(١) يُنظر: ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ): لسان العرب، دار صادر، لبنان، ط ٦، ١٩٩٧م : ١١٢ / ٩.

(٢) يُنظر: الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، دفتر نشر كتاب، ط ٢، ١٤٠٤هـ : ٣٤٧.

(٣) ابن عاشور: التحرير والتنوير : ١ / ١٦٧.

(٤) الجوهرى: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: ٥ / ٤٨.

(٥) من سورة البقرة : ١٤٣.

(٦) العسكري: الفروق اللغوية : علق عليه ووضع حواشيه: محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ٣، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م : ٢٤٦.

وفي رأي آخر (قيل: الرأفة أشد الرحمة، وقيل: الرحمة أكثر من الرأفة، والرأفة أقوى منها في الكيفية، لأنها عبارة عن إيصال النعم صافية عن الألم)^(١)، وتعدّ الرأفة (أشدّ الرّحمة أو أرقّها كما في الصّحاح، والذي في المُجمل: أنّها مُطلق الرّحمة وأخصّ، ولا تكادُ تَقَعُ في الكراهية ... وقال الفخرُ الرَّازيُّ: الرأفة: مُبالغةٌ في رَحمةٍ مَحْصُوصَةٍ، من دَفَعِ المَكْرُوه، وإزالةِ الضّرِّ)^(٢)

وعليه فإنّ الرأفة تأتي بمعنى إيصال النعم صافية عن الألم أي من غير تعب أو نصب، وأيضا هي أرق من الرحمة وأبلغ منها، وأخصّ فإذا عدّت من درجات الرحمة كانت الأعمق والأشد، إذ تتضمن خوفاً وحرصاً بالغين على عدم الحاق أيّ ضرر أو مكروه بالآخرين، فهي أعلى مراتب الرحمة وأشدّها، وعليه فهي تتجلى بشكل واضح في التلطف وشديد الحرص على اختيار أنسب الطرق وألينها في التعامل والخطاب، تجنباً من إيذاء المشاعر ومراعاة النفوس، وعليه يمكن أن نعدّ الرأفة أحد مصاديق التلطف ومظاهره.

٣. الرفق:

عند مراجعة المعجمات العربية نجد أنّ معنى (الرفق: ضد العنف، وقد رفق به يرفق، وحكى أبو زيد: رفقت به وأرففته بمعنى، وكذلك ترفقت به. ويقال أيضاً: أرففته، أي نفعته)^(٣)، ويأتي أيضاً ويراد منه (اليسر في الأمور والسهولة في التوصل إليها وخلافه العنف وهو التشديد في التوصل إلى المطلوب، وأصل الرفق في اللغة النفع ومنه يقال أرفق فلان فلاناً إذا مكنه مما يرتفق به، ومرافق البيت الموضع التي ينتفع بها زيادة على ما لا بدّ منه، ورفيق الرجل في السفر يسمى بذلك لانتفاعه بصحبته)^(٤)، ويلتقي الرفق والتلطف في معنى واحد (رَفَقَ بِهِ وَتَرَفَّقَ " تَلَطَّفَ بِهِ مِنْ الرِّفْقِ خِلافُ

(١) العسكري: الفروق اللغوية: ٢٤٦.

(٢) الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، د.ط، ١٩٩٤م : ٣٢٢ / ٢٣.

(٣) الجوهرى: الصحاح: ١٤٨٢/٤.

(٤) العسكري: الفروق اللغوية: ٢٥٩.

الْحُرْقِ وَالْعُنْفِ وَارْتَفَقَ بِهِ انْتَفَعَ^(١)، وقيل بأنَّ (الرَّفُقُ: لينُ الجانب، ولطافةُ الفعل، وصاحبه رَفِيقٌ، وقد رَفِقَ يَرْفُقُ رَفْقاً بالكسر)^(٢).

وعليه فإنَّ الرفق يدور على عدّة معانٍ فيأتي بمعنى النفع، واليسر في الأمور والسهولة، وتارة أخرى يأتي بمعنى التلطف وأيضاً لين الجانب، وكلها تتفق ومفهوم التلطف وتجلياته فهو يدلّ على المعاملة الحسنة المبنية على السهولة ولين الجانب لإيصال النفع إلى المتلقي وهو ما يؤديه التلطف مآلاً.

٤ . التودد :

عند استنطاق المعجم العربي نجد أنّ التودد لغة من الـ (ود) الواو والـ (دال): كلمةٌ تدلُّ على مَحَبَّةٍ، وَدِدْتُ: أحببته، وَوَدِدْتُ أَنْ ذاك كان، إذا تَمَنَّيْتَهُ، أَوْدُ فيهما جميعاً، وفي المحبّة الودُّ، وفي التَّمَنِّي الودّادة، وهو وَدِيدٌ فلانٍ، أي يُحِبُّهُ^(٣)، وأيضاً فإنَّ الود يحمل معانٍ أخرى فيقال: (تَوَدَّدَ إليه: تَحَبَّبَ، والتَّوَادُّ التَّحَابُّ تَفَاعُلٌ مِنَ الودادِ، وَقَعَ فيه إدغامُ المثلّين، وهما يَتَوَادَّانِ أي يَتَحَابَّانِ)^(٤)، ويأتي أيضاً بمعنى مقارب من الحب فـ(تحبب إليه تودد: أظهر الحب)^(٥).

(١) المطرزي: أبي الفتح ناصر الدين (ت ٦١٠هـ): المغرب في ترتيب المعرب، تحقيق: محمود فاخوري و عبد الحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد - سوريا، د.ط، د.ت: ٣٣٩/١.

(٢) الزبيدي: تاج العروس: ٣٤٦/٢٥.

(٣) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة: ٧٥/٦.

(٤) الزبيدي: تاج العروس: ٣٠٧/٥.

(٥) موسى بن محمد الملياني الأحمدي: معجم الأفعال المتعدية بحرف، ط ١، ١٤١٠هـ: ٤٣.

وقد ورد في عدة مواضع من القرآن الكريم فجاء في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾^(٢)، ولعل ذلك لما في لفظ المودة من الإشعار بمراعاة حال المودود وتعاهده وتفقدته، حتى قال بعضهم - على ما حكاه الراغب - إن مودة الله لعباده مراعاته لهم^(٣).

ففي المودة إشعار بمراعاة حال المودود وتفقدته، وهو سعي إلى إظهار الحب والميل القلبي وبالمحصلة فهو سلوك تعبيرى يروم فيه المتودد جذب الآخر وإشعاره بالحب والاهتمام والتأثير فيه بصورة إيجابية، فهو فعل يتجاوز الحب، ذلك أنّ الحبّ قلبي قد لا يبين على المحب، أما التودد فهو الأسلوب المظهر لذلك الحب والمستشعر في الواقع، (وقوله: (وجعل بينكم مودة ورحمة) المودة كأنها الحب الظاهر أثره في مقام العمل فنسبة المودة إلى الحب كنسبة الخضوع الظاهر أثره في مقام العمل إلى الخضوع الذي هو نوع تأثر نفساني عن العظمة والكبرياء)^(٤).

وبعبارة أخرى تسعى المودة إلى إظهاره عملياً، وهو ينطوي على حب عميق يرتكز فيه على الرغبة في القرب والتأثير، ويتعلق بالفعل أكثر منه في القول، وهو خلق نبيل بطبيعة الحال تقتضيه الدعوة إلى الله، ولكونه يسلك سبل التأثير وإثارة المشاعر الإيجابية واستمالة القلب، وكذلك هو التلطف المعنى والمبتغى فبينهما عوامل مشتركة يلتقيان فيها فكلاهما يركن إلى استعمال الرحمة والرفق إلا أنّ مفهوم التلطف أعمق فهو يشتمل على المودة.

وعليه يُمكن القول أنّ التلطف في الخطاب والبيان من أرقى صور التواصل الإنساني والبلاغي، بوصفه سلوكاً لغوياً مقصوداً يهدف إلى إيصال المعنى بطريقة تراعي حال المخاطب، وتُهيئته لقبول الحقّ أو التفاعل مع الخطاب دون نفور أو عزوف، وحين نضع هذا المفهوم في سياق المفردات القيمة المرتبطة به، كالرأفة والرحمة والرفق

(١) سورة هود: ٩٠.

(٢) سورة البروج: ١٤.

(٣) الطباطبائي: الميزان: ٤٦/١٨.

(٤) م. ن: ١٦٦/١٦.

والتودد، نجد أنها جميعاً تتقاطع معه في معانيها وتتفرع عنه أو تنضوي تحته من حيث الوظيفة المقصودة، وإن اختلفت في بعض خصائصها أو سياقات ورودها. فالرأفة هي أشدّ الرحمة، وتميل إلى المعنى العاطفي الدقيق الذي ينطوي على الحنو المقرون بالخوف من الأذى، وهي صورة من صور التلطف حين تُترجم إلى تعبير لغوي يحذر من القسوة ويجنح إلى الإشفاق، والرحمة بمعناها القرآني العام تعني الإحسان إلى الآخر مع العطف والرغبة في الخير له، وهي مبدأ أصيل في التلطف، إذ يظهر التلطف في النصّ القرآني انعكاساً لمقصد الرحمة، كما في مخاطبة العصاة أو المنحرفين - ممن يُرتجى هدايتهم - دون تجريح والرفق هو اللين في التعامل، ويُعدّ سلوكاً عملياً للتلطف، إذ لا يتحقق التلطف في القول إن لم يُدعم بالرفق في الطرح والأسلوب. أمّا التودد فهو إظهار المحبة والقرب من الآخر، وغالباً ما يكون خطوة متقدمة من التلطف، يتضمّن التقرب العاطفي لاجتذاب القلوب، وهو كثيراً ما يُستعمل في القرآن الكريم والحديث النبوي في مقام الدعوة والإصلاح، وبالمحصلة، فإن هذه المفاهيم الأربعة ليست مفاهيم موازية للتلطف، بل هي دوائر معنوية تتباين عنه في أصل معناها وتدعمه في أصل مضمونها من حيث أنّ جزئيات التلطف وغاياته شاملة لهذه المعاني في دائرته وماهيته الشمولية، وتشكّل في مجموعها بنية الخطاب الأخلاقي القرآني الذي يقوم على الإقناع قبل الإلزام، والحكمة قبل الزجر، والتأثير قبل الأمر. وعليه فإنّ ظاهرة التلطف في القرآن الكريم تتميز بخصائص مفهومية وبنائية تجعلها مستقلة عن المفاهيم البلاغية واللغوية المقاربة، على الرغم من وجود مساحات مشتركة من التداخل الوظيفي بينه وبينها، واتضح أيضاً أنّ الاستعمال القرآني للطف احتُكر دلاليّاً لله ﷻ لتفيد ثبوتيتها واستمرارها وكمالها.

الفصل الثاني

دواعي استعمال التلطف في القرآن الكريم

الفصل الثاني

دواعي استعمال التلطف في القرآن الكريم

المبحث الأول : الدواعي الدعوية المراعية للفطرة الإنسانية

أولاً:- استجلاب الآخر واستمالاته

ثانياً:- المساواة بين الأطراف لاستظهار الحق على الباطل

ثالثاً:- تخفيف المشقة في الأحكام وبت الاطمئنان في النفس

المبحث الثاني: الدواعي الأخلاقية والتربوية

أولاً:- الاحترام والتأدب

ثانياً:- مقابلة الإساءة بالإحسان

ثالثاً:- التعفف عن ذكر المشمئزات ومراعاة النفس البشرية

الفصل الثاني

دواعي استعمال التلطف في القرآن الكريم

يهدف هذا الفصل إلى بيان الدواعي الكامنة من وراء استعمال التلطف في القرآن الكريم، يُظهر عناية القرآن بتهذيب النفس البشرية ودفعها نحو الخير، عبر الكشف عن الأبعاد التربوية والدعوية والنفسية التي استدعت هذا اللون من الخطاب، إذ نجد أنّ التلطف لا يقتصر فقط على الكلمات، بل يمتد ليشمل أسلوب المعاملة الإلهية مع عباده، إذ يُعبّر عن الرحمة والعطف التي لا حدّ لها، إذ يتّسم الخطاب القرآني بالتلطف في الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر، بما يحقق أعمق تأثير في النفوس.

فكان له مجموعة من الدواعي وكانت على صنفين دواعٍ مقاصدها دعوية رُوعيت فيها الفطرة الإنسانية، وأخرى أخلاقية تربوية، فجاء التلطف في التوجيه الحكيم محاكياً للظروف النفسية للناس أجمعين،

ويُظهر التلطف في القرآن الكريم مدى اهتمام الخالق عز وجل بالقيم التربوية العليا التي بدورها تشيع الأخلاق وتهذب النفس وتذكرها بضرورة الرجوع إلى الله عز وجل، فلا نجد في القرآن أي قسوة في دعوة الله لعباده للعودة إليه، بل نجد رحمته الواسعة واضحة وجلية، تظهر فيها عناية النص القرآني في بناء المنظومة الأخلاقية المتكاملة، وهو منهج تربوي مبني على التدرج مع المخاطب سواء في نقل الأحكام أو في معالجة الانحرافات الفكرية والاجتماعية، يقول عز وجلّ فهذه الكلمات تأتي في سياق تسهيل الطريق أمام العباد للتوبة، وهو أسلوب يُظهر مدى الرفق الذي يحرص القرآن على إيصاله إلى المؤمنين المبني على غرس الألفة بين قلوبهم.

المبحث الأول

الدواعي الدعوية المراعية للفطرة الإنسانية

إنّ النصّ القرآني جاء مخاطباً للبشرية جمعاء وليس لفئة خاصة دون غيرها، لذا فقد جاء مستندا إلى معرفة دقيقة بتركيبية النفس الإنسانية وفطرتها التي فطر الله سبحانه وتعالى الناس عليها، فكان من مقتضيات هذه الدعوة؛ الدعوية المراعية للفطرة الإنسانية والتي يمكن إجمالها بما يأتي :

أولاً:- داعي استجلاب الآخر:

إنّ أحد دواعي التلطف في الخطاب القرآني هو استجلاب الآخر واستقطاب المتلقي أو السامع لإنجاز المبتغى منه؛ إذ إنّ خطاب التعنيف ولغة الترهيب ليست هي المجدية دوماً في أداء المطلوب أداؤه من المقابل؛ لذا عمد النصّ القرآني إلى استعمال التلطف للمتلقي من باب الإتكاء على اللين لأداء المتوقع؛ حيث ينقل في الأثر أنّه (تصدّى رجلاً للرشيد فقال: إنّي أريد أن أغلظ عليك في المقال، فهل أنت مُحتمل؟ قال: لا؛ لأن الله تعالى أرسل من هو خيرٌ منك إلى مَنْ كان شراً مني، وأمره باللين، فقال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (١) (٢).

بهذا نجد أنّ التلطف بداعي استجلاب المتلقي يمثل استراتيجية قرآنية تُمهّد دعوة السماء عموماً وأداء المؤمل خصوصاً فهو أحد أقوى وسائل الإقناع للمقابل.

فهذه الآية تُعدّ من الأوامر الإلهية التي تدعو إلى اللين والتلطف حتى مع أشد الطغاة وتبيّن علّة استعماله، ف(قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (٣)، فهي إرشاد منه - سبحانه إلى الطريقة التي ينبغي لهما أن يسلكاها في مخاطبة فرعون، أي: اذهبا إليه، وادعواه إلى ترك ما هو فيه من كفر وطغيان، وخاطباه بالقول اللين، وبالكلام الرقيق، فإنّ الكلام السهل اللطيف من شأنه أن يكسر جدّة

(١) سورة طه : ٤٤ .

(٢) عبد الرحمن بن سيد احمد البرقوقي (ت ١٣٦٣هـ): الذخائر والعبريات، مكتبة الثقافة الدينية - مصر، ١٩٤١م، ٩٦/٢ .

(٣) سورة طه : ٤٤ .

الغضب، وأن يوقظ القلب للتذكر، وأن يحمله على الخشية من سوء عاقبة الكفر والطغيان... فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على أطف أساليب المخاطبة وأرقها وألينها وأحكمها... قال ابن كثير: (قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهي أن فرعون كان في غاية العتو والاستكبار، وموسى كان صفوة الله من خلقه، إذ ذاك ومع هذا أمر أن لا يُخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين)^(١).

فقد بينت الآية طريقة التعامل المؤثرة مع فرعون، فمن أجل أن تنفذا إليه وتؤثرا فيه فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى والفرق بين (يتذكر) و(يخشى) هنا هو أنكما إذا واجهتماه بكلام لطيف، رقيق، ملائم، وتبينان في الوقت ذاته المطالب بصراحة وحزم، فيحصل أحد الاحتمالين: أن يقبل من صميم قلبه أدلتكما المنطقية ويؤمن، والاحتمال الآخر هو أن يخاف على الأقل من العقاب الإلهي في الدنيا أو الآخرة، ومن زوال ملكه وقدرته، فيذعن ويسلم ولا يخالفكما، ويوجد احتمال ثالث أيضاً، وهو أنه لا يتذكر ولا يخشى، بل سيستمر في طريق المخالفة والمجابهة، وقد أشير إلى ذلك بكلمة (لعل) وفي هذه الصورة فإن الحجّة قد تمت عليه، وعلى كل حال فإن القيام بهذا العمل لا يخلو من فائدة)^(٢).

من هنا نفهم أن اللين واستعمال الكلام الرقيق يكون له بالغ الأثر في النفوس والتأثير عليها لإعادتها إلى جادة الصواب مهما طغت واستكبرت ونسيت، يقول ﷺ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٣)، فقد أمرنا أن ندعوا إلى سبيل الحق بأفضل الاحتجاج وأحسنه، فيكون المعنى بذلك (ادع إلى دين ربك الذي هو طريق إلى مرضاته بالحكمة بالمقالة المحكمة الصحيحة وهي الدليل الموضح للحق، وقيل: بالقرآن والموعظة الحسنة وهي التي لا يخفي عليهم أنك تناصحهم بها

(١) طنطاوي: محمد سيد : التفسير الوسيط للقران الكريم، راجعه: دكتور عبد الرحمن العدوي، دار المعارف - القاهرة، ١٩٩٢م، ١٠٨/٩.

(٢) ناصر مكارم الشيرازي : الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : ٦/١٠.

(٣) سورة النحل : ١٢٥.

وتنفعهم فيها وجادلهم بالتي هي أحسن أي: بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة وعنف ليكونوا أقرب إلى الإجابة^(١)، فأولى السبل في الدعوة إلى سبيل الحق بالعقل والنصح، (وكأن الآية إشارة إلى وجوب دعاء الكفار إلى الدين أولاً قبل محاربتهم فقبل المراد بالحكمة الكتاب والموعظة الحسنة وصف ثان له والجدل دليل العقل)^(٢).

وفي ذلك إشارات ومرادات تضمنتها الآية، (فالحكمة إشارة إلى البرهان والموعظة الحسنة إشارة إلى الخطابة: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إشارة إلى علم الجدل، وإنما قدّم الخطابة على الجدل لأنّ المنتفعين به أكثر لأنهم أغلب الناس أو لأنّ الواو لا يفيد الترتيب، ووصف الموعظة بالحسنة أي يظهر لهم حسناتها والجدال بالتي هي أحسن أي بالرفق والخلق الحسن والكلام الطيب فإنّ ذلك أقرب إلى القبول والانقياد لا على وجه السفاهة والغلظة)^(٣)، وهو أمر مباشر يبيّن فيه الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم لأسلوب الدعوة، إذ (أمر سبحانه نبيّه بالدعاء إلى الحقّ، فقال: (ادْعُ) من بعثت إليهم (إلى سبيل ربّك) إلى دين ربّك، وهو الإسلام (بالحكمة) بالمقالة المحكمة، وهو الدليل الموضح للحقّ، المزيح للشبهة (والموعظة الحسنة) الخطابات المقنعة والعبر النافعة، فالأولى لدعوة خواصّ الأمة الطالبين للحقائق، والثانية لدعوة عوامهم، وقيل: الحكمة هي القرآن، وسميّ حكمة لأنّه يتضمّن الأمر بالحسن، والنهي عن القبيح، وأصل الحكمة المنع، ومنه حكمة اللجام، والموعظة الحسنة: هي الصرف عن القبيح، على وجه الترغيب في تركه، والتزهيد في فعله، وفي ذلك تليين القلوب بما يوجب الخشوع، (وَجَادِلْهُمْ) وجادل معانديهم (بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة، من الرفق واللين من غير فظاظة وتعنيف، وإيثار الوجه الأيسر فالأيسر، والمقدّمات التي هي أشهر، فإنّ ذلك أنفع في تسكين

(١) الطبرسي: تفسير جوامع الجامع، مؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي

التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ط ١، ١٤١٨ هـ : ٣٥٥/٢.

(٢) السيوري: مقداد بن عبد الله الحلبي (ت ٨٢٦هـ): تفسير كنز العرفان في فقه القرآن، تحقيق:

الشيخ محمد باقر، مطبعة حيدري - طهران، نشر المكتبة الرضوية - طهران، ١ / ٣٩٢.

(٣) م.ن : ١ / ١٩٢-١٩٣.

لهبهم وتلينين شغبهم)^(١)، وكأنّ الآية بصدد تحديد الأطار المنهجي الذي يرسم ملامح التلطف وضوابطه في الخطاب الدعوي؛ إذ تؤسس لمبدأ أن الدعوة الى الحق لا تكتمل الا من اذا اقترنت بشروط أولها الانطلاق من الحكمة القائمة على الحجة والبرهان العقلي، وآخر يتحقق بتوجيه الخطاب الى القلب والوجدان بالموعظة الحسنة التي تلين القلوب وتستميل النفوس، ثم سلوك المجادلة والتي هي احسن بما يعكس قوة الحجة ورقة الخطاب وسماحة المقصد، لا تخلّ بأهداف الدعوة أو تُضعفها.

وآيات قرآنية كثيرة تدعو إلى ضرورة انتهاج منهج التلطف في التعامل مع الناس عامة ومع الكفار بل وحتى مع الطواغيت بأسلوب الرفق واللين؛ فالدعوة إلى التلطف تعدُّ مبدءاً قرآنياً ينطلق منه وهو بصدد هداية الناس إلى طريق الحق وإرجاعهم إلى توحيد الله ﷻ،

وأنّ النصّ القرآني استعمل سبيل ترغيب الإنسان إلى الفعل الذي من شأنه جلب الخير والمنفعة للإنسان نفسه فيعدهم بالجزاء والعطايا رحمة منه تعالى لبني البشر، بل ويلتمس الخير لهم بشئى الأساليب في سبيل استمالتهم وهدايتهم الى طريق الحق والنجاة.

ففي قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُفْرِضُ اللَّهُ قَرَضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٢).

إذ نجد كيف أنّ النصّ القرآني قد وُظّف: (التلطف في الاستدعاء إلى أعمال البر والإنفاق في سبيل الخير، وجهلت اليهود لما نزلت هذه الآية، فقالوا الله يستقرض منا فنحن أغنياء وهو فقير إلينا! فأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ دُفُوعًا

(١) الكاشاني: زبدة التفاسير : ٣ / ٦٢٢ .

(٢) سورة البقرة : ٢٤٥ .

عَذَابَ الْحَرِيقِ»^(١)(٢)، وحاشا أن يكون الله ﷻ محتاجاً ليقترض بل تصوروا ذلك لسفه عقولهم، ذلك بأن (الله سبحانه لا يستقرض عن عوز، ولكنه ذكر هذا اللفظ على طريق التلطف أي: يعامل عباده معاملة المستقرض من حيث إن العبد ينفق في حال غناه، فيأخذ أضعاف ذلك في حال فقره وحاجته)^(٣).

ويلحظ من خلال إمعان النظر في الآية الكريمة، كيف أن الله ﷻ يستجلب عباده إلى فعل الخير والعمل الصالح الذي من شأنه إصلاح الأمة وتربيتها من خلال زرع روح التعاون والمساعدة والبذل الذي سيعود عليهم محصلة بالخير على المستوى الفردي والجماعي، ذلك أن فائدته لا تقتصر على الأفراد فحسب بل هي فائدة تعم الجميع ومهما حاولنا أن نحصي الثمرات المترتبة عليها فنحن قاصرون عن ذلك بل وعاجزون ولكنه تطف منه ﷻ بعباده بتوجيههم بخفاء إلى كل ما فيه خير ومنافع عديدة على جميع الأصعدة.

ومن تقنيات استجلاب الآخر بالتلطف هو نداؤه بصفة محببة ويتضح ذلك جلياً في الخطاب القرآني للمؤمنين تحديداً في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۖ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٤)، إذ نلاحظ ابتداءً أن النص القرآني بدأ نداءه بالمؤمنين لاستجلاب انتباههم على ضرورة ما سيلقى عليهم من قول، وفي ذلك إشارة إلى أن النص يخاطب فئة محددة، فقله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ﴾ في صراط الإيمان هل أعلمكم وأرشدكم وهل ترغبون في تجارة منجية من العذاب الأليم وهو الإيمان بالله وحده والجهاد في سبيل دينه بالمال والنفوس؟ وصورة الكلام العرض

(١) سورة آل عمران : ١٨١.

(٢) ابن إدريس الحلبي: أبي عبد الله محمد بن احمد(ت٥٩٨هـ): المنتخب من تفسير القرآن والنكت المستخرجة من كتاب التبيان، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، إشراف السيد محمود المرعشي، مطبعة سيد الشهداء عليه السلام، نشر مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي العامة - قم، ط١، ١٤٠٩م: ١ / ٩١.

(٣) الشيخ الطبرسي: تفسير مجمع البيان : ١ / ٤٤٦.

(٤) سورة الصف : ١٠ - ١١.

والمراد الأمر على سبيل التلطف في الاستدعاء فيكون العمل به سبباً لإنجاء الله إياكم من العذاب...^(١).

فقد جاء النص للتلطف والتحبب وتحفيز المتلقي، فهو نداء عام وإن خصص بالمؤمنين إرادة في جلب انتباههم إلى أهمية ما سيأتي في سياق الآية، (فلاحظ نداء المؤمنين أن النداء الذي يوجه للمؤمنين إنما هو في حقيقته نداء عام الدلالة منفتح النطاق يشمل الناس جميعاً المؤمن وغير المؤمن)^(٢)، بنية توجيههم إلى أنه إذا اتبعوا الدليل وسلكوا النصيحة وساروا على نهجها، فإن ذلك سيعني نجاتهم وبأنهم سيكونون في حيز الإيمان، فحددت الآية الكريمة الخطوات التي متى ما اتبعوها فإنها ستنجيهم من العذاب بلا ريب أولها الإيمان بالله الواحد الأحد ثم برسوله الكريم محمد ﷺ ثم الجهاد في سبيل الله والذي يكمن ببذل الأموال والأنفس، فالالتزام بهذه الضوابط من شأنه أن يجعل تجارتهم رابحة في الدنيا والآخرة، وأداء ذلك يعني الفوز والربح لا محالة، فتلطف الله ﷻ في استجلابهم وتبيين ما ينجيهم من كل عذاب.

ومن المصاديق الأخرى التي تعد من سبل التلطف، ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾^(٣). يذكر المفسرون أن هذه الآية جاءت (حكاية عن خطاب النبي نوح عليه السلام لقومه، وذلك في ندائهم بقوله: (يا قوم) تلطف في الخطاب، ليستميلهم إلى دعوته، فكأنه يقول لهم: أنتم أهلي وعشيرتي يسرني ما يسركم، ويؤذيني ما يؤذيكم، فاقبلوا دعوتي، لأنى لكم ناصح أمين)^(٤)، فلم يقل لهم (أيها القوم) مثلاً، ففي الخطاب ما يدعو إلى ترقيق قلوبهم لما له من كبير الأثر والتأكيد على مبدأ الانتماء وأنهم من جلدته ومدى قربهم منه، فإن نداءه لهم بقوله: (يا قوم) (فقال لهم متعطفا عليهم مستمياً لهم لقبول الحق:

(١) مير علي الحائري الطهراني: مقتنيات الدرر: ١١ / ١٣٣.

(٢) سيروان عبد الزهرة الجنابي: الإعجاز في النص القرآني قراءة في مفهومه ووجوهه، دار الرافد للطباعة - بغداد، الناشر: دار حدود للنشر والتوزيع - لبنان، ط ٢، ٢٠١٨ م: ١٢٨.

(٣) سورة المؤمنون: ٢٣.

(٤) طنطاوي: التفسير الوسيط للقران الكريم: ١٠ / ٢٥.

يا قوم اعبدوا الله وحده واطيعوه، ولا تشرکوا معه ربا سواه، فإنه لا رب لكم غيره، ولا معبود سواه^(١)، فكأنه نسب نفسه إليهم ونسبهم إليه لذا فإن المعنى الذي أراد أن يوصله بهذا إنني أرجو هدايتكم لأنه أمر يهمني ومن الواجب عليّ أن أحرص عليكم وأدعوكم لما فيه الخير والخلص.

من المسالك الأخرى التي اتبعتها النصّ القرآني العظيم للتلطف في استقطاب الآخر هو صيغة السؤال على سبيل الإبانة لإيصال المبتغى المطلوب وتبيينه، فهناك جملة من الآيات التي قد وردت بهذه الصيغة، منها: قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾^(٣)، وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾^(٤)، وقوله أيضاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(٥)، إذ (ليس المراد في هذه الموارد: مفهوم الهداية وإراءة الطريق إلى هذه الموضوعات، ولا الإرشاد وقصد الخير والصلاح، بل يراد الإبانة وإراءة موضوع مجهول لهم حتى يبين ويتّضح لهم، وهذا المعنى أقوى وأكد وأقرب في تفهيم المعنى والإيصال إلى المطلوب، وهذا هو لطف التعبير بها في هذه الموارد، دون سائر الموارد)^(٦).

ونعني بصيغة السؤال هنا، هي صيغة السؤال التحفيزي والاستنكاري، ففي أحيان كثيرة يحتاج الإنسان لمن يرجعه إلى جادة الصواب من خلال توجيه تساؤل عن

(١) المراغي: تفسير المراغي، دار النشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، د.ط، د.ت: ١٨ / ١٦.

(٢) سورة طه: ١٢٠.

(٣) سورة طه: ٤٠.

(٤) سورة الصف: ١٠.

(٥) سورة سبأ: ٧.

(٦) حسن المصطفوي: التحقيقات في كلمات القرآن الكريم: ٣ / ١٣٦.

علة موقفه وتزمته وتعصبه تجاه قضية ما ليدرك حين يواجه عقله أنه لا يمتلك إجابة عقلانية منطقية لذلك التساؤل، بل ولم يعضد فيه موقفه، (ففي قوله تعالى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ)^(١)، فخطبهم الله في هذه الآية، بأن قال لهم (قل لِمَ تكفرون بآيات الله) على وجه التلطف في استدعائهم إلى الحق، وتوجيه الخطاب إليهم)^(٢).

فكان النصّ بهذا يُحيل الأمر برمته إلى عقل المتلقي ليُوجد في داخله جدليّة للإجابة عن هذا التساؤل، حينها سيحاول المخاطب أن يبحث عن إجابة حقيقة مباشرة يواجه بها نفسه، ذلك أنّ الإنسان حينما يتحاور مع نفسه يكون أكثر موضوعية فيما لو كان في صدد الجدل مع آخر فحينئذ لن يكون هدفه وهمه الشاغل الانتصار، بقدر ما سيكون همه الرئيس وغايته آنذاك أن يشعر بالاقتناع التام المرضي لنفسه ليشعر بأنّ هذه القناعة التي توصل إليها من نفسه ليست دخيلة أو مفروضة من الخارج فيطمئن لها ويركن إليها، فالنصّ القرآني أخذ بعين الاعتبار طبيعة النفس البشرية وما ينتابها من هواجس وأفكار.

ومن المصاديق الأخرى أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ﴾^(٣).

فقد أشارت هذه الآية إلى تعليمات الله ﷻ لموسى عليه السلام وكيفية دعوة فرعون بأسلوب راق مؤثر، ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ﴾^(٤)، (أي ادعوه إلى الله وطريق الجنة، و(قل) على وجه التلطف في الكلام (هل لك إلى أن تزكى) وتطهر من المعاصي، فالتزكي طلب الطالب أن يصير زاكياً، تزكي يتزكى تزكياً، والزكاي النامي في الخير، والزكاء النماء في الخير، ولو نمت في الشر لم يكن زاكياً)^(٥). والأثر المترتب في حال استجابته ف (بعد التزكية وتطهير الذات تصبح لائقاً للقاء

(١) سورة آل عمران : ٩٨ .

(٢) حسن المصطفوي : التحقيق في كلمات القرآن الكريم : ٣ / ٥٣٨ .

(٣) سورة النازعات : ١٧ - ١٨ .

(٤) سورة النازعات : ١٨ .

(٥) الطوسي: التبيان في تفسير القرآن : ١ / ٢٥٧ .

الله، وسوف أهديك إليه عسى أن تخشع، وتترك ما أنت عليه من المنكرات: وأهديك إلى ربك فتخشى^(١).

فاستعمل صيغة السؤال التي فيها من التلطف ما من شأنه إن يرقق القلب ويستهيوي النفس، إذ (يعرض عليه بلطف ولين التطهير من الشرك والرذائل والهداية إلى الله والحق)^(٢).

ومن قبيل ذلك ما جاء عن قصة موسى والخضر عليه السلام إذ يمكننا أن نستلهم من هذه القصة المباركة كثير عبر، ومن جملتها ما دار بينهما من حوار ثقافي فيه من الأدب والتلطف في السؤال ما يُعدّ درساً في فن اللياقة والاحترام، فقد جاء ذلك في حوار موسى والخضر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾^(٣)، إذ (يخبر تعالى عن قيل موسى عليه السلام لذلك الرجل العالم وهو الخضر الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر) (قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ) سؤال تلطف لا على وجه الإلزام والإجبار وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم وقوله (أتبعك) أي أصحابك وأرافقتك على أن تعلمن مما علمت رشداً)^(٤).

ويمكن أيضاً إن نستلهم مدى تواضع نبي الله موسى عليه السلام وهو في صدد طلب العلم من الخضر عليه السلام بأن يعلمه ما لم يعلم، لنستشف منها أن طلبه هذا (لا ينافي نبوته وكونه صاحب شريعة أن يتعلم من غيره ما لم يكن شرطاً في أبواب الدين، فإن الرسول ينبغي أن يكون أعلم ممن أرسل إليه فيما بعث به من أصول الدين وفروعه

(١) ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : ١٩ / ٣٨٤.

(٢) محمد جواد مغنية(ت ١٤٠٠هـ): التفسير المبين، ط ٢، نشر: مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م: ٧٩٠.

(٣) سورة الكهف: ٦٦.

(٤) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير(ت ٧٤٧هـ): تفسير القرآن العظيم، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، نشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م: ١٠١/٣.

لا مطلقاً، وقد راعى في ذلك غاية التواضع والأدب، فاستجهل نفسه، واستأذن أن يكون تابعاً له وسأل منه (أن يرشده) وينعم عليه بتعليم بعض ما أنعم الله عليه^(١)، والمحصلة نجد أن النبي موسى عليه السلام قد تلطف مع معلمه وهو الخضر عليه السلام بسؤاله أن يعلمه، وفي هذا إشارة إلى أنه مهما كانت منزلتك فينبغي عليك أن تكون متواضعا وأنت في مقام طلب العلوم والمعارف، فضلاً عن قوله: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنِّي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ فعبارته هذه مبنية على الأدب في التعبير إزاء خالقه عليه السلام وتجاه من يعلمه، فلم يجزم بالصبر بل قدم ذلك بمشيئته عليه السلام فإن لم يستطع أن يفي بذلك فلا يترتب عليه والحال هذه أية مخالفة لما وعد به فكل شيء متعلق بمشيئة الخالق عليه السلام.

ثانياً: داعي المساواة بين الأطراف لاستظهار الحق على الباطل:

من الطرق التي اتخذها الخطاب القرآني لاستظهار الحق على الباطل، عدم استقبال الآخر بما يكره، بل وتخييره في الانقياد من عدمه، وفي هذا تلطف كبير مع المتلقي فمتى ما استشعر المتلقي الاحترام من الآخر والمساواة وبأن له كيانه المستقل وبأن المخاطب يوليه كل الأهمية، ويعدّه كفوءاً له فلا يُنقص من قيمته شيئاً فإن هذا من شأنه أن يمنحه الشعور بالطمأنينة، ويحفظ كرامته، فبهذا يمكن أن نطمئن إلى أن الآخر حينها سيتفاعل معه، ويتعاطى بشكل إيجابي مع ما يُطرح عليه من دون شعور بالغبن.

ومن المصاديق التي تضمنت هذا المعنى ما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٢).

فالآية الكريمة، في صدد دعوة الآخر من أهل الكتاب اتكأ على حقيقة واحدة نشترك في الإيمان بها، من باب التعويل على التوحيد الذي يجمعنا وإياكم، ذلك بأن (قوله: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ، يعني إلى

(١) المشهدي: تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب : ٨ / ١٠٦.

(٢) سورة آل عمران : ٦٤.

طمع عدل بيننا وبينكم، لأنهم كانوا مُقَرَّبِينَ بَأْنٍ خالِقهم وخالق السماوات والأرض هو الله تعالى، فنوحده ولا نعبد إلا إياه، وأصل العبادة: التوحيد مع أكل الحلال وكف الأذى، ولا يحصل الأكل الحلال إلا بكف الأذى، ولا كف الأذى إلا بأكل الحلال، وأن تعلموا أكل الحلال وترك أذى الخلق والنية في الأعمال كما تعلموا فاتحة الكتاب، ليصفوا إيمانكم وقلوبكم وجوارحكم، فإنما هي الأصول^(١).

فدعاهم النصّ القرآني إلى التوحيد بوصفه (كَلِمَةٍ سَوَاءٍ) وإن اختلفت مراتب التوحيد فقال: ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾ أي: واحدة مستوية لا خلاف فيها (بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) لا يختلف فيها القرآن والتوراة والإنجيل، وتفسير الكلمة ومفهومها قوله: ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾^(٢).

فقوله تعالى: (تَعَالَوْا) فيها استدعاء للآخر بطريقة تلطيفية فضلاً عن عبارته (كَلِمَةٍ سَوَاءٍ) فهي توحى بالتوحيد بين المتكلم والمخاطب من أجل وضع الجميع على مستوى العدالة والبحث عن الإنصاف، ففي هذا استجلاب تلطفي آخر من الإيمان بالحقيقة المبتغاة محصلة.

ومن المصاديق القرآنية كذلك، هو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٣).

إذ (خاطب الله تعالى نبيه ﷺ فقال: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ هؤلاء الكفار ولم يصدقوك وردوا عليك بذلك ونسبوك إلى الكذب (فَقُلْ لِي عَمَلِي) أي إن كنت كاذباً فوباله علي (وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ) أي إن كنتم غير محقين فيما تردونه عليّ وتكذبوني، فلکم جزاء عملكم، فأنتم تبرؤن ممّا أعمل وأنا أبرأ من أعمالكم، وفائدة ذلك الأخبار بأنه لا يجازى أحد إلا على عمله، ولا يؤخذ أحد بجرم غيره كما قال تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر

(١) التستري: أبو محمد سهل بن عبد الله (ت ٤١٥ هـ): تفسير التستري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٢٣ هـ: ٤٨.

(٢) الطبرسي: تفسير جوامع الجامع: ١ / ٢٩٥.

(٣) سورة يونس: ٤١.

أخرى^(١)، والبراءة قطع العلقه التي توجب رفع المطالبة وذلك كالبراءة من الدين، والبراءة من العيب في البيع، ولم يقل النبي ﷺ هذا القول شكاً منه فيما يجازي الله الكفار والمؤمنين به من الثواب والعقاب؛ وإنما قال على وجه التلطف لخصمه وحسن العشرة، وأن لا يستقبلهم بما يكرهونه من الخطاب فربما كان داعياً لهم ذلك إلى الانقياد والنظر في قوله^(٢).

فالمساواة والتعفف يمثلان وجهاً من وجوه التلطف مضمونهما إلا تفرض نفسك على الآخر ولا تقسر المخاطب على شيء، والثمرة المرجوة من ذلك هي كسر الحاجز النفسي والعقلي بين النصّ والمتلقي وخلق جو يسوده الود والاحترام، سعياً لتحقيق الإنصاف.

ومن جنس ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾^(٣) فقول الرجل المؤمن كما وصفه النصّ الكريم (وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ) فـ (إنما قال هذا على وجه التلطف، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٤)، ومعناه: إن يك كاذباً فعلى نفسه وبال كذبه)^(٥).

ففي هذه الآية المباركة: (تلطف لهم في الدفع عنه فقال: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ﴾^(٦)، ولم يكن قوله هذا لشك منه، فإنه كان مؤمناً كما وصفه الله)^(٧)، فكأنه أراد بذلك تهدئة الموقف المتأزم والتصعيد الذي من

(١) سورة فاطر: ١٨.

(٢) الطوسي: التبيان في تفسير القرآن: ٥ / ٣٨١.

(٣) سورة غافر: ٢٨.

(٤) سورة سبأ: ٢٤.

(٥) الشيخ الطبرسي: ٨ / ٤٣٧.

(٦) سورة غافر: ٢٨.

(٧) الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الناشر: دار الكلم الطيب - دمشق، ط ١، ١٤١٤ هـ: ٤ / ٤٨٩.

شأنه إن يعقد الأمور أكثر، محاولاً امتصاص غضب القوم ومتلطفاً في مجازاة القوم وفي بصدد الدفاع عن نبي الله موسى عليه السلام، فهو لم يصرّح يقيناً بصدقه ولم يقل علانيةً ما يؤمن به، ليحمي نفسه أولاً ويجعلهم يقبلون منطوقه ثانياً فكأنه طرح فرضيةً محتملةً منطوقاً، فما الضير في احتمال كذبه إذ حينها سيتحمّل جزاء كذبه وحده، ولكن من العقل احتمال الفرضية الثانية في كونه صادقاً وعندها سيكون الضرر لا محالة.

وينفق وهذا المعنى ما جاء في بيان قوله تعالى: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿الأنعام﴾ أَلتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدَّنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿الأنعام﴾ ^(١)، فهنا (تلطف في إرشاد قومه بإيراده في معرض المناصحة لنفسه وإمحاء النصح حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه والمراد تقريرهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره) ^(٢).

فساوى بينه وبين قومه من خلال توجيه الخطاب لنفسه، فكأنه خاطبهم من خلال مخاطبة نفسه، من باب التلطف المبني على المساواة في القضايا العقلية والمنطقية التي يركن إليها الإنسان في هكذا مواقف وهو بهذا أراد النصح والهداية لقومه بخطاب العقل الذي لا يمكن أن يُرفض، لذا فإنه (ذكره على طريق الاستفهام فيه معنى وضوح الأمر، وذلك أنّ من أخبر من شيء فقال مثلاً لا أتخذ يصح من السامع أن يقول له لم لا تتخذ فيسأله عن السبب، فإذا قال: أتخذ يكون كلامه أنه مستغن عن بيان السبب الذي يطالب به عند الإخبار) ^(٣)، فهو (وجه حسنه ظاهر، لأنه يتضمن إعلام السامع على صورة لا تقتضي مواجهته بالخطاب المنكر، كأنك لم تعنه، وهو أعلى في محاسن الأخلاق وأقرب للقبول، وأدعى للتواضع، والكلام ممن هو رب العالمين نزل به بلغتهم، وتعليماً للذين يعقلون، قيل: ومنه قوله تعالى:

(١) سورة يس : ٢٢ / ٢٣.

(٢) الألوسي: أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي (ت ١٢٧٠هـ): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الناشر: دار إحياء التراث، بيروت، ٢٢ / ٢٢٦.

(٣) الرازي: محمد بن عمر التميمي (ت ٦٠٤هـ): التفسير الكبير، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط ٣، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م : ٢٦ / ٥٧.

﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١)، فحصل المقصود في قالب التلطف، وكان حق الحال من حيث الظاهر، لولاه أن يقال: (لا تسألون عما عملنا ولا نسأل عما تجرمون)^(٢).

ثالثاً:- داعي تخفيف المشقة في الأحكام وبتّ الاطمئنان في النفس .

دأب النصّ القرآني في إيصال أحكامه إلى المتلقي بصور متعددة وبطرق محكمة آخذاً بعين الاعتبار العوامل النفسية للمتلقي، بما من شأنه أن يراعي أحاسيسه، ويهون عليه، ويبث في نفسه الاطمئنان، بتخفيف ما يثقل تحمله أو يستعصى تقبله، مورداً كثيراً من الأحكام بكيفية راقية؛ لضمان تقبلها والاستعداد النفسي لها، لتتلاءم وإمكانات المتلقي.

ومن قبيل ما جاء في ذلك، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامٍ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

فقد افتتحت الآية بـ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾، وهو تلطف وتكريم للفئة المؤمنة، إذ ناداهم الله ﷻ بصفة الإيمان، وهي صفة تشريعية محببة إلى نفوسهم، وهو خطاب من شأنه أن يجعلهم أكثر استعداداً لتلقي الأمر الإلهي، ذلك أنه اشتمل على تودد الله ﷻ لإشعارهم بأنّ الأمر موجّه لفئة مختارة لا لعامة الناس، لتخفيف وطأة الأمر عليهم، إضافة إلى أنّ صياغة الأمر مبنياً للمجهول فيه إيماء بالرحمة، وباستعمال لفظة (كُتِبَ) بدلاً من (فُرِضَ) تلطفاً وتخفيفاً عليهم لما للصوم من شدة وتعيب، (يلازم حرمان النفوس من أعظم مشتبهياتها ومعظم ما تميل إليها وهو الأكل والشرب والجماع ، ولذلك فهو ثقيل على الطبع ، كريحه عند النفس ، يحتاج في توجيه حكمه

(١) سورة سبأ : ٢٥ .

(٢) الزركشي : البرهان في تفسير القرآن : ١١٣ / ٢ .

(٣) سورة البقرة: ١٨٣ – ١٨٤ .

إلى المخاطبين، وهم عامة الناس من المكلفين إلى تمهيد وتوطئة تطيب بها نفوسهم وتحن بسببها إلى قبوله وأخذه طباعهم^(١).

ولتهوين الأمر عليهم أيضاً، ما جاء قوله تعالى: (كما كتب على الذين من قبلكم) وفيه تسليية وتخفيف مبنيان على تلطفه ﷺ بهم، ذلك أن هذه المقارنة توحى بأن هذا الأمر قد مرّ على غيرهم بالتجربة نفسها، (أي لا ينبغي لكم أن تستثقلوه وتستوحشوا من تشريعه في حقم وكتابته عليكم فليس هذا الحكم بمقصور عليكم بل هو حكم مجعول في حق الأمم السابقة عليكم ولستم أنتم متفردين فيه)^(٢).

وأيضاً التلطف في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فجاء الاستثناء للمريض والمسافر لرفع المشقة عن المكلفين، وفيه تلطف تشريعي رحيم بظروف عباده، فذكر العذر أولاً (المرض والسفر) قبل ذكر التعويض بالصيام في أيام أخر، فيه رفق ولطف، إذ يُشعر المخاطب بأن الشريعة تراعي حاله الخاص قبل تكليفه بشيء آخر.

والتلطف الآخر في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ فمن لا يستطيع الصيام مثل: (الشيخ الكبير أو من به مرض مزمن) جعل لهم فدية ميسورة، بديلاً من الصيام، وهو أسلوب رحيم في التشريع المراعي لأحوال الناس المختلفة.

ومن آيات الأحكام الأخرى، ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَيْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضُنَّ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾^(٣).

الآية القرآنية بصدد بيان حكم النساء اللاتي لا يمكن أن يتحقق في حقهن عدّة الحيض، فجعل الله لهن بديلاً عنها بالعدة بالأشهر، رفعا للحرص وتيسيراً عليهن، فـ (المراد باللّائي ييسن من الحيض من انقطع حيضها لكبر سنّها، والمراد باللّائي لم يحضن من لم تر دم الحيض بعد لصغر سنّها، وكلّ من هاتين عدتها ثلاثة أشهر إذا

(١) الطباطبائي: الميزان: ٦/٢.

(٢) الطباطبائي: الميزان: ٥/٢.

(٣) سورة الطلاق: ٤

طلقت بعد الدخول^(١)، فاستعمل لفظة (بيئن) والتي تحمل معنىً طبيعياً مرتبطاً بالعمر، متجنباً أي تعبير آخر قد يُشعر المرأة بالدونية أو النقص، لذا عبّر النص القرآني عن هاتين الحالتين بتعبير غير مباشر، وهو من أدب الخطاب القرآني وحيائه في عرض الأحكام.

أما قوله تعالى: ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ فهو تنبيه على أنّ الحكم إنّما يُحتاج إليه عند التباس الأمور عليهم، فجعل ﷺ لهم بديلاً وعلاجاً حين يرد (الشكّ في حالها، وأنّها هل بلغت سن اليأس؟) أما المراد باللأئي لم يحضن عندهم فالشابات اللأئي علم أنّهن تجاوزن سن الصغر ولم يبلغن سن اليأس، ولكن انقطع عنهن الحيض لسبب آخر غير اليأس والصغر، وكل من هاتين عدتها ثلاثة أشهر^(٢)، فاستعمل (إِنْ ارْتَبْتُمْ) بدلاً من استعمال ألفاظ خشنّة، مثل: (إِنْ جهلتم)، وعليه فقد راعى النص القرآني المرأة، فلم تصرّح الآية بجفاف الرحم أو العجز، بل عبرت عن ذلك كلّه بتعبير آخر غير جارح لمشاعر النساء ومراعياً للحياء والذوق.

ومن الآيات التي تضمّنت هذا المعنى ما جاء في قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَاِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٣).

فالآية بصدد بيان حدود الطلاق وضوابطه التي ينبغي للمؤمن إتباعها ففي (تقييد الإمساك بالمعروف والتسريح بالإحسان من لطيف العناية ما لا يخفى، فإنّ الإمساك والرد إلى حباله الزوجية ربّما كان للإضرار بها وهو منكر غير معروف، كمن يطلق امرأته ثم يخليها حتى تبلغ أجلها فيرجع إليها ثم يطلق ثم يرجع كذلك، يريد بذلك إيذائها والإضرار بها وهو إضرار مُنكر غير معروف في هذه الشريعة منهي عنه، بل الإمساك الذي يجوزه الشرع أنّ يرجع إليها بنوع من أنواع الالتيام، ويتم

(١) محمد جواد مغنّية: التفسير الكاشف: ٣٥٢/٧

(٢) م. ن: ٣٥٢/٧.

(٣) سورة البقرة: ٢٢٩.

به الأنس وسكون النفس الذي جعله الله تعالى بين الرجل والمرأة، وكذلك التسريح ربما كان على وجه منكر غير معروف يعمل فيه عوامل السخط والغضب، ويتصوّر بصورة الانتقام، والذي تجوّزه هذه الشريعة أن يكون تسريحاً بنوع يتعارفه الناس ولا ينكره الشرع، وهو التسريح بالمعروف^(١)، فأوضح النص القرآني ما شأنه أن يجعل الطلاق بداية لكلا الزوجين لا نهاية كما تتصوره العقول البالية، فأما إمساك بمعروف وهو إعطاء الفرصة للرجوع عن الطلاق والبدء بحياة زوجية جديدة مبنية على المعروف أو إن يكون (التسريح بإحسان أن يؤدي للمرأة حقوقها بعد الانفصال النهائي، ولا يسعى الإضرار بها عملاً وقولاً بأن يعيها في غيابها أو يتهمها بكلمات رخيصة ويسقط شخصيتها وسمعتها أمام الناس ، وبذلك يحرّمها من إمكانية الزواج المجدد، فكما أن الصلح والرجوع إلى الزوجة يجب أن يكون بالمعروف والإحسان والمودة، فكذلك الانفصال النهائي يجب أن يكون مشفوعاً بالإحسان أيضاً)^(٢).

وعند التأمل في النصّ سنجد التلطف واضحاً في استعمال لفظة (تسريح) في بيان ماهية الطلاق، فلم يعبر عنه بـ(الفراق أو الانفصال النهائي)؛ بل بالتسريح في إشارة إلى ضرورة أن يكون الأمر برمته مبنياً على الرفق يسوده الاحترام عند الانفصال، فهو بمثابة بداية جديدة لكلّ منهما، فلا يسعى أيّ منهما إلى إثارة المشاكل أو تبادل الاتهامات أو التسيقظ، فعبر النصّ بذلك ليسري الانفصال بكل انسيابية ويُسر، من دون عداوة أو بغضاء.

(١) الطباطبائي : تفسير الميزان : ٢ / ٢٣٣

(٢) ناصر مكارم الشيرازي: الأمل في تفسير كتاب الله المنزل : ٢ / ١٦٠

المبحث الثاني

الدواعي الأخلاقية والتربوية

تكمن أهمية هذا المبحث في كونه يكشف عن البعد الأخلاقي العميق في الخطاب الإلهي، ففي طيات النصّ القرآني آيات تعالج أعقد القضايا العقدية والتشريعية، ولكن بلغة تستدرج القلوب وتلين النفوس بأسلوب أخلاقي وتربوي كوسيلة لإصلاح المجتمعات وتربية الفرد على الاستجابة الطوعية لا القهرية إلى الهدى.

أولاً: الاحترام والتأدب

يتجلى في الخطاب القرآني بُعدٌ رفيعٌ من أبعاد التلطف يتمثل في مبدأ الإحترام المتبادل والتأدب، التي يُستشفُّ منه رُقيّاً في الخطاب ولياقة في الاستعمال، فنجد كيف أنّ الله ﷻ قد تَلَطَّفَ مع أنبيائه واصطفائهم بـخطاب كريم، وتوقيرهم في موارد عدّة من قبيل التهوين أو التخفيف عليهم، كما يعكس أدب الأنبياء في مخاطبتهم الله تعالى بما يليق بجلاله، من خلال بعض المواقف التي أوجبت ذلك تنزيهاً له ﷻ عن كلّ ما لا يليق إسناده له، أو أن يُعزى إليه أيّ عمل لا يليق بألوهيته سبحانه، فلا يأتوا على ذكره في موضوعات المرض أو البلاء فلا يُعزى إليه إلا كلّ خير، كما ويجسد في الوقت نفسه رقيّ تعاملهم مع عامة الناس بلطف القول والمعاملة الحسنة، كلّ ذلك سنلمسه في الآيات القرآنية الكريمة التي سنعرض لها بوصفها مصاديق، فمن جنس احترامه عز وجل لأنبيائه، ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْمَلُ ﴿٣٠﴾ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٣١﴾ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾^(١)، إذ يبدو من خلال تتبع أرباب التفسير أنّ بعض الآراء التفسيرية التي وردت في بيان هذه الآية هي أنّ في هذه الآية بما لا يليق بالنبي ﷺ، وذلك بدعوى أنّ نداءه بـ(المزمل) جاءت (تهجيناً لما كان عليه لأنّه كان نائماً أو مرتعداً لما دُهِشَ ابتداء الوحي فتزمل)^(٢)، معللين ذلك بدهشته من نزول الوحي، ومنها ما ذكره الرازي في ذلك عدة آراء جاء منها (أنّه

(١) سورة المزمل: ١-٣.

(٢) السيوري: كنز العرفان في فقه القرآن: ١ / ١٤٩.

صلى الله عليه [وآله] وسلم كان نائماً بالليل متمزلاً في قطيفة فنودي بما يهجن تلك الحالة، وقيل: يا أيها النائم المتمزمل بثوبه قم واشتغل بالعبودية وقول آخر: أنه كان متمزلاً في مرط لخديجة مستأنساً بها فقيل له: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْمَلُ ﴿١﴾ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ كأنه قيل: اترك نصيب النفس واشتغل بالعبودية^(١)، وهي توجيهات مرفوضة فتهجينه (خطأ وسوء أدب، ومن اعتبر عادة خطاب الله تعالى له في الإكرام والاحترام علم بطلان ما تخيَّله الزمخشري، فقد قال العلماء: إنه لم يخاطب باسمه نداء، وإن ذلك من خصائصه دون سائر الرسل إكراماً له وتشريفاً)^(٢).

وتباينت الآراء التفسيرية في ذلك، فقيل: أنه (سمي به النبي ﷺ تهجيناً لما كان عليه، فإنه كان نائماً، أو مرتعداً ممّا دهشه من بدء الوحي، متمزلاً في قطيفة، وذلك قبل التبليغ، ولما بلغ خوطب بالنبي والرسول، وقيل: دخل على خديجة، وقد جنث فرقاً وخوفاً أول ما أتاه جبرئيل على صورته الأصلية، وبوادره ترعد، فقال: زملوني زملوني، وحسب أنه عرض له، فبينما هو على ذلك إذ ناداه جبرئيل: يا أيها المزمّل، أو تحسناً له)^(٣)، ومنهم من أوعز ذلك لتكاسله أو ثقافله فقيل: (سمي به النبي ﷺ تهجيناً لما كان عليه، لأنه كان نائماً ومرتعداً، ممّا دهشه بدء الوحي متمزلاً في قطيفة، أو تحسناً له، إذ روي: أنه يصلي متلقفاً ببقية مرط مفروش على عائشة فنزل، أو تشبيهاً له في ثقافله بالمتزمل، لأنه لم يتمرن بعد في قيام الليل، أو من تزمل الزمّل: إذا حمّل الحمل، أي الذي حمّل أعباء النبوة)^(٤).

وهذه الآراء لا تنهض الى مرتبة القبول، ولا تقارب حدّ التصديق، وهو رأي مرفوض لأنه يتفق ومقام النبي ﷺ ولا ينسجم وخطاب الله مع أنبيائه (عليهم السلام)

(١) يُنظر: الرازي: التفسير الكبير: ٣٠ / ١٧١.

(٢) ابن المنير الإسكندري: ناصر الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨٣ هـ): الإنصاف فيما تضمنه الكشاف، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م: ٤ / ١٧٤.

(٣) الكاشاني: زبدة التفاسير: ٧ / ٣٢٠.

(٤) المشهدي: تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب: ١٣ / ٤٩٦.

فكيف وهو يخاطب حبيبه وخاتم أنبيائه، كيف يخاطبه بما فيه انتقاص وعليه فإن ما ورد من تفسير «يا أيها المزمّل» بمعنى التهجين، ما هو إلا فهم مخطوء لا صحة له، لأن ذلك من شأنه المساس بشخص النبي محمد ﷺ، على حين أنّ كل أنبياء الله تعالى هم محطّ احترام وتبجيل منه ﷺ، فلم يأت القرآن ولو في موضع واحد على التقليل من احترامهم، وعليه فإن ما سيق من جنس هذا الكلام في التفاسير، يُعدُّ ترجيحاً من غير مرجح لا يتناسب بحال من الأحوال ومنزلته ﷺ، بل ولا ترتقي للمناقشة، ومن أبلغ ما قيل في توضيح معنى المزمّل أنّه (يراد تَلَفُّه بأمر ظاهرية وتعلّقه بعلائق وأفكار قلبية وتحمله بأحمال باطنية ثقيلة، فيؤمر بالقيام لله والتوجه الخالص إليه وطرح قاطبة العلائق المحيطة، ثمّ ترتيل القرآن أي جعله أمام مشيه وسلوكه والاتباع عمّا يوحى إليه بالقاطعية والانقطاع الكامل عن العلل الظاهرية والأفكار الشخصية)^(١)، وفي هذا مدح للرسول ﷺ بأنّه قادر على تحمل المسؤولية، وفيه تلطف في التعبير من حيث إنّه تكليف له ﷺ بلفظ واحد شمل كل المسؤوليات وكأنّه متلفف بها فهو قادر على إنجازها، فالعنى يا أيها الذي زمّل أمراً عظيماً وحمله والزمّل الحمل وازدمله احتمله... فإنّ العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب سمّوه باسم مشتقّ من حالته التي هو عليها كقول النبي ﷺ لعليّ حين وقعت معاتبة بينه وبين فاطمة فأتاه ﷺ وعليّ نائم قد لصق بجبينه التراب فقال له: قم يا أبا تراب، ملاطفة له)^(٢)،

وقد جاءت المصاديق واضحة على لسان الأنبياء عليهم السلام تروي لنا كيفية تلطفهم وتأديبهم مع الله ﷻ، كقوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٤).

(١) حسن المصطفوي : التحقيق في كلمات القرآن الكريم : ٤ / ٣٤٩.

(٢) مير علي الحائري الطهراني: تفسير مقتنيات الدرر : ١١ / ٢٧٦.

(٣) سورة الأنبياء : ٨٩.

(٤) سورة الأنبياء : ٨٣.

إذ إنّ هذه الآيات المباركة أمثلة حيّة لأساليب المخاطبة التي اتبعها الأنبياء عليهم السلام في طلب حاجاتهم يروي لنا النصّ القرآني دعاء الأنبياء لله ﷻ ففي خطاب زكريا لربه في طلبه للذرية حيث لم يصرح ﷻ بذلك بشكل مباشر بل تلتف في سؤال الله تعالى بأن لا يذره فرداً مع علم الله ﷻ بحاله فوصف الحال يُغني عن السؤال، ثمّ أضاف قائلاً بأنّ الله ﷻ هو خير الوارثين حقيقة.

ففي مناجاة النبي أيوب ﷻ لربّ العالمين بقوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ متلطفاً بذلك عن ذكر أو تلميح لا من قريب ولا بعيد إلاّ أنّه ابتلاء منه جل وعلا؛ بل تلتف وتأدب بأنّ ذكر السوء مبنياً للمجهول، ذلك لعلمه إنّ البلاء من الله ﷻ ما هو إلاّ رحمة ولفظ من لدنه، ثمّ يخاطب الله قائلاً وأنت أرحم الراحمين متوسلاً إياه بهذه الصفة التي تغني عن السؤال بشكل مباشر لعلم الله بسؤله وطلبته. يقول مغنية في تفسيره الكاشف: (قال: مسّني، ولم يقل: تفاقم وتراكم كيلا تشعر شكواه بالضجر وعدم الصبر، فاستجاب سبحانه إلى شكواه، وكشف بلواه، وأعادته إلى أحسن مما كان)^(١)، فتنزيهه لله ﷻ وجّه من وجوه التلطف في كيفية مخاطبة الخالق جل وعلا.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(٢).

إذ نلاحظ أنّ معنى (قوله: ﴿ابيضت عيناه﴾) فالابيضاض انقلاب الشيء إلى حال البياض، والمعنى أنّه عمي فلم يبصر شيئاً)^(٣)، فسبب بياض عينيه كان (لكثرة بكائه (مِنَ الْحُزْنِ) والغمّ الشديد، فكانّ العبرة محقت سواد العين، وقلبتّه إلى بياض كدر، وقيل: ضعف بصره، وكان لا يرى إلاّ رؤية ضعيفة، وقيل: إنّ عمي ستّ سنين، وروي: ما جفتّ عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاماً)^(٤).

(١) محمد جواد مغنية: التفسير الكاشف: ٥ / ٢٩٥.

(٢) سورة يوسف: ٨٤.

(٣) الطوسي: التبيان في تفسير القرآن: ٦ / ١٨٢.

(٤) الكاشاني: زبدة التفاسير: ٣ / ٤٠٣.

وعند التأمل في النص، نجد أنّ استعمال (ابيضت عيناه) بدلاً من (أصيب بالعمى) أو (فقد بصره) أو (أصبح ضريراً) كان بداعي التلطف بما يتناسب ومقام يعقوب عليه السلام ومنزلته عند الله ﷻ فلم يأتِ النص على أية لفظة جارحة أو غير محببة تلطفاً به عليه السلام وبياناً لما قاساه وعاناه لفقده ليوسف عليه السلام.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

حيث تُبين الآية الكريمة أنّه (لما دخل إخوة يوسف على يوسف (آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ) أي: شقيقه وهو (بنيامين) الذي أمرهم بالإتيان به، وضمّه إليه، واختصّه من بين إخوته، وأخبره بحقيقة الحال، قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ) أي: لا تحزن (بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فإن العاقبة خير لنا، ثمّ أخبره بما يريد أن يصنع ويتحيل لبقائه عنده إلى أن ينتهي الأمر)^(٢)، وعند إمعان النظر في الآية الكريمة نجد أنّ يوسف عليه السلام قد تلطف بعدم ذكر ما فعله أخوته، بل تلطف قائلاً (بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) عوضاً عن بيان ما فعلوه صراحة وهو من أدب نبي الله ﷻ فبالرغم من شناعة فعلتهم تلك وسوء عملهم وما ترتب عليه من أذى ليوسف ويعقوب عليه السلام لم يأتِ على بيانها وتفصيلها احتراماً وتأدباً منه لأخوته من أن ينسب إليهم ما من شأنه إن يعابوا عليه مع أنهم يستحقون فليس الموضوع عدم استحقاقهم لذلك الفعل بل كان لتأدبه عليه السلام وحفاظه على رباط الأخوة وقدسية هذه العلاقة، وامكننا إن نستشف من هذا النصّ كثير العبر والدروس التي تكف لنا بشكل أو بآخر إلى مدى أهمية العلاقة الأخوية وخير مثال ما لمسناه في هذه القصة، وما فعله أخوته به عليه السلام وكيفية تعامله معهم في قبال ما فعلوه.

(١) سورة يوسف: ٦٩.

(٢) السعدي: عبد الرحمن بن ناصر (ت ١٣٧٦هـ): تيسير الكريم الرحمن في كلام المنان، مطبعة بيروت - مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م: ٤٠٢.

ثانياً: مقابلة الإساءة بالإحسان

من أرقى أوجه التلطف وأعلاها مرتبة هي مقابلة السيئة بالحسنة ونجد هذا جلياً وواضحاً في النصّ القرآني وهو يضع قاعدة إنسانية غاية في اللطف والسلم ونبذ القسوة وعدم الرد على إساءة الآخر، بل ينبغي أن تقابل في بعض الموارد بالإحسان فلربما كان لها بالغ الأثر في النفوس التي تمتلك بعض القيم الإنسانية وإن انحرفت في مورد أو آخر فهذا الإحسان سيؤقظها من الغفلة بغية إرجاعها إلى جادة الصواب.

ويتبين هذا بجلاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنَّ لِحَدِيثِ إِسْرَائِيلَ إِذْ قَالُوا ذُرُّهُمْ عَلَيْهِمْ حَصَصَتْ لَهُمْ أَصْحَابُ الْمَقَابِلِ أَوَّحُنَا أَوْحَاءَ وَتَوَخَّاهُمْ أَحْقَابَ الْبِلَادِ إِذْ يَبْتَغُونَ حَرْبَهُمُ الْمُؤْمِنِينَ فَانذَرْنَاهُمْ أَنْ يَأْتِيَهُم بَأْسٌ ظَاهِرٌ فَرَارَ الْبِغْيَاءُ لِحَدِيثِهِمْ ذُرٌّ يُرَدُّ بِغْيَتِهِمْ بِالْحَرْبِ وَأَنْتَ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاعْتَدْنَا الْكُفْرَانَ سَخَرْتُمْ لَهُمْ آلِهَهُمْ فَالْحَقُّ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ (١).

عند التأمل في النصّ وهو يسرد لنا ما جاء في الحوار الذي دار بين إبراهيم عليه السلام وأبيه، فابتدأ أبوه بتوجيه كلام قاسي اللهجة مؤكداً على إبراهيم ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كُنَّ لِحَدِيثِ إِسْرَائِيلَ إِذْ قَالُوا ذُرُّهُمْ عَلَيْهِمْ حَصَصَتْ لَهُمْ أَصْحَابُ الْمَقَابِلِ أَوَّحُنَا أَوْحَاءَ وَتَوَخَّاهُمْ أَحْقَابَ الْبِلَادِ إِذْ يَبْتَغُونَ حَرْبَهُمُ الْمُؤْمِنِينَ فَانذَرْنَاهُمْ أَنْ يَأْتِيَهُم بَأْسٌ ظَاهِرٌ فَرَارَ الْبِغْيَاءُ لِحَدِيثِهِمْ ذُرٌّ يُرَدُّ بِغْيَتِهِمْ بِالْحَرْبِ وَأَنْتَ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاعْتَدْنَا الْكُفْرَانَ سَخَرْتُمْ لَهُمْ آلِهَهُمْ فَالْحَقُّ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ بقوله: (يا إبراهيم) وفي ندائه هذا تحذير وتخويف لجذب انتباهه إلى خطورة ما يدعو له، فلما وجده ثابتاً على موقفه وواثقاً من معتقده، انتقل إلى تهديده بشكل مباشر وبلهجة شديدة لترهيبه وردعه، ومحذراً إياه التحذير الأخير قائلاً: ﴿لَنْ يَنْفَعَكَ إِسْرَائِيلَ إِذْ يَدْعُوا أَنْ جِئْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنْتَ مُشْرِكٌ قَدْ جِئْنَا بِعَبَسَافٍ مِنْ سَبْعِ الْمُنَادِيَاتِ إِذْ يَبْتَغِيْنَ حَرْبَ الْبَنِي إِسْرَائِيلَ فَأُوقَصُوا بِالْحَدِيدِ﴾ (٢).
 لا رجعتك وأهجرني ملياً﴾ أي إن لم تنتهي عن هذا الأمر فمصيرك الرجم والنفي لا محالة، وحينما سمع إبراهيم عليه السلام مقالة أبيه لم يخاطبه بنفس اللهجة ولم يتفاعل مع قسوته أو يردّه بعبارة خشنة، بل فلم يقل له (افعل ما شئت فأننا على حقٍ وأنت على باطل)، بل على العكس من ذلك تماماً؛ إذ نراه قد تلطف مع أبيه وأجابه إجابة العارف والمتيقن بمجريات الأمور، لا تحركه دوافعه النفسية لمواجهة الإساءة بقسوة أو مخاشنة في أسلوبه، بل أجابه بثبات وقوة وإيمان وبكل احترام وتلطف قائلاً: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ (٣) سلام توديع وهجر ومتاركة، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾

(١) سورة مريم : ٤٦ - ٤٧

ويمكن أن يكون: دعا له بالسلامة استمالة له ألا ترى أنه وعده بالاستغفار وقال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾^(١).

فقد حملت عبارته "سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا" دلالة التلطف في الخطاب ضمن موقف دعوي شديد، فكانت صيغة الاستقبال في (سَأَسْتَغْفِرُ) مقرونة بـ (رَبِّي) دلالة على قربته من الله ﷻ ليوحى بأمل ضمني في القبول فيما لو رفق قلب أبيه للإيمان، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الخطاب الدعوي من حسن بيان ورفق (فانظر أيها الإنسان كيف راعى إبراهيم قضاء حق القرابة والإرشاد إلى الدين الذي من أعظم أنواع الإحسان وأورد كلامه باللفظ ومراعاة حسن الأدب، وما أورد معرفه بالخشونة والغلظة حتى يصير ذلك سبباً لإعراض المستمع فيكون ذلك في الحقيقة سعياً في الإغواء فقد روي أن النبي ﷺ قال: أوحى الله إلى إبراهيم أنك خليلي فحسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار فإن كلمتي سبقت لمن حسن خلقه أن أظله تحت عرشي وأن أسكنه حظيرة قدسي وأذنيه من جواربي)^(٢).

ومن شواهد ذلك، ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾^(٣).

في معرض إجابة هود عليه السلام، وكذلك كانت (إجابة الأنبياء عليهم السلام- من نسبتهم إلى الضلال والسفاهة، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء، وترك المقابلة بما قالوا لهم، مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفهم - بأدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله عز وجل ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء؟ وكيف يغضون عنهم، ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم؟

(١) مير علي الحائري الطهراني : تفسير مقتنيات الدرر: ٣٥ / ٧.

(٢) م.ن: ٣٥/٧.

(٣) سورة الأعراف: ٦٥-٦٧.

والحاصل: أنّ هذا تعليم من الله أنّ لا يُقابل السفهاء بالكلام القبيح، ولكن يقتصر الإنسان على نفي ما أضيف إليه عن النفس^(١).

فلم يُجبههم بأنكم (لَسْتُمْ عَلَى حَقٍّ) أو (أَنْتُمْ السُّفَهَاءُ لا أنا) بالرغم من اتهامهم له بسفاهة وخفة العقل، فـ(خفة العقل كانت تعني في نظرهم أنّ ينهض أحد ضد تقاليد بيئته مهما كانت تلكم التقاليد خاوية باطلة، ويخاطر حتى بحياته في هذا السبيل، لقد كانت السفاهة في نظرهم ومنطقهم هي أنّ لا يوافق المرء على تقاليد مجتمعه وسُننه البالية، بل يثور على تلك السنن والتقاليد، ويستقبل برحابة صدر كلُّ ما تخبئه له تلك الثورة والمجابهة ولكن هودا - وهو يتحلى بالوقار والامتانة التي يتحلى بها الأنبياء والهداة الصادقون الطاهرون - من دون أنّ ينتابه غضب، أو تعثره حالة يأس قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين^(٢)، وفي قوله: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دليل آخر يقتضي معه تكذيب ادعائهم.

وعند التأمل في النصّ يتّضح لنا أنّ هوداً عليه السلام لم يواجههم بقوة ولم يدافع عن نفسه كما هو متوقع منه، بل وعلى عكس كل التوقعات، كان دفاعه بمنتهى الهدوء لا باتهامهم كما اتهموه؛ بل نفى عن نفسه السفاهة أولاً بكل أدب وروية، ومن ثمّ انتقل إلى تعزيز موقفه وبيان مهمته التي كُلف بها وهي أنّه رسول ربّ العالمين، وهو بذلك يكون قد أورد دليلاً لا شكّ فيه وهو أنّ (الرسالة من قبله تعالى تقتضي الاتصاف بغاية الرشد والصدق، ولم يصرح عليه السلام بنفي الكذب اكتفاءً بما في حيز الاستدراك)^(٣)، وهي طريقة حكيمة في الإجابة جاءت من باب التلطف بهم فركّز على جوهر القضية بدلاً من التصدي لهم بخشونة أو الدخول معهم في جدال وشد وجذب، فكانت إجابته للقوم هادئة بعيدة عن التشنج أو رد الإساءة التي جوبه بها، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤).

(١) الكاشاني: زبدة التفاسير: ٢ / ٥٤٤.

(٢) ناصر مكارم الشيرازي: الأمل في تفسير كتاب الله المنزل: ٥ / ٩٣.

(٣) الألوسي: روح المعاني: ٨ / ١٥٦.

(٤) سورة الأعراف: ٦٠ / ٦١.

عند التأمل في الآية الكريمة التي جاءت على ذكر خطاب القوم لنوح لنجد اللهجة التي خاطبوا بها نبي الله ﷺ ليخبرنا النص بذلك، إذ ﴿قال الملا من قومه﴾ أيّ الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم ﴿إنّا لنراك في ضلال مبين﴾ أيّ في دعوتك إيّانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا آباءنا عليها، وهكذا حال الفجار إنّما يرون الأبرار في ضلالة^(١)، فلنشده إنغماسهم بالضلال تصورا بأنّ ضلالهم هدى وأنّ ما جاء به نبي الله ﷺ هو الضال، بل إنّه يمثل الضلال المبين، في قبال عبادتهم الأصنام التي وجدوا آباءهم إيّاها يعبدون، والتي يشير إليها النصّ القرآني في أكثر من موضع^(٢)، بوصفها إحدى الدواعي التي يتمسك بها أهل الضلالة في كلّ العصور وهو التقليد الأعمى الموروث عن آبائهم وهو ديدن كلّ عقيدة فاسدة والحجة المعهودة في كلّ الأزمنة في عدم الخروج عن المعتقدات السابقة وتقديسها واعتبارها مما لا يمكن إعادة التفكير فيه ومن المسلمات التي لا ينبغي مناقشتها.

ومع اتهاماتهم لنبي الله ﷺ والطعن فيه، ما كان منه إلّا أن يجيبهم فـ (يردّ نوح على قومه بأسلوب عف مهذب، فينفي عن نفسه الضلالة، ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومصدرها فيقول - كما حكى القرآن عنه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ أيّ: قال نوح لقومه مستميلا لقلوبهم: يا قوم ليس بي أدنى شيء مما يسمى بالضلال فضلاً عن الضلال المبين الذي رमितموني به، فقد نفى الضلال عن نفسه الكريمة على أبلغ وجه، لأنّ التاء في - ضلالة - للمرة الواحدة منه، ونفى الأدنى أبلغ من نفى الأعلى، والمقام يقتضى ذلك، لأنّهم لما بالغوا في رميه بالضلال المبين، ردّ عليهم بما يبرئه من أيّ لون من ألوانه، وفي تقديم الظرف (بي) تعريض بأنّهم هم في ضلال واضح^(٣).

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم : ٢ / ٢٣٣.

(٢) ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِتِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ سورة يونس : ٧٨، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ سورة المائدة : ١٠٤.

(٣) طنطاوي: التفسير الوسيط للقرآن الكريم: ٢٩٨/٥.

فتلطف بالرد على قومه وقابل إساءتهم له بإحسان إليهم برده الجميل، لذا (لم) يقل: أنتم الضلال، كما جرت عادتنا، قوله تعالى: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ النصح: هو أن يريد لغيره من الخير مثل ما يريد لنفسه، ومعناه: أرشدكم أنني أريد لنفسي ما أريد لكم^(١)، فقد تلطف بهم بالتبليغ لا الإلزام وفيه تواضع ولين، إذ لم يلزمهم أو يأمرهم؛ بل أظهر نفسه بصفة المبلغ والمستأمن على الرسالة، لا المتسلط الذي يفرض نفسه عليهم، ليزيل عنهم الأحساس بالإكراه أو القوة، وإنما كناصح يريد الخير لهم، فهو تلطف يُظهر الجانب العاطفي والوجداني، ليكون أكثر قرباً من قلوبهم.

فجمع بين البلاغ العقلي بصفته مستأماً لرسالة ربه وناقلاً عنه ﷺ والبلاغ الوجداني المنبثق من حرصه عليهم ونصحه لهم مخلصاً، ساعياً لاستمالة عقولهم وقلوبهم في آن واحد، كما أن استعمال صيغة المضارع في (أَبْلَغُكُمْ) هو تعبير يفيد الاستمرارية، كأنه يؤكد على استمراره في التبليغ على الرغم من صدودهم، ليثبت لنا دون أدنى شك بأنّ الداعية الحقيقي من يُقدم دعوته بقلب النصح وبأسلوب لين ولطف، وهو تلطف تضمّن توازناً بليغاً بين أداء التكليف الإلهي بروح المسؤولية، وبين تقديم الدعوة بكل تواضع، وهذا هو حال أنبياء الله ﷺ في تعاملهم وتلطفهم مع القوم الضالين، ذلك أنّ هدفهم الهداية والصلاح.

ثالثاً: التعفف من ذكر المشمئزات ومراعاة النفس الإنسانية

أسّس النصّ القرآني مفردات وألفاظ جديدة بعضها لم تعهدها اللغة العربية بهذا المعنى من قبل، إذ أبدل القرآن الكريم الكثير من المفردات من خلال الاستعاضة بألفاظ ومصاديق كلامية جديدة تنسجم ورقية، ولياقته، واحترامه للنفس الإنسانية، بغية تخفيف ما تنطوي عليه هذه المفردات من معانٍ قد تخذش حياء المتلقي أو أن تكون مستهجنة، فأبدلها عنها بما يليق به بوصفه نصّاً مقدّساً مراعيّاً للجوانب الاجتماعية والنفسية والثقافية على مر الأزمنة.

(١) السمعاني: تفسير السمعاني: ٢ / ١٩١.

ومن ذلك مثلاً، ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا﴾^(١).

فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ فالغائط هو (كناية عن قضاء الحاجة، قيل: إن (أو) ههنا بمعنى الواو كقوله سبحانه (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) بمعنى وجاء أحد منكم من الغائط)^(٢)، إذ إن: (المجيئ من الغائط، أيّ الموضع المطمئن من الأرض، كنى بذلك عن الحدث: أيّ الخارج من دبر الإنسان من العذرة، وسمي شرعاً غائطاً تسمية الحال باسم محله، ومن للتبيين: أيّ جاء موضعاً من الغائط، وعند الأخفش هي زائدة لتجويزه الزيادة في الإثبات فلا حاجة عنده إلى تقدير المفعول والمعنى: إن كنتم محدثين بأحد الأحداث أيّ البول والغائط والريح، وأو هنا بمعنى الواو)^(٣)، لذا فقد كُني عن الحدث بالمجيئ من الغائط من باب التلطف وبداعي التعفف عن ذكر المشتملات والحفاظ على الذوق، فنأى عن ذكر الحدث واستعاض بالغائط عوضاً عن إيراد ذلك صراحة.

أمّا ﴿لامستم النساء﴾ فقد اختلف في معنى اللّمس، وفي المراد منه، فقد تباينت أقوال المفسرون في ذلك فذهب بعضهم إلى أنّ المراد منه مس المرأة وذهب آخرون إلى أنّ المقصود منه الجماع، لذا انصرف المفسرون على قولين (أحدهما: أنّ المراد به الجماع، وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة، وقول أبي حنيفة رضي الله عنه، لأنّ اللّمس باليد لا ينقض الطهارة، والثاني: أنّ المراد باللمس ههنا التقاء البشريتين، سواء كان بجماع أو غيره وهو قول ابن مسعود وابن عمر والشعبي والنخعي وقول الشافعي رضي الله عنه)^(٤)، ولكن المعنى الأوضح أنّ المقصود

(١) سورة النساء: ٤٣.

(٢) الطبرسي: تفسير مجمع البيان: ٩٣ / ٣.

(٣) السيوري: تفسير كنز العرفان في فقه القرآن: ٢٤ / ١.

(٤) الرازي: التفسير الكبير: ١١٢ / ١٠.

باللمس هو الجماع، فجاء تعليل ذلك أنّ (المراد بقوله ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ الجماع، ليكون بياناً لحكم الجنب عند عدم الماء، واللمس، واللامسة، معناهما واحد، لأنّه لا يلمسها إلاّ وهي تلمسه، ويروى أنّ العرب والموالي اختلفوا فيه، فقالت الموالي: المراد به الجماع، وقال العرب: المراد به مس المرأة، فارتفعت أصواتهم إلى ابن عباس، فقال: غلب الموالي: المراد به الجماع، وسمي الجماع لمساً، لأنّ به يتوصل إلى الجماع، كما يسمى المطر سماء^(١)، وقد ألمح غير واحد من المفسرين إلى هذا المعنى أيضاً.

وعليه فقد ورد التلطف جلياً في النصّ حينما أبدل عملية الجماع بلفظة مشتقة من اللامسة، تأسيساً لاستعمالها بدلاً من لفظة الجماع المتعارفة، مراعاة للنفس البشرية وتعففاً عن ذكرها صراحة بالإضافة إلى الحفاظ على خصوصية هذه العملية لكي لا تكون لفظة مبتذلة مفضوحة، وأيضاً لترسيخ القيم الأخلاقية، ونشر ثقافة الحياء وجعلها الثقافة السائدة.

ومن جنس ذلك أيضاً، ما جاء في قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤفَكُونَ﴾^(٢).

فقوله: ﴿كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ هذا تصريح بيعهما عما نسب إليهما، لأنّ من احتاج إلى الغذاء وما يتبعه من الهضم والنفذ لم يكن إلاّ جسماً مؤلفاً محدثاً، وقيل: إنّ كناية عن قضاء الحاجة فكأنه ذكر الأكل وقصد بذلك الإخبار عن عاقبته^(٣).

فعوضاً عن التصريح عن قضاء الحاجة تلطف النصّ القرآني ونأى عن ذكر ذلك، فلم يورد ذلك صراحة، لأنّه مما تشمئز منه النفس، وليس بتعبير لائق بهكذا نص مقدس فاختر عبارة ﴿كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ للدلالة عن عاقبة هذا الفعل، ف(قوله: ﴿يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ فيه احتجاج للنصارى، لأنّ من ولدته النساء وكان يأكل الطعام لا يكون إلهاً للعباد، لأنّ سبيله سبيلهم في الحاجة إلى الصانع المدبر، لأنّ من

(١) الطبرسي: تفسير مجمع البيان: ٣ / ٩٤.

(٢) سورة المائدة: ٧٥.

(٣) الطبرسي: جوامع الجامع: ١ / ٥٢٢.

فيه علامة الحدث لا يكون قديماً، ومن يحتاج إلى غيره لا يكون قادراً لا يعجزه شيء^(١)، بمعنى أن من يكون حاله هذه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون إلهاً فهذا احتياج لا يليق بالإله قط، فالمعنى أنهما: (يفنقران إلى الغذاء وما يتبعه من الهضم والنقص افتقار الحيوانات، فلم يكونا إلا جسماً مؤلفاً محدثاً)^(٢)، وعليه فالعبارة (كناية عن قضاء الحاجة، فكأنه ذكر الأكل وقصد بذلك عاقبته فبين الله سبحانه أولاً أقصى ما لهما من الكمال، ودلّ على أنه لا يوجب لهما ألوهية، لأن كثيراً من الناس يشاركهما في مثله، ثم نبّه على نقصهما، وذكر ما ينفي الربوبية، وما يقتضي أن يكونا من عداد المركبات الكائنة الفاسدة)^(٣).

لذا فإنّ المعنى إجمالاً أريد منه تنزيه الله ﷻ، وذلك بالاحتجاج على النصارى الذين أرادوا تأليه نبيه عيسى ابن مريم ﷺ، ويضاف على ذلك التلطف عن ذكر قضاء الحاجة بإيراده انهما كانا يأكلان الطعام، لدلالة أكل الطعام من الاحتياج إلى الغذاء، ولا ينبغي للإله إن يكون محتاجاً، وربما فيه تلميح لما بعد الطعام قاصداً عاقبة أكل الطعام وهو قضاء الحاجة.

ومنه قوله تعالى على لسان مريم ﷺ: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾^(٤)

فقول مريم ﷺ: ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أي لم أكن متزوجة و (لم أكن زانية، وإنما قالت ذلك لأنّ العادة أن يكون الولد من إحدى هاتين الجهتين)^(٥)، وقد عبرت بقولها هذا بداعي التعجب وقد تلطفت بقولها هذا فالمراد، أي (ولم يبشرني رجل بالحلال، فإنّ المسّ كناية عنه)^(٦)، وكأنّ لسان حالها يقول (تبشرني بغلام؟

(١) ابن إدريس الحلبي: المنتخب من تفسير القرآن والنكت المستخرجة من كتاب التبيان :

٢٤٨/١.

(٢) الكاشاني: زبدة التفاسير : ٢ / ٣٠٣.

(٣) م. ن: ٢ / ٣٠٣.

(٤) سورة مريم : ٢٠.

(٥) مير علي الحائري الطهراني : تفسير مقتنيات الدرر: ٧ / ١٥.

(٦) الكاشاني: زبدة التفاسير: ٤ / ١٦٩.

كيف؟ ومن أين؟ ولا زوج لي، ولا اقدم على الخيانة والفجور^(١)، وهو أمر يُوجب التعجب والدهشة فعلاً، فكيف يبشرها بسلام وهي لم تنزوج، ولم تخن، وحاشاها من الخيانة، ولكن ما يفسر ذلك كله هو قدرة الله اللامتناهية والتي لا تستوعبها عقولنا البسيطة وتعجز عن إدراكها، ذلك (أن أسباب الولادة لا تنحصر عند الله بالمضاجعة والمواقعة، فكما أوجد الأشياء بأسبابها المألوفة فإنه يوجد أيضاً بكلمة (كن) تماماً كما أوجد الكون من لا شيء، وأدم من غير أب وأم، وقد شاء سبحانه أن يجعل مولودك دليلاً واضحاً على عظمة الخالق، ونبوة المولود، وأن يكون رحمة للإنسانية، وحجة دامغة على بني إسرائيل الذين حاولوا قتله^(٢)، وبهذا دلالة أخرى على لطف الله ﷻ بخلقه إذ يتبين من هذه الآية أن كرامته سبحانه وتعالى قد شملت أم عيسى عليه السلام ذلك أنها من عباد الله المخلصين فاستحقت هذا التكريم من الله جل جلاله.

ومن الآيات التي نلمس فيها التعفف عن ذكر العلاقة الجنسية تلطفاً، ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾^(٣) ففعله: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ الأمر للإباحة والمباشرة إيصال بشرة إلى بشرة وهي ظاهر الجلد كنى بذلك عن الجماع لأن المباشرة من مقدماته اللازمة والمراد من الآن ما بعد نزول الآية، والآية بنفسها تدل على أن الجماع كان محرماً في ليلة الصيام مطلقاً أو في حال خاص، وإن بعض المسلمين فعلوا المحرم وجامعوا فنسخ

(١) محمد جواد مغنية: التفسير الكاشف: ٥ / ١٧٤.

(٢) م.ن: ٥ / ١٧٥.

(٣) سورة البقرة: من الآية ١٨٧.

ذلك التحريم عفواً من الله^(١)، فالمباشرة سبقت تلطفاً لأنها من (أدب القرآن الكريم وكذا سائر الألفاظ المستعملة فيه في القرآن كالدخول والمس واللمس والآتيان والقرب كلها ألفاظ مستعملة على طريق التكنية)^(٢)، وهو بهذا عفاً عن ذكر كل ما من شأنه أن يخذش الحياء، فضلاً عن الرسالة التي تكمن من وراء ذلك وهي بيان أهمية هذه العلاقة الإنسانية ومدى قدسيتهما فاستعمال المباشرة دون غيرها كان له الأثر الألف والوقع الأدق؛ فالمباشرة تأتي بعد التوقف فناسب هذا اللفظ المقام مع التلطف في إيرادها في آن معاً.

وأيضاً يلحظ ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تُوعِظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٣).

إذ إن (المراد بالتماس المجامعة فلا يحل للمظاهر وطء امرأته التي ظاهر عنها)^(٤)، فلم يأت على ذكر الجماع صراحة ذلك (بأن لفظ اللمس والمس وردا في القرآن بمعنى الجماع ... وعن ابن عباس أنه قال: إن الله حيي كريم يعف ويكفي، فعبر عن المباشرة بالملامسة)^(٥)، والمراد (أي من قبل أن يستمتع كل من المظاهر والمظاهر منها بالآخر جماعاً ولمساً ونظراً إلى الفرج شهوة وإن وقع شيء من ذلك قبل التكفير يجب عليه أن يستغفر ولا يعود حتى يكفر)^(٦).

فاستعمل النصّ القرآني هذه الألفاظ وغيرها في مواضع عدّة كان من جملة دواعيه هو التعفف عن ذكر العلاقة الجنسية بلياقة وأدب وتلطف، وذلك عن طريق إيرادها

(١) محمد جواد البلاغي: آلاء الرحمن في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي - بيروت، دبت، د.ب.ط: ١ / ١٦٢.

(٢) الطباطبائي: تفسير الميزان: ٢ / ٤٤.

(٣) سورة المجادلة: ٣.

(٤) البغوي: أبو محمد عبد الرحمن العك (ت ٥١٦هـ): تفسير البغوي معالم التنزيل، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، مطبعة بيروت - دار المعرفة، الناشر: دار المعرفة، ٤ / ٣٠٥.

(٥) الرازي: تفسير الكبير: ١٠ / ١١٢.

(٦) أبو السعود: أفندي بن محيي الدين محمد بن مصلح الحنفي (ت ٩٥١هـ): تفسير أبي السعود، مطبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت، الناشر: دار إحياء التراث العربي: ٨ / ٢١٧.

بالصورة الأجل وانتقاء اللفظ المناسب لترسيخ ما لهذه العلاقة من خصوصية مبنية على الاحترام وهو شأنها.

وعليه أن دواعي استعمال التلطف في الخطاب القرآني ليست ليست عفوية ولا محض انعكاس بلاغي بل ظاهرة مقصودة ذات ابعاد نفسية وتربوية ودعوية لكسر الحواجز النفسية وتهيئة النفوس لتلقي الخطاب الإلهي.

الفصل الثالث

أساليب التلطف في القرآن الكريم

الفصل الثالث

أساليب التلطف في القرآن الكريم

المبحث الأول:- دلالة أسلوب المفارقة

المبحث الثاني:- دلالة أسلوب الاستدراج

المبحث الثالث:- دلالة أسلوب الحجاج

الفصل الثالث

أساليب التلطف في القرآن الكريم

تنوّعت الأساليب التي اعتمدها النصّ القرآني في التلطف تبعاً لسياق الخطاب ومراد التوجيه، وقد تناول هذا الفصل أساليب التلطف التي وردت في الخطاب القرآني، فخصّ منها أسلوب المفارقة الذي يحدث التباين اللفظي أو المعنوي لإثارة انتباه المتلقي فيدفعه إلى إعادة النظر في القضية المطروحة، وتوجيهه نحو المراد بطريقة غير مباشرة، ثم أسلوب الاستدراج الذي يُمهّد للمتلقي الانتقال التدريجي من قناعته الأولى إلى تقبّل الحقائق الجديدة بوعي وقناعة، وهو أسلوب يقوم على التلطف في العرض والتدرّج في الحجّة حتى يصل الخطاب إلى غايته دون إثارة النفور أو المقاومة، أمّا أسلوب الحجاج فيعتمد على بناء برهاني محكم يقنع العقل، يُراعى فيه تسلسل الأفكار وطرح الحجج وتنوعها بشكل مقنع وشفاف، تجنباً للمواجهة الفجة باعتماد الإقناع، فيؤسس لحوار داخلي لدى المخاطب يجمع بين العقل والعاطفة وبين البيان والبرهان.

المبحث الأول

دلالة أسلوب المفارقة

ينبغي علينا ابتداءً الوقوف على مفهوم (المفارقة) وما تؤول إليه المفارقة بوصفها أحد أساليب (التلطف)، وللسعي وراءها وبيان هويتها في اللغة ابتداءً، كان لزاماً علينا الرجوع إلى ما جاء في كتب المعجمات بغية استنطاق ما لهذه المفردة من دلالة في اللغة العربية تداولاً ليتسنى لنا اكتشاف الصلة بين مدلولها اللغوي ومفهومها الاصطلاحي.

أولاً: مفهوم المفارقة في اللغة:

وعند الرجوع إلى المعجم العربي، نجد بأنّها قد وردت تحت الجذر الثلاثي(ف، ر، ق) بفتح الفاء والراء والقاف، ومصدرها (فَرَق) والفرق في اللغة هو خلاف الجمع^(١)، لذا ذهب الخليل(ت١٧٥هـ) إلى أنّ الفرق هو التفريق بين شيئين اثنين، ومنه تفارق القوم، وافترقوا بمعنى: فارق بعضهم بعضاً^(٢).

لذا نجد أنّ الفرق ينبغي إن يكون بين شيئين لا يجمع بينهما شيء، أمّا ابن فارس (ت٣٩٥هـ) فيرى: (الفاء والراء والقاف أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تمييزٍ وتنزيلٍ بين شيئين)^(٣)، من هنا زاد معنى التمييز والتنزيل إلى معنى الفرقة.

ويبدو أنّ الزمخشري لم يبتعد عن سبقه في بيان معنى (الفرق)، إذ يقول: (وفرق لي الطريق فروقاً وانفرك انفرافاً إذا اتجه لك طريقان فاستبان ما يجب سلوكه منهما، وطريق افرق بيّن، وضم تفاريق متاعه أي ما تفرّق منه)^(٤).

إنّ المفارقة في اللغة قد جاءت بمعنى التفريق والفصل والتباين والتمييز بين شيئين، كما أنّ الفرق خلاف الجمع؛ ولاسيما حين يرد أمران على طرفي نقيض، لذا نفهم أنّ مضمون (المفارقة) يحمل دلالة لغوية مفادها؛ أنّ هناك شيئين متلازمين قد يحصل بينهما تباعداً فيتفارقا، ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا

(١) يُنظر: ابن منظور : لسان العرب : ١٠ / ٢٩٩ مادة (فرق).

(٢) يُنظر: الفراهيدي : العين : ٥ / ١٤٧ مادة (فرق).

(٣) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة : ٤ / ٤٩٣ ، مادة (فرق).

(٤) الزمخشري: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر(ت٥٣٨هـ): أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م : ٢٠/٢ مادة (فرق).

لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا^(١)، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾^(٢)، فالمراد بـ(الفارقات: بمعنى المفردات بين شيء وآخر)^(٣)، وفي تفسير آخر أن المعنى الملائكة فرقت بين الحق والباطل، وقيل هي الرياح: يعنى القرآن ما فرق الله به بين الحق والباطل^(٤).

وبهذا المعنى يكون التفريق هو التباعد بين الشيئين ومما جاء أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٥)، إذ وصف القرآن الكريم بالفارقان؛ ذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل، بهذا ننتهي إلى أنّ المفارقة مشتقة من الفرق والذي يعني التباعد بين شيئين.

ثانياً: مفهوم (المفارقة) في الاصطلاح:

فقد تباينت أقوال العلماء في بيان مفهومها، فلم يكن مصطلح المفارقة متداولاً في الدراسات العربية القديمة كتداوله في الدراسات الحديثة اليوم، إلاّ أنه كان متداولاً بمسميات أخرى، كالتعريض، أو المدح بما يشبه الذم، أو الذم بما يشبه المدح، أو التورية، أو المطابقة أو الكناية، فالمعنى موجود دون المسمى، ويمكننا القول أنه نضج واكتمل في الأدب الحديث تقريباً، حتى وظف لإظهار التناقض بين الطرفين^(٦)، إذ لم ترد ترد بهذه التسمية، ولكنها قد وردت في المصادر العربية القديمة بمصطلح آخر هو الأقرب ألاّ وهو (التهكم) والذي عُرف على نحو البحث البلاغي العربي القديم وبعض

(١) سورة الكهف : ٧٨.

(٢) سورة المرسلات : ٤.

(٣) محمد عزة دروزة: التفسير الحديث الناشر: دار الغرب الإسلامي ، ط ٢، سنة الطبعة: ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م: ٢ / ٢٠٨.

(٤) السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور: دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت، د.ط، د.ت، ٣٠٣ / ٦.

(٥) سورة الأنبياء: ٤٨.

(٦) يُنظر: حمادي خلف سعود الركابي(معاصر): المفارقة في شعر عنتره دراسة تحليلية، جامعة ذي ذي قار، مجلة كلية التربية الأساسية، المجلد ٢٤، العدد ١٠٢، ٢٠١٨ م: ٥٥.

المباحث اللغوية، وقد مثل له ابن قدامة (ت ٣٣٧هـ) عن ذلك بقوله : (وإمّا على طريق التضاد، مثل: الشرير للخير، والحر للبارد، والأبيض للأسود)^(١).

وهو بهذا المعنى يعدُّ أسلوباً بلاغياً، يظهر فيه المعنى الخفي في تضاد مع المعنى الظاهري، وهذا ما يُحتاج فيه إلى أعمال العقل والتأمل، لفهم ما ينطوي تحته من دلالات تولد التعارض بين المعنى الظاهري والمعنى الخفي أو الغامض ابتداءً في حنايا النصّ.

وقد عرّفه الزركشي (ت ٧٩٤هـ) بأنّه: (إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال، كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^(٢)، ونقصد بذلك التهكم الموافق لمضمون المفارقة حديثاً، بهذا نفهم أنّ قوله تعالى قد سبق هنا على وجه الإستهزاء لا الحقيقة^(٤)).

فالتهكم كما هو واضح من تعريف الزركشي، يقترب اقتراباً كثيراً من مفهوم المفارقة، فالمفارقة تقتضي أيضاً إن يكون الكلام ضد مقتضى الحال كما سيرد لاحقاً، مع ملاحظة أنّ التهكم لا تشترط التضاد، على عكس المفارقة التي تشترط التضاد، ويظهر في المفارقة عنصر التخفيّ ذلك أن المعنى المتخفي في اللفظ هو المقصود أن يظهر^(٥)، فهو الذي يُراد إبرازه من خلال إيهام أولي يقود ذهن المتلقي إلى قراءة مزدوجة فيكشف حقيقة المراد عبر هذا التباين بين الظاهر والباطن، والنتيجة أن المفارقة تبقى غير واضحة المعالم ولا تبلغ غايتها إلا حين يكتشف المتلقي المعنى الكامن خلف اللفظ الظاهر، ليدرك أن ما خفي هو المقصود اظهاره وتأكيد.

(١) ابن قدامة: قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي (ت ٣٣٧هـ): نقد الشعر، الناشر: مطبعة الجوائب - قسطنطينية، ط ١، ١٣٠٢ هـ، ٧٩.

(٢) سورة الدخان : ٤٩.

(٣) الزركشي : البرهان في علوم القرآن : ٥٨/٤.

(٤) يُنظر: الماوردي: علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري (٤٥٠ هـ): النكت والعيون، تحقيق : السيد ابن عبد القادر بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، د. ط، د. ت: ١ / ٧٨.

(٥) ينظر: عاصم شمادة علي: المفارقة اللغوية في معهود الخطاب العربي - دراسة في بنية الدلالة، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، مجلة الأثر، العدد العاشر: ٦.

وقد ذكر يحيى بن حمزة (ت ٧٤٩هـ) خمسة أوجه للتهكم هي^(١): (الوجه الأول: أن يكون وارداً على جهة الوعيد، بلفظ الوعد تهكماً، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٢).

الوجه الثاني: أن تورد صفات المدح والمقصود بها الذم، كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^(٣).

الوجه الثالث: لم يسمه، ومن أمثلته، ما جاء على القلة والغرض التكثر والتحقق للعلم بما ذكره، كقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ..﴾^(٤).

الوجه الرابع: لم يسمه كذلك، ولنا تسميته بما جاء على جهة التقليل وأخرج مخرج الشك، والغرض به التكثر والتحقق أيضاً، كقوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾^(٥).

الوجه الخامس: كذلك لم يسمه، ويمكن تسميته بالحكاية، وذلك كقوله تعالى حكاية عن قوم شعيب: ﴿...إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾^(٦).

وعليه فالتهكم عند القدماء هو المفارقة عند المحدثين، إلا أن المفارقة أعم واشمل؛ ذلك لأن التهكم ينضوي تحتها، لذا يمكن القول بأنها وجه من وجوه المفارقة، ومن صورها، فالمفارقة: (هي أسلوب تعبيرى يهدف إلى إيصال المعنى بطريقة إيحائية وشفافة، تجعل القارئ يرفض النص المباشر ويستبطنه لاستخراج معانٍ متعددة دون أن يمتلك القدرة على ترجيح أحدهما على غيره مع ما يمكن أن تتصف به من تنافر أو تباين أو غموض، ومع ما تثيره من مشاعر السخرية عند منشئها ومتلقيها على حد سواء)^(٧).

(١) ينظر: يحيى بن حمزة: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، الناشر: المكتبة العصرية - بيروت، ط ١، ١٤٢٣هـ: ١٦٢/٣-١٦٤.

(٢) سورة الانشقاق: ٢٤.

(٣) سورة الدخان: ٤٩.

(٤) سورة الأحزاب: ١٨.

(٥) سورة الحجر: ٢.

(٦) سورة هود: ٨٧.

(٧) هيثم محمد جديتاوي: المفارقة في شعر أبي العلاء المعري، دار اليازوري - الأردن، ٢٠١٢م، ١٤٤.

وعرّفها ميويك أيضاً بوصفها فناً بقوله: (إنّ فن المفارقة هو فن قول الشيء دون قوله حقيقة^(١))، وعُرِّفت أيضاً بأنّها: (شكل من أشكال القول يساق فيه معنى ما في حين يقصد منه معنى آخر، غالباً ما يكون مخالفاً للمعنى السطحي الظاهر)^(٢)، وفي هذا إشارة إلى وجود التضاد بين المعنيين.

وقد ألمح فلايشر وميشيل إلى العلاقة بين التلطف والمفارقة برسمهما لحدودها بقولهما: (والمفارقة تعبير انتقادي يعرض ملمحا فيه مغالاة أو مبالغة، فيهون من شأنه، وربما جعلت المفارقة - في الوقت نفسه - أداة تلطيفية، كما يقال: هذه ليست فكرة غبية، ففي هذه العبارة إشارة إلى قدر من الذكاء، فاذا قيل: هذه ليست - بحال - فكرة ذكية، كان وضع الذكاء في موضع الغباء، علامة تخفيف أو تهوين من أمر الغباء، على نحو تعبيرى تلمحي تلطيفي تهكمي)^(٣).

والمفارقة بهذا المعنى تنحى منحيين فهي لا تبتعد كثيراً عن (التلطف) بوصفها أسلوباً للتخفيف أو التهوين، ومن جانب آخر تنحى منحاً سلبياً، يراد منه الاستهزاء أو السخرية بأسلوب (التهكم)، لذا فإن المفارقة قد تشتمل على هذا الأسلوب ولكن المائز للمفارقة من غيرها هو أنّها (أداة أسلوبية فعّالة للتهكم والاستهزاء، ويخرج من ذلك، الاستهزاء الذي تخلو صياغته اللغوية من مفارقة اللفظ للمعنى)^(٤)، فإذا خلت الصياغة اللغوية من التضاد التضاد والاختلاف بين اللفظ والمعنى فلا تعدّ مفارقة.

وبهذا يصحّ أن نقول إنّ المعنى الذي يعنيه المتكلم ويريده في المفارقة هو نقيض ما يقوله تماماً، ذلك بأنّ المفارقة كما يراها (أسعد مكي داود) هي (بنية لغوية مرواغة، مناورة علقية، ذات بناء فني أو أسلوبى عالي المستوى قادر على تغيير مسار المعنى الظاهري

(١) د. سي ميويك: موسوعة المصطلح النقدي المفارقة وصفاتها، ترجمة د. عبد الواحد لؤلؤة، الموسوعة العربية للدراسات والنشر، ط ١، ١٩٩٨م، المجلد ٤، ٥.

(٢) سيزا قاسم: المفارقة في القصّ العربي المعاصر، مجلة فصول - القاهرة، ١٩٨٢م، مجلد ٢، ١٤٤.

(٣) محمد العبد: المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة، دار الفكر العربي، ط ١، ١٧.

(٤) م. ن: ١٨.

إلى نقيضه فتلاعب بشعور المتلقي، مثيرة فيه الانفعال الذهني والعاطفي، لتدفعه لإيجاد المعنى الباطني لها^(١).

ولا بد من الإشارة إلى أن هناك علاقة ترابط وثيقة بين (المفارقة) والتلطف فهما يلتقيان ويتقاربان من حيثية كون المفارقة أسلوباً من أساليبه أيّ (التلطف) إذ (يكمن التهكم أو الاستهزاء في قول نقيض الشيء المقصود قوله فعلا في هذا المقام بالذات - وهو ما يبتغي للمخاطب أن يفهمه أيضاً - أمر آخر كرية أو مستهجن، والمخاطب يرفض المعنى الظاهر للمقال، لأنه يدلّ تناقضه، أو عدم تكافئه مع السياق)^(٢).

وقد وصفت أيضاً ب(إنّها لعبة لغوية ماهرة وذكية بين طرفين: صانع المفارقة وقارئها، على نحو يقدم فيه صانع المفارقة النصّ بطريقة تستثير القارئ وتدعوه إلى رفض معناه الحرفي، وذلك لصالح المعنى الخفي الذي غالباً ما يكون المعنى الضد وهو في إثناء ذلك يجعل اللغة ترتطم بعضها ببعض، بحيث لا يهدأ للقارئ بال، إلاّ بعد أن يصل إلى المعنى الذي يرتضيه ليستقر عنده)^(٣).

ونجد أنّ من خصائص ما تستند عليه (المفارقة) وتبتنى، هي مفارقة المنطوق للمقصود، والذي يتضح جلياً في ضمن السياق اللغوي، ذلك بـ (أنّ الأساس الذي تبنى عليه المفارقة اللغوية، هو مفارقة التعبير المنطوق للمعنى المقصود، الذي يحتمله السياق اللغوي، أو الموقف التبليغي الراهن، ويحدده، من أجل ذلك، فإنّ المفارقة اللغوية، تكشف عن أمرين: أولهما: عنصر الإخفاء، والآخر: حقيقة كون المتخفي في التعبير المنطوق، هو المقصود إظهاره)^(٤).

(١) راما عبد الجليل راضي: المفارقة في الرواية العراقية المعاصرة، ٢٠٠٣-٢٠١٦ :رسالة ماجستير، جامعة القادسية - كلية الآداب، بإشراف الدكتور عبد الله حبيب : ١٢.

(٢) محمد العبد : المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة : ٢١.

(٣) نبيلة إبراهيم : فن القص في النظرية والتطبيق، مكتبة غريب، دط، دت : ١٩٨.

(٤)المصدر السابق : ١٧.

ووافق ذلك أيضاً، ناصر شبانة في تعريفه للمفارقة بقوله: (إنَّ المفارقة انحراف لغوي يؤدي بالبنية إلى أن تكون مرواغة وغير مستقرة ومتعددة الدلالات، وهي بهذا المعنى تمنح القارئ صلاحيات أوسع للتصرف وفق وعيه بحجم المفارقة)^(١).

إنَّ المقدمات السابقة، تقودنا إلى القول، إنَّ المفارقة هي صياغة لغوية تعبيرية مقصودة خارجة عن المؤلف يكون ظاهرها متناقضاً للمراد والمعطى المستنتج منها، إذ تقدم معنى غير متوقع أو رؤية مغايرة للمنطوق ابتداءً، فهي تنطوي على عبارات متضاربة بين الظاهر والباطن، لذا تحتاج إلى تفسير لاستنتاج المبتغى من ورائها، من هنا فهي تلتقي مع التلطف محصلة.

إمّا محددات المفارقة فيمكن أن نوجزها بما ذكرته نبيلة إبراهيم، وهي^(٢) :

١. وجود مستويين للمعنى في التعبير الواحد: المستوى السطحي للكلام، على نحو ما يعبر به، والمستوى الكامن الذي لم يعبر عنه، والذي يلح الآخر على اكتشافه.
٢. لا يتم الوصول إلى إدراك المفارقة إلا من خلال إدراك التعارض أو التناقض بين الحقائق على المستوى الشكلي للنص.

٣. لا بد من وجود ضحية في المفارقة

ثالثاً: شواهد قرآنية على المفارقة:

من المصاديق القرآنية عن المفارقة بوصفها أسلوباً من أساليب التلطف، هو ما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

هنا يرسم لنا النصّ القرآني جدلية قائمة؛ تدور بين النبي ﷺ والمشركين، وقد جاءت بعد أن استنفذ ﷺ جميع الحجج والآيات التي ينبغي أن تُنير بصيرتهم، فخاطبهم نبينا الكريم ﷺ حين ذاك بهذا الخطاب، لنجد بأنّ ثمة مفارقة واضحة في النصّ؛ إذ كيف يأمرهم

(١) ناصر شبانة: المفارقة في الشعر العربي الحديث، الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢م، ٤٢.

(٢) نبيلة إبراهيم: المفارقة: مجلة فصول، المجلد السابع، العددان الثالث والرابع (إبريل - سبتمبر) ١٩٨٧م، ١٣٣.

(٣) سورة الزمر: ٣٩ - ٤٠.

النبي بقوله: ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ أي - قل أيها النبي: يا قومي، اعملوا ما شئتم، اعملوا على حالتكم وطريقتكم التي أنتم عليها من عداوة رسالتي، واعتداد بالقوة والشدة، واجتهدوا في أنواع المكر، فأني على حالتي ومنهجي وطريقتي التي أنا عليها في الدعوة إلى توحيد الله ونشر دينه بين الناس^(١)، وعليه فصيغة الأمر في (اعملوا) يمكن توجيهها بأنها خرجت لا لامثال الأمر وإتيانه، بل أريد بها المبالغة في الزجر والوعيد والتهديد^(٢)، فجاء: (الأمر اعملوا للتسوية والتخلية لإظهار اليأس من امتثالهم للنصح بحيث يغير ناصحهم نصحهم إلى الإطلاق لهم فيما يحبون إن يفعلوا كقوله تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ وهذا الاستعمال استعارة إذ يشبه المغضوب عليه المأيوس من ارعائه بالمأمور بأن يفعل ما كان يُنهي عنه فكأن ذلك المنهي صار واجباً وهذا تهكم^(٣).

لفظة (اعملوا) فيها مفارقة بيّنة، إذ يفهم المخاطب إنه أمر واجب التنفيذ على حين أنّ الأمر ليس كذلك، وهذا ما يتضح جلياً عند أخذ هذه اللفظة مع دلالات السياق الأخر والتي ستعطي معنى أعمق مما يفهمه المتلقي للوهلة الأولى من السياق الظاهري لدلالة هذه اللفظة، وعند إمعان النظر نجد أنّ في قوله: (يا قوم) إضافة للنداء واسترعاء انتباههم تلطفاً فعوضاً عن أنّ يقول (أيها المشركون) أو (أيها الكافرون)، نجده يقول (يا قوم) متلطفاً بهم؛ فمع تهديده لهم، وتحذيره إياهم، نراه قد أراد إخبارهم بذلك وإشعارهم بأنّه قد رُقّ لحالهم^(٤)، فانتقى من اللفظ أحسنه ومن القول أطفه محذراً لهم، فجاء بما

(١) الزحيلي: وهبة بن مصطفى: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر -

بيروت، د. ط، ١٤١٨هـ: ٢٤ / ١١.

(٢) يُنظر: الزجاج: معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده الشلبي، ط ١، عالم الكتب -

بيروت، ١٩٨٨م: ٢ / ٢٩٤.

(٣) ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد،

دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس، ١٩٩٧م: ٨ / ٩٠.

(٤) يُنظر: م. ن: ٨ / ٩٠.

(فيه مع الإنذار، إنصاف في القول وحسن الأدب)^(١)، وقد سبق هذا في نطاق حُسن دعوتهم، إذ استعمل الأمر من باب المفارقة تلطفاً بهم، فهو لم يأمرهم حقاً، بل أراد القول افعلوا ما يحلوا لكم، وأنا سأعمل على ما أريد والذي هو الحق الذي أمرت به من الله ﷻ، وكلُّ مقتنع بعمله، وما يدلّ على أنّ عبارته (اعملوا) قد خرجت للمفارقة دون الحقيقة؛ هو قوله في نهاية الآية ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ فهذه العبارة قد حسمت الأمر نهائياً في أنّ المراد هو الدعوة لهم لترك ما هم عليه ولكن بأسلوب الأمر التلطفي المبني على المفارقة.

وكذلك ما جاء في الكتاب العزيز، في قوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمِّ لَكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

نزلت هذه الآية الكريمة مخاطبة المسلمين وهم يفرون من معركة أحد أمام المشركين من قريش، والآية تروي تفاصيل تلك الحادثة وما جرى من فرارهم من العدو في وادي أحد وهو ما أجملته الآية الكريمة وأوجزته، فقوله: ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾ بمعنى لا تلتفتون على من خلفتم في الحرب فلا يقف أحد منكم على أحد، معرضين ومخالفين لأوامر رسول الله ﷺ وندائه لكم من ورائكم في قوله: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ فلم يستجيبوا له، وكانت النتيجة الحتمية لمخالفتهم له أنّ ﴿فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمِّ﴾ فما كانوا يرجوه من ثواب الغنيمة وعصيانهم للرسول ﷺ أنّ غمكم بالهزيمة جزاء لما رجوتموه، وقوله: ﴿لَكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ أي من الغنيمة ومخالفتكم الأوامر^(٣).

(١) البيضاوي: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (ت ٦٨٥هـ): أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط ١، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤١٨هـ: ١٨٣ / ٢.

(٢) سورة آل عمران: ١٥٣.

(٣) ينظر: الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي (ت ٣١٠هـ): جامع البيان عن تأويل القرآن، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م: ١٤٩ / ٦.

فثمة مفارقة في الآية المباركة وبالتحديد في قوله: ﴿فَأْتَابِكُمْ﴾ فهذه المفردة كما يبدو أنها ابتعدت عن معناها المتعارف عليه، فمفردة (الثواب ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله، فيسمى الجزاء ثواباً تصوراً أنه هو هو) (١)، وقيل بأنه قد يدلّ على الثواب فقد (يقال في الخير والشر) (٢)، ولكن الشواهد القرآنية تؤكد استعمالها في الخير أكثر منه في الشر، كقوله سبحانه: ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (٣)، وقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأْتَابَهُمْ فُتْحًا قَرِيبًا﴾ (٤).

وتأسيساً عليه وجّه علماء التفسير مفردة (فأتابكم) إلى منحى المفارقة والتي حملتها إلى عدة توجيهات، ومع رأي من يرى أن: (لفظ الثواب لا يستعمل في الأغلب إلا في الخير، ويجوز استعماله في الشر...) (٥)، يمكن القول بأن هذا اللفظ (إن حملناه على مقتضى العرف كان ذلك وارداً على سبيل التهكم كما يقال: تحيتك الضرب وعتابك السيف، أي جعل الغمّ مكان ما يرجون من الثواب، قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٦) (٧).

وهناك توجيه آخر ينسجم مع لفظة (فأتابكم) يمكن ضمّه إلى جنب أسلوب المفارقة، والذي يتضح من بعد إمعان النظر في السياق القرآني، إذ جاء في نصّ الآية الكريمة بعد مفردة ﴿فَأْتَابِكُمْ﴾ قوله: ﴿غَمًّا بَغَمٍّ﴾ فمما لا شكّ فيه أنّ هناك غمين بحسب النصّ، أحدهما الغم من عدم تحصلهم على الغنيمة وهو النتيجة الحتمية المتأتية من عصيانهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، أمّا الآخر فهو غم هزيمتهم أمام مشركي قريش، فالله ﷻ قد تلطف عليهم حتى في الغم، فكأن الغم الثاني جاء بمثابة الرحمة الإلهية واللفظ بحال المؤمنين أي في قبالة ليكون بمثابة ما ينسيهم غمهم الأول والذي كان عاقبة لمخالفتهم أمر النبي

(١) الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن : ١٨٠.

(٢) م. ن: ١٨٠.

(٣) سورة آل عمران: ١٩٥.

(٤) سورة الفتح: ١٨.

(٥) الرازي: التفسير الكبير: ٩ / ٣٩٠.

(٦) سورة الانشقاق: ٢٤.

(٧) الرازي: التفسير الكبير: ٣ / ٣٩٠.

ﷺ لينبهم إلى عظيم ما ارتكبه، وبذلك يمكن توجيه لفظه فأتابكم أيّ (كأنه يقول عاقبكم، ولكنه سبحانه يأتي بها مغلقة بحنان الألوهية (فأتابكم) إذن فهي ثواب أيّ إن الحق ﷺ بربوبيته وبألوهيته يعلم بأن هؤلاء مؤمنون فلم يقس عليهم)^(١)، تحنناً وتلطفاً منه فهو أرحم الراحمين ليكون المعنى (فأتابكم غماً أنساكم الحزن على ما فاتكم وما أصابكم)^(٢).

وقد يعود ضمير (فأتابكم) إلى الرسول ﷺ (أي: فواساكم في الاغتمام، فاغتم بما نزل عليكم، كما اغتمتم بما نزل عليه من الشج وغيره، ولم يعيركم على عصيانكم تسلية لكم، فلا تحزنوا على ما فاتكم من النصر، ولا على ما أصابكم من الهزيمة)^(٣)، وهو رأي يتناسب وعطف رسول الله ﷺ مع أمته فلم يُرد أن يحملهم ما لا طاقة لهم به بقريظة ما جاء في قوله: ﴿لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم﴾.

وبالمحصلة سيكون لدينا احتمالان في توجيه لفظه (فأتابكم):

الإحتمال الأول: أن يكون الله قد هون عليهم غمهم بغم آخر لينسيهم ما اقترفوه؛ فبدلاً من تعبيرهم وتأنيبهم على ما اقترفوه تلطف بحالهم، فجاء التلطف هنا بأسلوب المفارقة؛ بدليل إيراد الغم تحت عنوان الإثابة بداعي التهوين والتخفيف على المؤمنين لندمهم الشديد، وبدلالة السياق اللاحق والذي يؤكد بشكل واضح بأن العلة من ذلك هي ﴿لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم﴾ وعليه يمكن القول إن النص جاء بأسلوب المفارقة التلطيفية.

الإحتمال الثاني: هو مواساة النبي ﷺ باغتمامه عليهم لما أصابهم من الغم وهو لطف ليس ببعيد عن نبي الرحمة ﷺ فكان غمهم باغتمامه ﷺ كان أشدّ وقعاً على المؤمنين من غمهم السابق، وهنا لا توجد مفارقة، وليس الأمر عائد إلى التلطف، بل هو يدخل في حيّز اللطف بالمواساة.

(١) الشعراوي محمد متولي (ت ١٤١٨هـ): تفسير الشعراوي، الناشر: مطابع أخبار اليوم، د. ط، د. ت : ١٨٢١ / ٣.

(٢) ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ): زاد المسير في علم التفسير، الناشر المكتب الإسلامي - بيروت، ط ٣، ١٤٠٤هـ : ١ / ٣٣٦.

(٣) الكاشاني: زبدة التفاسير: ١ / ٥٧٨.

وتتجلى المفارقة أيضاً في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿١﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٢﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٣﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٤﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٥﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿٦﴾﴾^(١). نجد أن في هذه الآية الكريمة مفارقة لغوية واضحة المعالم، فكما هو معلوم فإن لفظة التيسير تستعمل لليسر لبلوغ الخير، أما أن تأتي بمعنى التيسير للعسر لبلوغ الشر فغير متداول، فالآية قد جمعت بين متناقضين بتوظيف التيسير إلى نوع آخر، ألا وهو الشر لا الخير، وهو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي ورد فيه التيسير مع العسر، وهو بناء دلالي له جملة معان منها المبالغة في الوعيد والتخويف، إذ إن استعمال اليسر، كاستعمال اليسر، ليس ملحوظاً فيه المصدرية كالعسر واليسر، وإنما الملحوظ فيهما، بصيغة الفعل، أقصى اليسر واشد العسر، ونظيرهما في القرآن من غير المادة: البطشة الكبرى، والنار الكبرى، واستعمال التيسير مع العسر، مبالغة في الوعيد والنذير لمن بخل واستغنى^(٢).

فإن النص القرآني قد أوجد هنا مفارقة بين التيسيرين فاستعمل أحدهما لليسر والآخر للعسر، وفي ذلك أغراض مرجوة، ف(توظيف المفارقة من شأنه أن يحقق عدة أغراض منها: أنها تباغت القارئ أو المتلقي وبهذا تثير انتباهه، وأيضاً تحفزه على التفكير والتأمل في موضوع المفارقة، ليتفاعل مع النص، فهي تمنحه حساً قوياً ومقدرة على اكتشاف علاقات خفية في النص)^(٣)

ومن المعلوم أن (التيسير لليسر يكون بأن يصيرهم إلى النار، ويجوز أن يراد بالتمكين من سلوك طريق الجنة، والتمكين من سلوك طريق النار، ومعناه: أننا لسنا نمنع المكلفين من سلوك احد الطريقتين ولا نضطرهم إليه، وإنما نمكنهم بالإقرار عليهما ورفع المنع، والترغيب في أحدهما، والتزهيد في الآخر، فإن أحسن الاختيار اختار ما يؤديه إلى الجنة، وإن أساء فاختر ما يؤديه إلى النار، فمن قبل نفسه أتى)^(٤).

(١) سورة الليل: ٥-١٠.

(٢) عائشة عبد الرحمن: التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، ط ٣، ١٩٧٧م: ٢ / ١٠٩.

(٣) يُنظر: عدنان خالد عبد الله: النقد التطبيقي التحليلي، دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد، ط ١،

١٩٨٦م: ٢٧.

(٤) ابن إدريس الحلبي: المنتخب من تفسير القران والنكت المستخرجة من كتاب التبيان: ٣٨٥/٢.

ف (المراد بالعسرى هنا السقوط في هوة السيئات والانحرافات، والدليل على إرادة هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِذَا تَرَدَّى﴾ والمراد بتيسيره ندعه وأهواءه، ولا نردعه بالقوة عما يختاره لنفسه من التردى والهلاك)^(١)، فالمراد أن الله ﷻ لا يُجبر الإنسان على شيء فهو حر باختيار الطريق ونتيجة اختياره إما الجنة وإما النار، وبذا نستطيع القول (بأن سنة الله في خلقه أن يبين لهم طريقي الصلاح والفساد، ويمنحهم القدرة على فعلهما وتركهما، ثم يعامل كلا بما يختاره لنفسه، فإن أثر الخير والصلاح شمله بتوفيقه وعنايته، وإن اختار الشر والفساد تخلى عنه، وأو كله إلى نفسه وأهوائه تقوده إلى الشدائد والمهالك)^(٢).

وعليه فإن التيسير للعسرى هو مفارقة لأن التيسير هو التسهيل، وهذا لا يكون، إلا للعسرى، أما العسرى فإن ورود التيسير معها قد أوجد تحفيزاً وأثار في المتلقي شغف التأمل، لذا (فقد جعل حلاوة النصّ وجماليته في التضاد لا في الإتساق؛ لأن الأشياء تزداد لمعاناً عندما تقترب من أضدادها وكذا الألفاظ حين تقترب من أضدادها)^(٣)، وأيضاً للتنبيه بأن المراد غير هذا من أجل الرجوع للحق والابتعاد عن الكذب، وبذا يكون النصّ قد استعمل عدة مفردات حوت على اللطف والتلطف في آن معاً؛ بدءاً بتقديم التيسير إلى الحسنى على التيسير إلى العسرى، ثم جاء متلطفاً بعدم ذكر النار أو العذاب الشديد بل مستعملاً للفظ العسرى، وذلك بانتقاء اللفظة وتجنباً للردع وبتيسير أيضاً، إشارة إلى إرادة الإنسان في اختيار الطريق بشكل تدريجي، لذا جاء التيسير في كلا المعنيين وإن كانتا متناقضتين بالمحصلة ويمهده له ولا يمنعه بإرادته فلا يجبره سواءً أتخذ طريق الهداية أو الضلالة.

وعليه فإن في هذه المفارقة تلطفاً يكمن في سرّ هذا التيسير، وما له من أبعاد وأهداف تكشف لنا مقدار الحرية التي أعطاها الله ﷻ للبشر في اختيار الطريق، ليسهل لهم الطريق الذي يتناسب مع اختيارهم، فاليسر والعسر ليسا متعلقان بصعوبة الطريق؛

(١) محمد جواد مغنّية: التفسير الكاشف: ٧ / ٥٧٤.

(٢) م. ن: ٧ / ٥٧٤.

(٣) أسعد جواد كاظم: المفارقة في النصّ القرآني - دراسة دلالية، رسالة ماجستير، كلية التربية

للعلوم الإنسانية، بإشراف الدكتور حامد عبد المحسن كاظم، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م: ٤٧

بل بالنتيجة والعاقبة، فكلُّ إنسانٍ سيختار سبيله، فمن اختار سبيل الحق والعمل الصالح هياًه الله له سلوك هذا الطريق ويسره، وهو لا يعني بالضرورة إن يكون الطريق ميسراً وسهلاً بل قد يتحمل فيه سالكه العقبات والجهد الجهد وهو يرنو لغايته، فالأمر متعلق بالنتيجة والمحصلة النهائية التي يسعى إليها، وكذا الحال بالنسبة لمن أختار الكفر والبخل فسيهياًه الله لسلوك ما أختاره وإن كان طريقه سهلاً يسيراً إلا أن المحصلة النهائية عسرى من دون ريب، فالعبرة بالمآل وما سينتهي إليه الإنسان.

المبحث الثاني

دلالة أسلوب الاستدراج

الإستدراج من أساليب اللغة العربية المستعمل في النثر والشعر كما أنه ورد أيضاً في النص القرآني، وللقوف على مفهومه كان لابد لنا من التعرف على مفهومه في اللغة والاصطلاح؛ وذلك ليتسنى لنا استيضاح مفهوم الاستدراج ومن ثم فهم دلالاته وأنواعه وأوجه التقائه بظاهرة التلطف، بوصفه أحد صورته التي ورد عليها من سياقات النص القرآني المعجز.

أولاً: مفهوم الاستدراج في اللغة:

عند الرجوع إلى المعطى المعجمي للفظة (الاستدراج) في اللغة، نجدها تحت مادة (درج)، يقول ابن منظور (ت ٧١١هـ): (ودرجه إلى كذا واستدرجه، بمعنى أي أدناه منه على التدرج، فتدرج هو، وفي التنزيل، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١)، قال بعضهم: معناه سنأخذهم قليلاً قليلاً ولا نباغتهم، وقيل: معناه سنأخذهم من حيث لا يحتسبون، وذلك أن الله يفتح عليهم من النعيم ما يغتبطون به فيركنون إليه ويأمنون به فلا يذكرون الموت، فيأخذهم على غرتهم اغفل ما كانوا)^(٢).

أمّا الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ) فيقول ما نصّه: (واستدرجه: خدعه وأدناه، كدرجه، واقلقه حتى تركه على الأرض، والناقة: استتبع ولدها بعدما ألقته من بطنها، واستدراج الله تعالى للعبد: إته كلما جدّد له نعمة، وأنساه الاستغفار، أو أن يأخذه قليلاً قليلاً.... واستدرجته: جعلته كأنه يدرج بنفسه)^(٣)، وقيل: (ودرجت العليل تدرجاً إذا أطعمته شيئاً قليلاً وذلك إذا نقه حتى تدرج إلى غاية أكله كان قبل الغلة درجة درجة....)^(٤)، إمّا عن استدراج الله للعبد (بمعنى انه كلما جدّد خطيئة جدّد له نعمة وأنساه الاستغفار)^(٥)، وبذا

(١) من سورة الأعراف : ١٨٢.

(٢) ابن منظور: لسان العرب : ٢ / ٢٦٨ - ٢٦٩ ، مادة (درج).

(٣) يُنظر: الطريحي: فخر الدين محمد علي (ت ١٠٨٥هـ): مجمع البحرين، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ط ٢، ١٤٠٨هـ : ٢ / ٢١١-٢٢٠.

(٤) الزبيدي : تاج العروس : ٣ / ٣٦٤ مادة (درج).

(٥) م. ن: ٣ / ٣٦٥ مادة (درج).

فالمراد من الاستدراج هو الأخذ تدريجياً للشيء قليلاً قليلاً وقد تدلُّ على المخادعة، وقد يدلُّ على الاستتباع.

ثانياً: مفهوم الاستدراج في الاصطلاح :

أمّا مفهوم الاستدراج في الاصطلاح فيحسب الباحث بعد تتبعه للآيات التي ورد فيها الاستدراج، أنه مستسقى من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١)، وقوله أيضاً: ﴿فَدَرْنِي وَمَنْ يُكذِّبْ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

وما يعضد ذلك ما روي عن النبي ﷺ قوله: (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾^(٣) (٤). ويسمى الاستدراج أيضاً بكلام المنصف، إذ يرى الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ) بأن أول من سمّاه بذلك هو السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، بقوله: (قال السكاكي رحمه الله: وهذا النوع من الكلام يسمى المنصف)^(٥).

فالاستدراج وكلام المنصف اسمين لمفهوم واحد ابتداءً، إذ جاء في تعريف الاستدراج من أن المراد منه: (الكلام المشتمل على إسماع الحق على وجه لا يورث مزيد غضب المخاطب سواء كان فيه تعريض أو لا، ويسمى أيضاً المنصف من الكلام)^(٦)، ولذا نجد أن جملة من المفسرين قد أشاروا إلى هذا الأسلوب تحت عنوان الإستدراج أو

(١) سورة الأعراف: ١٨٢.

(٢) سورة القلم: ٤٤.

(٣) سورة الأنعام: ٤٤.

(٤) ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد (٢٤١هـ): مسند أحمد، دار صادر - بيروت، د. ط، د. ت: ٤ / ١٤٥.

(٥) يُنظر: عبد المتعال الصعيدي (١٣٩١هـ): بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة مكتبة الآداب، ط ١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م: ١ / ١٧٨.

(٦) التهانوي: محمد بن علي بن القاضي محمد الفاروقي (ت ١١٥٨هـ): كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: علي دحروج، مكتبة لبنان - بيروت، ط ١، ١٩٩٦م، ١ / ١٤٩.

كلام المنصف، في عدّة مواضع من تصانيفهم وهم بصدد تفسير الآيات، موضع البحث كما سيأتي تباعاً.

وقد لخص أحد المفسرين ذلك، بقوله: (الاستدراج من الدرجة، أي أنّ الله يسوقهم إلى الهلاك شيئاً فشيئاً، تماماً كمن يرتقي درج السلم)^(١)، وجاء في نص تفسيري آخر في معنى «سنستدرجهم» فالاستدراج الاستفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد أو الاستنزال، درجة بعد درجة.... إذا عرفت هذا فالمعنى سنقربهم إلى ما يهلكهم، ونضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم، وذلك لأنهم كلما أتوا بجرم أو أقدموا على ذنب فتح الله عليهم باباً من أبواب النعمة والخير في الدنيا، فيزدادون بطراً وانهماكاً في الفساد وتمادياً في الغي، ويتدرجون في المعاصي بسبب ترادف تلك النعم، ثم يأخذهم الله دفعة واحدة على غرتهم اغفل ما يكون)^(٢)، لنجد بأنّ المعنى المراد هنا جاء بصيغة الاستدراج إلى سوء العاقبة.

أمّا المصاديق القرآنية التي ورد فيها الاستدراج بوصفه الكلام المنصف، فهو من قبيل ما جاء في قوله تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ»^(٣)، ففي هذا الاطار يشير أحد المفسرين بشكل واضح وصريح بتعبيره عن الإستدراج أو كلام المنصف في هذه الآية الكريمة، بقوله: (وهذا جارٍ على طريقة الاستدراج لهم والكلام المنصف)^(٤).

عوداً على بدء، وبغية توضيح كلام المنصف الذي يُراد منه الاستدراج في مواطن كثيرة فيأتي بذات المعنى، فعند الرجوع إلى معنى الأنصاف في اللغة، فنقول: انصف الرجل غيره أنصافاً، ونصف القوم خدمهم؛ لأنّ الناصف هو بمثابة الخادم، والأنصاف هو أن تعطي من نفسك النصف، وكذلك فإنّ المنصف من كلّ شيء هو وسطه^(٥).

(١) محمد جواد مغنية: التفسير الكاشف: ٣ / ٤٢٧.

(٢) الرازي: تفسير الرازي: ١٥ / ٧٣.

(٣) سورة هود: ٣٥.

(٤) ابن عاشور: التحرير والتنوير: ٢ / ٦٤.

(٥) يُنظر: الأزهرى: أبو منصور محمد بن أحمد (ت ٣٧٠هـ): تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، مرعب، دار إحياء التراث - بيروت، ط ١، ٢٠٠١م، ١٢ / ١٤٢ - ١٤٣، (الصاد والنون).

وما يؤيد ذلك هو ما ذكر في أقوال العلماء من أنه أسلوب (تستعمله العرب في محاوراتها لإرخاء العنان للمخاطب حتى إذا سمعه الموافق، أو المخالف قال لمن خاطب به لقد أنصفك صاحبك)^(١).

فهو أسلوب يستعمل في المجادلة والمناظرة كطريقة ناجعة تستميل الآخر وتضعه في زاوية اللامفر، ذلك أنه قد جاء به من باب الأنصاف وعدم التمييز، فهو الأسلوب الذي (لا يترك المجادل لخصمه موجب تغيظ واحتداد في الجدل، ويسمى في علم المناظرة إرخاء العنان للمناظر)^(٢).

إذا اتضح هذا، فلا بد من الإشارة إلى أن (الاستدراج) على نوعين^(٣)، بحسب ما يُفصي إليه، الأول هو استدراج نحو العذاب والعقاب والجحيم، ومصادقه ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرًا لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٥).

أما النوع الآخر وهو موضوع بحثنا بوصفه أحد أساليب (التلطف) وهو استدراج نحو الهداية غايته المنفعة وثمرته الصلاح، رحمة منه ﷺ لعباده ورأفة بهم، وتوكيداً في استيعاب مفهوم (الاستدراج) يقول ابن الأثير: (وهو مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال، والكلام فيه وإن تضمن بلاغة فليس الغرض هنا ذكر بلاغته فقط، بل الغرض ذكر ما تضمنه من النكت الدقيقة في استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم وإذا حقق النظر فيه، علم أن مدار البلاغة كلها عليه؛ لأنه انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائعة، والمعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها، والكلام في مثل هذا ينبغي أن لا يكون قصيراً في خلاصة، ولا قصيراً في خطابه، فإذا لم

(١) المراغي: تفسير المراغي: ٢٢ / ٨١.

(٢) ابن عاشور: التحرير والتنوير: ٢٢ / ١٩٢.

(٣) زينب حكيم عبيد الوطيفي: ظاهرة الاستدراج في النص القرآني - دراسة تفسيرية، رسالة

ماجستير، كلية الفقه، ٢٠١٤م: ١٣

(٤) سورة آل عمران: ١٧٨.

(٥) سورة الأعراف: ١٨٢.

يتصرف الكاتب في استدراج الخصم إلى إلقاء يده، وإلا فليس بكاتب ولا شبيه له إلا صاحب الجدل، فكما أن ذلك يتصرف في المغالطات القياسية، فكذلك هذا يتصرف في المغالطات الخطابية^(١).

وإنّ الاستدراج بالمعنى المبتغى، هو (التوصل إلى وصول الغرض من المخاطب؛ والملاطفة له في بلوغ المعنى المقصود، من حيث لا يشعر به)^(٢).

بهذا نفهم أنّ الاستدراج وسيلة لإقناع المخاطب على وفق قابلية المتكلم في الوصول إلى غايته من المتلقي وهو أسلوب استعمله الخطاب القرآني في مواضع كثيرة، ذلك بأنّ إحدى غايات النصّ القرآني؛ هو الهداية وإيصال الناس إلى العقيدة الحقّة التي تريدها السماء والتي فيها صلاح الإنسانية برمتها.

ثالثاً: الشواهد القرآنية على الاستدراج

ومن مصاديق الاستدراج ما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٣).

ففي الآية الكريمة سمة التلطف المصاغة بأسلوب الاستدراج، أو ما يسمى الإنصاف فالآية قد سيقّت (على وجه الإنصاف... دون شكّ، كما يقول القائل لغيره: أحدنا كاذب، وإن كان هو عالماً بالكاذب)^(٤)، فالكلام إذا (لم يكن على وجه الشك، ولكن على الإلطف في الكلام، وحسن الخطاب)^(٥)، فالخطاب جاء محاكياً للعقل ومراعياً الآخر وذلك (بأسلوب فيه ما فيه من الحكمة والتلطف، ومن حمل المخاطب على التفكير والتدبر حتى

(١) ابن الأثير: ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت ٦٣٧هـ): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر- بيروت: ٢ / ٢٥٠ - ٢٥١.

(٢) ابن الأثير: الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق: د. مصطفى جواد ود. جميل سعيد، المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٦م: ٢٣٥.

(٣) سورة سبأ: من الآية ٢٤.

(٤) الطوسي: التبيان في تفسير القرآن: ٨ / ٣٩٤.

(٥) طنطاوي: التفسير الوسيط للقرآن الكريم: ١٣ / ١٠٣.

يعود إلى الرشد والصواب^(١)، وربّما عبّر عن ذلك بالرفق والتلطف، إذ (علم أنّه على هدى وأنّهم في ضلال مبين، ولكنه رفق بهم في الخطاب، فلم يقل: إنّنا على هدى، وأنتم على ضلال)^(٢)، إذ تلتف بهم ولم يقل لهم أنتم كافرون ضالون في تيه عميق وظلمة دائمة، بل جنح إلى التلطف الذي غايته الاستدراج للحق والهداية.

وبهذا فإنّ معنى قوله (وإنّا أو إياكم) أي: (وإنّ أحد الفريقين، من الموحّدين المتوحّد بالرزق والقدرة الذاتية بالعباد، والمشرّكين به الجماد النازل في أدنى المراتب الإمكانية «أعلى هدىً أو في ضلالٍ مُبينٍ» لعلّى أحد الأمرين، من الهدى والضلال الواضح، وهو بعد ما تقدّم من التقرير البليغ الدالّ على من هو على الهدى، ومن هو في الضلال، أبلغ من التصريح، لأنّ هذا في صورة كلام المنصف المسكت للخصم المشاغب، ونحوه قول الرجل لصاحبه: قد علم الله الصادق منّي ومنك، وإنّ أحدنا لكاذب)^(٣)، فهو خطاب تلتف يحمل الكثير من المعاني إضافة إلى الرقي في مخاطبة الآخر بغية إقناعه، إذ يضع نفسه مساوٍ للآخر تعففاً منه وهو بـ(هذا على وجه الإنصاف في الحجّة، كما يقول القائل: أحدنا كاذب، وهو يعلم أنّه صادق وأن صاحبه كاذب، والمعنى: ما نحن وأنتم على أمر واحد، بل على أمرين متضادين، وأحد الفريقين مهتد وهو نحن والآخر ضال وهو أنتم، فكذبهم بأحسن من تصريح التكذيب)^(٤)، فأبيّ رُقِيّ انطوى عليه النصّ القرآني في هذه الآية الكريمة، وأي مستوى عال جعل نصّاً عنوانه الهدى والهداية من أن يخاطب قوماً في قمة الضلال بلسان المساواة رغم علمه بضلالتهم وتيههم؛ تلتفأ بهم ورحمة، ليوصل رسالة مفادها كيفية التعاطي مع الآخر وإنّ كان ضالاً؛ بأنّ ينبغي التعامل معهم بكلّ تلتف في قبال تقبحهم وبكلّ مودة بالرغم من بغضهم غير المبرر، ذلك أنّ غاية السماء والنبى الأكرم ﷺ هي هدايتهم؛ وهي غاية

(١) طنطاوي: التفسير الوسيط للقرآن الكريم: ١١ / ٢٨٩.

(٢) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢ / ٢١.

(٣) الكاشاني: زبدة التفاسير: ٥ / ٤٤٠.

(٤) القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي (ت ٦٧١هـ): الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير، الناشر: دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٣م، ١٤ /

أسمى من غاية بيان ضلالهم وبقائهم في غيهم وفي سبيل تحقيق هذه الغاية كان لا بدّ من خطاب يهز الضمائر ويغزو المشاعر ويحاكي العقل ويدخل إلى القلب لكيلا يبقى أمامهم حجة أو سبيلاً للرفض أو العناد، فالله تبارك وتعالى أدري بخلقه واعلم بأحوالهم وما ينتابهم من تقلبات، فعلمه وإحاطته بمآلات الإنسان ونوازعه من خير أو شر؛ كان كفيلاً بأن يُنزل عليهم خطاباً جميلاً لا يُرد وتلطفاً رائقاً لا يُصد.

وللإحاطة بكلّ ما يخصّ موضوع الاستدراج، كان لابدّ من بيان نوع آخر ينبغي استيعابه؛ نوع مغاير لا يندرج تحت نوعي الاستدراج اللذين أوضحنا، ولتوضيح هذا النوع نسوق مثلاً قرآنيّاً يشير إليه، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(١).

فللهولة الأولى ربما يُتصور بأنه من سنخ نوعي الاستدراج، إلا أنه يمثل نوعاً آخر من الإستدراج، وذلك تبعاً لتغاير النية والهدف، إذ نلاحظ في هذه الآية الكريمة كيف أنّ الكافرين يحاولون تضليل المؤمنين، بدعوى أنّهم يتحملون خطاياهم في حال كان سبيلنا مؤداه الضلال والإثم، فهذا النوع هو الإستدراج المضل استدراج مبني على الوهن والإيهام بترك الهداية واتباعهم إلى تيه الضلال، ففي هذه الآية: (محاولات فتنة المسلمين عن دينهم: وقال الذين كفروا للذين آمنوا: اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم، أيّ وقال كفار قريش لمن آمن منهم واتبع الهدى بعد بيان أحوال الناس الثلاثة: المؤمن والكافر والمنافق: ارجعوا عن دينكم إلى ديننا واتبعوا سبيلنا، وإمّا أنّكم أن كنتم لكم آثام ووجد حساب فعلينا وفي رقابنا، كما يقول القائل الجاهل: أفعل هذا وخطيئتك في رقبتني، وهذه محاولة فتنة وإغراء للمسلمين على ترك دينهم بالرفق واللين)^(٢)، فهذا الاستدراج حقيقي للباطل دون الحق وليس فيه تلطف لآية حميدة، بل هو فتنة ومحاولة للغى والضلالة.

وما يهمنّا في موضوعنا هذا النوع الآخر المبني على الغاية الحميدة والمرتبط بمفهوم التلطف، إذ يحسب الباحث أنّ هذا النوع من الاستدراج هو الذي ينطوي تحت هذه

(١) من سورة العنكبوت: ١٢.

(٢) الزحيلي: وهبة بن مصطفى: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: ٢٠ / ٢٠٩.

الظاهرة، بوصفه أحد أساليبه للمراد التي يمكن أن تؤدي معناه؛ فالاستدراج كما اسلفنا قد يجيء لهداية الإنسان إلى طريق الحق والصواب، فهو بمثابة إعطاء الفرصة للعباد وإمهالهم للتفكير والتدبر وصولاً إلى الهداية، فكأن الاستدراج يعطيهم سقفاً زمنياً وفرصةً لن تتكرر للتوبة وتصحيح أخطائهم، تلطفاً منه ﷺ بهم وتحذيراً لهم من مغبة الانغماس في الذنوب والمعاصي، وذلك عن طريق استعمال التلطف في التعبير المبني على استدراجهم لغايات سماوية سامية، بهذا نستطيع القول إن الاستدراج المعني في موضوعنا هنا هو استعمال النصّ القرآني لمنظومة خطابية في غاية البلاغة تستدرج المخاطب وتوصله إلى الهداية والعقيدة التي تريدها السماء من دون إشعار المتلقي بذلك، لتخضعه تدريجياً إلى الإيمان وعن قناعة لأداء المطلوب الذي يمليه النصّ المعجز عليه بكلّ تلطف وعناية.

ومن جنس الاستدراج، ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾^(١).

إذ تضمّنت هذه الآية الحوار الذي دار بين مؤمن آل فرعون وقومه بعدما أرادوا قتل نبي الله موسى عليه السلام وهو استدراج واضح (الآ ترى ما أحسن مأخذ هذا الكلام وأطفه فإنه أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم؛ فقال: لا يخلو هذا الرجل من أن يكون كاذباً فكذبه يعود عليه ولا يتعداه، أو يكن صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم إن تعرضتم له، وفي هذا الكلام من حسن الأدب والإنصاف)^(٢)، فهو يحاور عقولهم ويجادلهم كأنه يقول لهم (أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة وما لكم عليه في ارتكابها إلا كلمة الحق التي نطق بها، وهي قوله: ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾، مع أنه ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: أي من عند من نسب إليه الربوبية، وهو ربكم لا ربه وحده؟ وهذا استدراج إلى

(١) سورة غافر: ٢٨.

(٢) ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٢ / ٢٥١.

الاعتراف^(١)، فتضمن تلطفاً لاستقطاب القوم إلى الإيمان بنبوة موسى عليه السلام وتصديقه، ويتضح الاستدراج التلطفي في قوله: (يكتُم إيمانه) فهو بذلك يخفي إيمانه فكان ذلك (رفقاً بقومه ثم أظهره بعد ذلك)^(٢)، فلو أنه صرّح بإيمانه لما سمعوا نصيحته التي أبدأها ولقتلوه، ولذا أراد استدراج القوم فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رجلاً أن يقول ربي الله﴾ فاستعمل أسلوب (استفهام على سبيل الإنكار، وقد ذكر في هذا الكلام ما يدل على حسن ذلك الاستنكار، وذلك لأنه ما زاد على أن قال: ﴿ربي الله﴾^(٣)، فلم يقل لهم صراحة (لا تقتلوا نبي الله) ولو أنه قال ذلك لقتلوه بلا شك فهو السبب الرئيس في رغبتهم على قتله، فاستعمل التلطف، إذ تدخل هذا الرجل لينهاهم بطريقة الاستفهام الاستنكاري المبني على التلطف قائلاً: ﴿أَتَقْتُلُونَ رجلاً أن يقول ربي الله﴾ فتحدّث معهم بلين ولطف تلطفاً منه لاستدراجهم من أجل نهيهم عن هذه الجريمة النكراء، ومن دواعي تلطفه في التعبير أنه لم يستعمل لفظة نبي بل قال (رجلاً) كي يستميل قلوبهم ويُطفئ حقدهم وثورتهم لقتله لأنه نبي، وقوله (ربي الله) ليس بجريمة يستحق من أجلها القتل، ولنتريث لنفهم منه ما يريد منا ومن هو الله وكيف يثبت لنا بأنه نبي فعلاً بالأدلة والقرائن؟ وكان الرجل المؤمن أراد أن يغيّر مجريات ما يحدث ويخرج فكرة القتل من عقولهم وأنه لا بد لنا من فسح المجال أمام النبي ليُبين لهم ما يريده، وبدلاً من محاولة قتله علينا أن ننصت لما جاء به ليثبت صدق دعواه لعله يقنعنا وتكون لديه حجة ودليل يقودنا إلى الحقيقة، ففي استنكاره هذا أيضاً منطوقاً عقلائياً و(نكتة جليّة) وهي أن من يقول ربي الله أو فلان لا يقتضي أن يقابل بالقتل كما لا تقابلون بالقتل إذا قلتُم: ربنا فرعون كيف وقد جعل ربه من

(١) الأندلسي: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين (ت ٧٤٥هـ): تفسير البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، مطبعة دار الكتب العلمية - بيروت، ٢٠٠١م: ٧ / ٤٤٤.

(٢) العز بن عبد السلام: تفسير العز بن عبد السلام: ٣ / ١٥.

(٣) الرازي: التفسير الكبير: ٢٧ / ٥٧.

هو ربكم فكان عليكم بأن تعزروه وتوقروه لا أن تخذلوه وتقتلوه^(١). وهي رسالة عظيمة مفادها نبذ منطق العنف والقتل مع من يختلفون معنا بالمعتقد بل ما يمليه علينا العقل وتوكده الأديان السماوية؛ إنَّ السبيل الوحيد هو الحوار العقلاني الذي يستند على الأدلة والبراهين؛ ليتضح الحق من الباطل، وهو المنطق الذي تبتغيه السماء، ثم قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي أنه لم يأت خالي الوفاض وكان يمتلك ما يثبت دعواه والسؤال موجه لكم أيها القوم (هل فيكم من يستطيع إن ينكر معاجزه، مثل معجزة العصا واليد البيضاء؟ ألم تشاهدوا بأعينكم انتصاره على السحرة، بحيث أن جميعهم استسلموا له وأذعنوا لعقيدته عن قناعة تامة، ولم يرضخوا لتهديدات فرعون ووعيده، ولا لإغراءاته وأمنيته، بل استرخصوا الأرواح في سبيل الحق)^(٢)، فكل هذه الآيات المعجزة التي شهدتموها كافية لأن تركزوا له وترجحوا أن الحق معه وتستطيعون أن تطالبوه بأكثر من ذلك إن كان يعتریکم بعض الشك، ثم عاد النص ليقول: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ﴾ ففي هذا تُلطف أيضاً فقد (احتج عليهم بطريق التقسيم فإنه لا يخلو من أن يكون كاذباً أو صادقاً فن يك كاذباً فعليه وبال كذبه ولا يتخطاه، وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم من العذاب، ولم يقل: (كل الذي يعدكم) مع أنه نبي صادق القول؛ مداراة لهم وسلوكاً لطريق الإنصاف، فجاء بما هو أقرب إلى تسليمهم له وليس فيه نفي إصابة الكل فكأنه قال لهم: لعل ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعض ما يعدكم وهو العذاب العاجل)^(٣).

فهذا الاستدراج الذي أوقعه مؤمن آل فرعون في نفوسهم كان تُلطفاً بهم لا بنبي الله ﷺ فقط، ذلك بأن الأنبياء لا يخافون القتل في سبيل إعلاء كلمة الحق والدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد، لذا فإن هذا التلطف يشملهم بالأخص فقد (أوضح لهم أولاً: أن عمل موسى

(١) الألويسي: روح المعاني: ٢٤ / ٦٤.

(٢) ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كلام الله المنزل: ١٥ / ٢٤٧.

(٣) النسفي: أبو البركات عبد الله بن احمد بن محمود(ت٥٣٧هـ): تفسير النسفي، دط، دبت، ٤ /

ﷺ لا يحتاج إلى ردة فعل شديدة كهذه، ثم عليكم أن لا تنسوا أن الرجل يملك الأدلة والبراهين، ويظهر أنها أدلة معتبرة، لذا فإن محاربة مثل هذا الرجل تعتبر خطراً واضحاً، والموضوع برمته لا يحتاج إلى موقف منكم، فإذا كان كاذباً فسينال جزاءه من قبل الله، ولكن يحتمل أن يكون صادقاً، وعندها لن يتركنا الله لحالنا^(١)، وبذلك يتبين لنا كيف أن مؤمن آل فرعون قد استدرجهم من خلال خطابه معهم وتلطفه بهم فلم ينهاهم عما يريدون فعله؛ بل استنكر عليهم فعلهم وحاول إقناعهم بمنحه فرصة لإثبات دعواه وصحة نبوته، فلم يواجههم بشكل مباشر بالنهي أبداً، بل حاكى عقولهم باستعمال الكلام المنصف معهم ولم يأت على ذكر نبوته بل جرى معتقدهم ليوصلهم إلى ما يرجوه، ومذكراً إياهم بما جاء به نبي الله من الأدلة والمعجزات.

وجاء التلطف بالاستدراج، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَرَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِفْلِينَ ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢).

تحدثت هذه الآيات عن حوارٍ دار بين إبراهيم ﷺ وأبيه أزر وقد اختلف في أن يكون أزر أبو إبراهيم ﷺ أو عمه أو أنه جده لأمه، ومهما يكن فإن الأب في اللغة قد تطلق ويراد منها الأب والجد والعم وزوج الأم أيضاً، ويراد منها كل من يتحمل مسؤولية شخص ما أو تدبير أموره^(٣).

وما يهمنا هنا هو الحوار الذي جاء على لسان إبراهيم ﷺ مع أبيه وهو بصدد هداية أبيه وقومه، لنجد أن ثمة استدراجاً واضحاً في حوارهِ، بدءاً باستنكاره على أبيه لعبادته للأصنام من دون الله تعالى، بقوله: ﴿أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

(١) ناصر مكارم الشيرازي : الأمثل في تفسير كلام الله المنزل: ١٥ / ٢٤٩.

(٢) سورة الأنعام: ٧٤ - ٧٩.

(٣) يُنظر: الطباطبائي : الميزان : ٧ / ١٩٤.

مستعملاً أسلوب (الاستفهام للإنكار: أي أتجعلها آلهة لك تعبدها)^(١)، فلم يخاطبه بشكل مباشر ليقول له: (إِيَّاكَ وَعِبَادَةَ الْأَصْنَامِ)، بل تلطف به واستدرجه؛ كي لا يكون لكلامه أثر سلبي على أبيه؛ من شأنه أن يولد لديه ردّة فعل شديدة تجاهه ﷺ فيما لو واجهه بالحقيقة التي من الصعب أن يتحملها أبوه، ذلك أنه كان معتقداً كلياً بعبادة الأصنام، الأمر الذي لا يسمح به الوضع لنبي الله بأن ينهاه عن دينه ويعرض عليه دين الحقّ، فعدل عن استعمال الكلام المباشر إلى الاستدراج بوصفه وسيلةً تُلطِّفِيَةً في التعبير لجذب المتلقي وشد انتباهه، فالآية بالنتيجة هي الدعوة لعبادة الله الواحد الأحد، ونبذ كلّ معتقد فاسد، ف جاء بلفظة الأصنام في قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ نكرة دلالة على هوانها، والمعنى (أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا لَا خَطَرَ فِي أَمْرِهَا آلِهَةً وَالْإِلَهَ هُوَ الَّذِي فِي أَمْرِهِ خَطَرٌ عَظِيمٌ)^(٢)، ثمّ جاء قوله: ﴿إِنِّي أُرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، إذ استعمل الخطاب غير المباشر فلم يقل لأبيه (أنت وقومك في ضلال مبين) فلم يحسم الأمر ويحكم عليه قطعاً بالضلالة، بل كأنه قال: (أحسب أنك وقومك في ضلال واضح إذا ما بقيتم على عبادة الأصنام) ليبقى باب الحوار مفتوحاً وفرصة التفكير متاحة أمام أبيه وقومه، فيفسح المجال له بأن يتساءل عن علة رأي إبراهيم ﷺ فيهم بأنهم في ضلال مبين، إثارةً لفضوله لمعرفة السبب ووجهة نظر إبراهيم ﷺ فيما يقول، فيتحقق التلطف بالاستدراج الذي يبتغيه من لفت انتباههم ومناقشتهم له، ليجيبهم ﷺ ويبين لهم مع الأدلة التي لا تقبل الشكّ، فيستدرج أبيه إلى الإيمان بالله وترك عبادة الأصنام تلطفاً.

فأسلوب الاستدراج هنا تُلطِّف جرت عليه عادة الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم، فكيف وهو يحاور أباه، فلم يستعمل الكلمة الشديدة أو الغليظة؛ ذلك بأنّ (مشافهة الأب بالجفاء لا يجوز لما فيه من الإيذاء وآية التآفيف بفحواها تعمّ سائر أنواع الإيذاءات كعمومها للأب الكافر والمسلم، وأيضاً إنّ الله تعالى لما بعث موسى ﷺ إلى فرعون أمره بالرفق معه والقول اللين له رعاية لحق التربية وهي في الوالد أتم، وأيضاً الدعوة

(١) الألوسي: روح المعاني: ٧ / ١٩٤.

(٢) الطباطبائي: الميزان: ٧ / ١٦٨ - ١٦٩.

بالرفق أكثر تأثيراً فإنّ الخشونة توجب النفرة فلا تليق من غير إبراهيم عليه السلام مع الأجنبي، فكيف تليق منه مع أبيه وهو الأواه الحليم^(١).

لنلحظ إنّ الاستدراج كان وسيلة تطفية أريد منه استجلاب المخاطب، وهو ما يتناسب وخلق نبي الله إبراهيم عليه السلام المهذب فلم يكن منه إلا أن يتلطف في خطابه ودعوته لنبذ عبادة الأصنام وعبادة الله الواحد الأحد.

ثمّ انتقل الخطاب إلى صورة أخرى تأخذنا؛ لتسرد لنا الحدث الزمني، إذ يقول (فلما جنّ عليه الليل) حيث يروي لنا كيف إنّ إبراهيم عليه السلام استدرجهم لإثبات بطلان ما يعبدون، إذ (كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب فأراد أن يذبهم على الخطأ في دينهم وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أنّ النظر الصحيح مؤد إلى أنّ شيئاً منها لا يصح إنّ يكون إلهاً لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها مُحدث أحدثها وصانع صنعها ومدبر دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها)^(٢)،

فكان اختياراً ذكياً مع تُلطف ومراعاة فاستمالهم لما يرجو فالغاية منه أنه (أراد إنّ يستدرجهم بهذا القول ويعرفهم خطأهم في تعظيم ما عظموا ويقيم الحجّة ويُريهم أنّه معظم ما يعظموه ويلتمس الهدى من حيث التمسوا فلما أفل رأيهم النقص الداخل في النجوم ليتبينوا خطأ ما يدعون وكانوا يعظمون النجوم ويعبدونها ويحكمونها)^(٣)، وبذلك فقد استدرج أباه وقومه، متلطفاً بهم ومحاكياً لنظرهم لكي يستجيبوا لمبتغاه، ويفتنعوا بأن الأصنام التي يعبدون لا تصلح أن تكون آلهةً لتُعبَد من دون الله الواحد الأحد، فتدرج معهم في الاستدلال على بطلان عقيدتهم وتلطف في مجاراتهم، فأظهر لهم وكأنه أراد أن يعبد النجوم والكواكب ولكنه وبعد أن أفلت أثبت لهم بالدليل على أنّها لا تصلح أن تكون

(١) الألوسي: روح المعاني: ١٩٦ / ٧

(٢) الزمخشري: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر عباس ومحمد محمود الحلبي وشركاهم - خلفاء، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م: ٢ / ٢٩ - ٣١

(٣) الثعلبي: أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم النيشابوري (ت ٤٢٧ هـ): الكشاف والبيان عن تفسير القرآن، مطبعة إحياء التراث العربي - بيروت: ٤ / ١٦٤

آلهةً لتعبد ليستميلهم في نهاية الأمر إلى الحقيقة الحقّة وهي أنّ الله الواحد الأحد هو الجدير بالعبادة فهو خال الكواكب التي يعبدون وخالق كل شيء.

من هذا ننتهي إلى أنّ مفهوم الاستدراج عموماً على ثلاثة مضامين، الأول هو استدراج الله تعالى للعباد وذلك بأنّه يملي لهم ليزدادوا إثماً، فهو يغدق عليهم الخيرات ويجعلهم ينعمون بشيء من الراحة والسعة والإنس وأشكال النعم، من أجل أن يوصوا في آثامهم ومعاصيهم حتى يصلوا إلى قمة الاستحقاق العذابي، وهذا له وجهان؛ الوجه الأول متعلق بالذين يغدق الله عليهم الأنعام والخيرات، فينغمسون في لذاتهم حتى يستحقوا العذاب، والوجه الآخر إنّ الله ﷻ يغدق عليهم من كثير الخيرات فينغمسون فيها إلا أنّهم في لحظة ما قد يرعون فينتبهون إلى أنفسهم ويتوبوا ويعودوا إلى رشدهم فيكون الاستدراج في هذه الحالة مدعاة للعودة إلى الله ﷻ والتوبة مما اقترفوه وما انغمسوا فيه حتى أنساهم الحق، فهو اختيار في كلا الحالين، وهذا ليس من التلطف الذي نحن بصدده في شيء.

والمعنى الآخر للاستدراج فهو عملية استدراج الكافرين للمؤمنين للدخول في الضلالة والتهيه لانهم غارقون في الضلال والكفر، فيحاولون إن ينتزعوا المؤمنين من إيمانهم ليعودوا مثلهم كافرين، وهذا الاستدراج هو استدراج مبني على غاية حقيقية باطلة دنيئة ضالة مضلة، وهذا أيضاً لا علاقة له بالتلطف، بل هو خداع وإيهام؛ لأنّه مبني على باطل.

أمّا المعنى الثالث فهو الاستدراج إلى الحق؛ وهو الذي يبتغيه الباحث والذي ينطبق عليه التلطف تحديداً في مراده هذا، ذلك بأنه الاستدراج الذي يكون من الله ﷻ أو من رسوله ﷺ المبني على الغاية الحميدة من أجل هداية الناس ووصولهم إلى طريق الحقّ بالمحصلة النهائية، من ثمّ فإنّ هذا الاستدراج من الممكن إن نطلق عليه لفظة التلطف؛ لأنّ الله ﷻ يتلطف به على عباده دون إن يواجههم بحقيقة أمرهم أو بشاعة صورتهم فيقول لهم أنتم كفرة أو منافقون، إنّما يستعمل أسلوباً آخر؛ هو ما يسمى بكلام المنصف، فيجعل الكافرين والمؤمنين في ميزان واحد من أجل أن يدركوا أين الحقّ وأين الباطل فلا يمكن معرفة الباطل ما لم تضع الحق معه في ميزان واحد لكي تتضح الرؤية

جلية لهم، فهذا المضمون الأخير هو ما يريده الباحث وما ينطبق عليه مفهوم التلطف من الله ﷻ الذي يمثله الاستدراج المبني على غاية حميدة لإيصال الناس إلى الهداية.

هكذا يتجلى لنا بأن الاستدراج في النص القرآني، ليس مجرد إهمال، أو اختبار؛ بل هو وجه من وجوه التلطف التي تهدف في كثير من الأحيان إلى استنقاذ النفوس من الغفلة وانغماسها في النعم، فهو ﷻ لا يقطع عن العبد سبل التذكير، بل يفتح أمامه أبواباً متعددة للرجوع إليه، تتنوع هذه السبل بين النعم المتوالية، والمواقف التي من شأنها أن توقظ القلب، فمتى ما وعى العبد تلك الإشارات الربانية، وتنبّه إلى نعم الله التي لا تعد ولا تحصى، ولاحظ في قبالتها تقصيره وغفلته وابتعاده عن الحق، عند ذلك ينبغي عليه العودة إلى الله ﷻ .

المبحث الثالث

دلالة أسلوب الحجاج

يُعدّ الحجاج في النصّ القرآني من أبرز الأساليب البلاغية التي تهدف إلى الإقناع والتأثير في المتلقي، وذلك عن طريق تقديم الحجج والبراهين بطريقة منطقية ومقنعة. يتجلى هذا الأسلوب في العديد من الآيات التي تخاطب العقول والقلوب معاً، مستخدماً أساليب متنوعة من الاستدلال الرصين والمجادلة الهادئة نحو تحقيق الهدف المنشود.

ومن اللافت في هذا السياق أنّ القرآن الكريم قد استعمل التلطف بأسلوب الحجاج في الخطاب، إذ يُقدّم الجدل بأدب واحترام دون تجريح أو تصريح حاد أو تعنيف؛ يتضح ذلك جلياً في دعوة الله تعالى لنبيه للحوار بالحكمة والموعظة الحسنة، كما في قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(١).

إنّ هذا التلازم بين الحجاج والتلطف يعكس سمّو الأسلوب القرآني في إقناع المخاطبين دون إثارة العناد أو النفور، مما يعكس بوضوح قيم التسامح والرحمة التي يقوم عليها الخطاب الإسلامي، فالحجاج في النصّ القرآني من أبرز الأساليب البلاغية التي تهدف إلى إقناع المخاطب وتوجيه فكره نحو الحقائق الإيمانية والوجودية بطريقة منطقية ومؤثرة، ويتميّز الحجاج القرآني بالقوة والوضوح، إذ يعرض البراهين والأدلة بشكل عقلائي منطقي يلامس الفطرة البشرية، ويظهر ذلك في العديد من المواضع التي يتناول فيها القرآن قضايا التوحيد، والنبوة، والمعاد، وقيم العدل والرحمة، مستخدماً أساليب متنوعة من الاستدلال، مثل: المقارنة، والمثال، والحوار.

ويتميّز الحجاج القرآني بتنوع أساليبه، حيث يستخدم أحياناً الأسلوب الخطابي لإثارة المشاعر والوجدان، ليدفع المخاطب إلى التفكير المنطقي للوصول إلى الإجابة الصحيحة بنفسه، ومن أبرز سمات الحجاج القرآني أنّه يجمع بين قوة الحجّة وجمال الأسلوب، حيث يُقدّم بطريقة مهذبة تراعي مشاعر المخاطب وتحترم عقله، وهذا ما يُعبر عنه بمفهوم (التلطف) في الخطاب، فالتلطف في القرآن لا يعني الضعف أو التنازل، بل هو

(١) سورة النحل: ١٢٥.

استراتيجية بلاغية تهدف إلى كسب القلوب قبل العقول، وإزالة الحواجز النفسية التي قد تحول دون تقبل الحق، يتجلى ذلك في الحوار الهادئ والمقنع مع المخالفين، كما في حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾^(١)، فهذا الخطاب يحمل من التلطف ما يمهد لتقبل الحجّة، كما يظهر التلطف في دعوة القرآن الكريم إلى المجادلة والتي هي أحسن، حيث يُشترط في الحوار القرآني الابتعاد عن الغلظة والفظاظة، والالتزام باللفظ في عرض الحجّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٢)، وهذا يعكس المنهج القرآني في الجمع بين قوة الدليل ورفق الأسلوب، مما يعزز من فاعلية الحجاج وتأثيره الإيجابي.

إذًا، يمكن القول إنّ العلاقة بين الحجاج والتلطف في النصّ القرآني هي علاقة تكاملية تهدف إلى تحقيق الإقناع دون عناد، والتأثير دون إكراه، وهذا ما يجعل الحجاج القرآني نموذجًا رفيعًا للفصاحة والبلاغة، حيث يجمع بين الإقناع العقلي والجاذبية الوجدانية، مما يحقق الغاية الأساسية للخطاب القرآني في الهداية والإرشاد.

أولاً: مفهوم الحجاج في اللغة

الحجاج ليس بمفهوم جديد، بل هو مصطلح قديم تعددت معانيه معجمياً واصطلاحياً، لذا لا تكاد تخلو معجمات اللغة من عرض جملة معانٍ للحجاج، فقد ورد في معجم لسان العرب أنّه من (حاج وحاجته أحاجه حجاجاً، ومحاجة حتى حاجته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها وحاجه محاجة وحجاجاً نازعه الحجّة والحجّة البرهان وقيل الحجّة ما دافع به الخصم)^(٣)، وعلى هذا النحو يكون (الحجاج مرادفاً للجدل، ومراوحتهم بينهما في الاستعمال... من شأنه أن يضيق مجال الحجاج ويغرقه في الجدل، فالججاج أوسع من الجدل، فكلُّ جدلٍ حجاج وليس كلُّ حجاج جدل)^(٤)، إلا أن أبا هلال

(١) سورة مريم : ٤٢ .

(٢) سورة العنكبوت: ٤٦ .

(٣) ابن منظور: لسان العرب: ٢ / ٢٥٧ .

(٤) عبد الله صولة : الحجاج في القرآن من خلال خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي - بيروت ، ط

٢، ٢٠٠٧م : ١٥ - ١٧ .

العسكري(ت٣٩٥هـ) فرق بين مفهوم الاحتجاج ومفهوم الاستدلال، وبين مفهومي الحجّة والدلالة والبرهان بقوله إنّ(الحجّة هي الاستقامة في النظر والمضي فيه على سنن مستقيم من رد الفرع إلى الأصل وهي مأخوذة من الحجّة وهي الطريق المستقيم وهذا هو فعله المستدل وليس من الدلالة في شيء، وتأثير الحجّة في النفس كتأثير البرهان فيها، وإنّما تنفصل الحجّة من البرهان لان الحجّة مشتقة من معنى الاستقامة في القصد حج يحج إذا استقام في قصده، والبرهان لا يعرف له اشتقاق وينبغي أن يكون لغة مفردة)^(١)، وكذلك فإنّه(يمكن التمييز بين الحجاج والبرهان، فالحجاج فردي، يقوم على الرأي، وهدفه الإقناع والتأثير، بينما البرهان يعتمد على اللغة الرمزية النموذج، ومجاله المنطق، وهدفه التفريق بين الخطأ والصواب)^(٢)، وكذلك يأتي بمعانٍ، منها +أن(الحجّ): (الغلبة بالحجّة)، يقال: حجّه يحجّه حجاً، إذا غلبه على حجّته، وفي الحديث: (فحج آدم موسى) أي غلبه بالحجّة، والحجّ: (كثرة الاختلاف والتردد)، وقد حجّ بنو فلان فلاناً، إذا أطالوا الاختلاف إليه، وفي التهذيب: وتقول: حجبت فلاناً، إذا أتيتّه مرّة بعد مرّة، فقيل: حجّ البيت؛ لأنهم يأتونه كلّ سنة)^(٣)، وأكثر معانيه وروداً بالمحاجة، لذا(يقال: حاجتّه أحاجه حجاجاً ومحاجةً حتى حجّته، أي غلبته بالحجّ التي أدلّيت بها، وأداه اللجاج إلى أن حجّ البيت الحرام وسلك المحجّة، وهي الطريق، وقيل: جادّة الطريق، وقيل: محجّة الطريق: سنّته، والجمع المحاج، تقول: عليكم بالمناهج النيرة، والمحاج الواضحة، والحجّة بالضم: مصدر بمعنى الاحتجاج والاستدلال، وفي التهذيب محجّة الطريق: هي المقصد والمسلك)^(٤)، وبذا فإنّ المعنى المراد من الحجاج هو القصد والمسلك أو كثرة الاختلاف والتردد، ومنه اختص الحج بالقصد إلى بيت الله الحرام، وقد يدلّ على الاستقامة في النظر أي الطريق المستقيم، وقد يدلّ أيضاً على المخاصمة والمغالبة.

(١) العسكري: الفروق اللغوية : ٢٢.

(٢) بلقاسم دفة: استراتيجية الخطاب الحجاجي – دراسة تداولية في الأساليب الإشهارية العربية – مجلة المخبر- أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة – الجزائر، العدد العاشر، ٢٠١٤، ٢٩٩.

(٣) الزبيدي : تاج العروس : ٣ / ٣١٤.

(٤) م. ن: ٣ / ٣١٨.

ثانياً: مفهوم الحجاج في الاصطلاح:

يختلف مفهوم الحجاج اصطلاحاً من حقل إلى آخر، فمفهوم الحجاج في الفلسفة ليس كمفهومه المنطقي، فضلاً عن مفهومه البلاغي، وهذا الاختلاف والتنوع جعل مفهوم الحجاج من المفاهيم التي يصعب الإحاطة بها، لارتباط المفهوم بأكثر من حقل معرفي واحد، وقد استعملت مصطلحات (الجدل) و(المناظرة) و (الاحتجاج) بما يقارب الحجاج، فقد عرّف الشريف الجرجاني الحجاج بأنّ (الحجّة ما دلّ به على صحة الدعوى وقيل الحجّة والدليل واحد)^(١)، فالحجّة والدليل بمعنى واحد عند الشريف الجرجاني وهو بهذا يرمي إلى أنّ الحجاج أساسه التركيز على موضوع ما أو قضية ما، وبيان موقف بالإثبات والأدلة على صحة الدعوى اتجاه الخصم ودحض وتنفيذ آرائه بالتأثير عليه وإقناعه بالبراهين، ولذا استعمل الحجاج للإثبات فـ(قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة)^(٢)، فالحجاج (هو سلسلة من الحجج تتجه جميعها نحو نفس النتيجة أو هو الكيفية التي تُقدم بها الحجج وتنظم وهو مجموعة من الاستدلالات الموجهة لإثبات أطروحة)^(٣)، وبما أنّ الكلام حول استدلالات؛ فهي موجهة للعقل وطريقة التأثير فيه، (فالتأثير يقود إلى الانخراط لأنّه يملك تقنيات التعبئة ويتموضع داخل علاقات القوى وعلاقات الإغراء المتبادلة وما تحمله من شحنات عاطفية، والاستدلال ينشئ الروابط بين الضايا ويعمل على توسيع وتدعيم حل المعرفة)^(٤)، ورأى آخر أنّ مفردة الحجاج ومفردة المحاجة بمعنى واحد فـ(لقد حدثت المحاجة أو الحجاج عموماً بكونها سلسلة من الأدلة تفضي إلى نتيجة واحدة أو هي الطريقة التي تطرح بها الأدلة)^(٥)، وعرّفه آخر بقوله: (إنّ الحجاج هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة وهو يتمثل في إنجاز متواليات من الأقوال؛ بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تنتج

(١) الشريف الجرجاني: علي بن محمد بن علي (ت ٨١٦هـ): معجم التعريفات، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، د.ط، د.ت: ٨٥.

(٢) الزركشي: البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣٠.

(٣) محمد طروس: النظرية الحجاجية، دار الثقافة الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠٥: ٨.

(٤) م. ن: ٩.

(٥) عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: ١٧.

عنها^(١)، وبالتالي فإنه لا يستهدف القضايا البديهية بل القضايا التي يشوبها الشك، فتحتاج إلى إمعان النظر وإيراد الحجج الدامغة، وقد حدد مفهوم الحجاج المؤلفان (بيرلمان وتيتكاه) من خلال بيان موضوعه وغايته، فـ (موضوع نظرية الحجاج هو درس تقنيات الخطاب، التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو تزيد في درجة ذلك التسليم)^(٢).

ثالثاً: الشواهد القرآنية على الحجاج:

يتجلى في النصّ القرآني العديد من الشواهد التي تجمع بين الحجاج والتلطف في الخطاب، حيث يُقدم البرهان العقلي بإيراد الأدلة والإثباتات بأسلوب تلطفي حكيم ومؤثر، منها حوار إبراهيم عليه السلام مع النمرود، إذ يروي لنا النصّ القرآني تلك الحوارية بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣)، فـ(قوله: ﴿ألم تر إلى فلان كيف يصنع، وفيه معنى هل رأيت كفلان في صنيعه كذا﴾^(٤)، فالقرآن يستنكر ويتعجب من جرأة الكافر الذي يحاجج نبي الله إبراهيم عليه السلام، فـ(قوله: ﴿إذ قال إبراهيم ربِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ معناه: يحيي الميت ويميت الحي، فقال الكافر عند ذلك: ﴿أنا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ يعني: أُحْيِيهِ بالتخلية من الحبس ممّن وجب عليه القتل، وأميت بالقتل من شئت ممن هو حي، وهذا جهل منه، لأنّه اعتمد في المعارضة على العبارة فقط دون المعنى، عادلاً عن وجه الحجة بفعل الحياة للميت على سبيل الاختراع، كما يفعله الله تعالى من إحياء من قُتِلَ أو مَاتَ ودُفِنَ وذلك معجز لا يقدر عليه سواه، فقال إبراهيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ ولم يكن ذلك انتقالاً من إبراهيم من دليل إلى دليل آخر من وجهين: أحدهما: أنّ ذلك لا يجوز من كلّ حكيم بعد تمام ما ابتدأ به من

(١) أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٦ : ١٥.

(٢) عبد الله صولة : الحجاج في القرآن من خلال اهم خصائصه الأسلوبية: ٢٧.

(٣) سورة البقرة: ٢٥٨.

(٤) الطوسي: التبيان في تفسير القرآن: ٢ / ٣١٦.

الحجاج، وعلامة تمامه ظهوره من غير اعتراض عليه بشبهة لها تأثير عند التأمل والتدبر لموقعها من الحجّة المعتمد عليها، الثاني: أنّ إبراهيم إنّما قال ذلك ليتبين أنّ من شأن من يقدر على إحياء الأموات وإماتة الأحياء أن يقدر على إتيان الشمس من المشرق، فإنّ كنت قادراً على ذلك فأت بها من المغرب، فبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ^(١)، فمسايرة إبراهيم ﷺ للنمرود بإيراد الحجّة الثانية لم تكن لضعف منه؛ بل لمجاراة عقلية النمرود؛ إذ ظن أنّ الإحياء والإماتة بالصورة التي اعتقدها لجهله وقلة علمه فتلطف إبراهيم ﷺ معه منتقلاً إلى حجّة أخرى ليفهمه ما لم يستطع فهمه بحجّة دامغة، فبدلاً من أن يقول (إنّك جاهل فليس هذا ما أردته بالإحياء والإماتة فعلى الرغم من أنّك كافر أتضح بأنك جاهل ضعيف العقل أيضاً)، وبدلاً من مواجهته بهذا القول انتقل تلطفاً إلى الحجّة الأخرى ليكشف له المراد، وهو ما يؤكد ابن شهر آشوب بقوله: (ليس انتقال إبراهيم من حجّة إلى حجّة لعجزه وإنّما عدل عن ذلك لكيلا يلتبس على الحاضرين ولم تقو الشبهة ويقال إنّه دعا رجلين فقتل أحدهما واستحيا الآخر فقال عند ذلك أنا أحيي وأميت وموه بذلك على من بحضرته فعدل إبراهيم عن ذلك إلى ما هو أبعد من الشبهة فصل)^(٢).

وقد يُثار تساؤل عن علّة هذا الانتقال فـ (إن قيل لم يثبت إبراهيم على الحجّة الأولى وانتقل إلى حجّة أخرى والانتقال في المناظرة من حجّة إلى حجّة غير محمود قيل له الانتقال على ضربين انتقال محمود إذا كان بعد الإلزام، وانتقال مذموم إذا كان قبل الإلزام وإبراهيم ﷺ انتقل بعد الإلزام لأنّه قد بين له فساد قوله حيث قال إنّك قد أحييت الحي ولم تحيي الميت، وجواب آخر إنّ قصد إبراهيم ﷺ لم يكن للمناظرة وإنّما كان قصده إظهار الحجّة فترك مناظرته في الإحياء والإماتة على ترك الإطالة وأخذ بالاحتجاج بالحجّة المسكتة ولأنّ الكافر هو الذي ترك حد النظر حيث لم يسأل عما قال له إبراهيم ولكنه اشتغل بالجواب عن ذات نفسه حيث قال أنا أحيي وأميت وقوله ﷺ

(١) ابن إدريس الحلي: المنتخب من تفسير القرآن والنكت المستخرجة من كتاب التبيان : ١ / ١٤٢.

(٢) ابن شهر آشوب: محمد بن علي بن شهر آشوب السروي المازندراني: متشابه القرآن ومختلفه،

انتشارات بيدار، ١٣٢٨هـ، ١ / ٢٢١.

﴿فبهت الذي كفر﴾ يعني انقطع وسكت متحيراً يقال: بهت الرجل إذا تحير^(١)، ولو أن النمرود أدعى أنه هو من يأتي بالشمس من المشرق لكان لزاماً عليه وهذه القدرة التي لا يمتلك؛ أن يأتي بها من المغرب ولذا أخرسته هذه الحجّة وأجمته فبهت، فالحوارية التي دارت بين إبراهيم عليه السلام والنمرود خير مثال على تلطف في التعبير، فحتى مع الكافر المعاند والمتعطرس كان هناك تلطف ورعاية، فمجرد فتح باب الحوار والمجادلة معه، بحد ذاته يُعدُّ تلطفاً منه عليه السلام، إذ سمح له بأن يحاجج إبراهيم عليه السلام بمنتهى الحرية، فكان حواراً ثقافياً في غاية الرقي ليرينا الله بذلك سمو وعظمة رسالة السماء فيما تبتغيه من هداية وصلاح للإنسانية جمعاء ودرساً عظيماً ومنهجاً قيماً في كيفية التعاطي مع المخالف والمعاند وفسح المجال أمامه ليبيد آراءه بكل حرية ويجادل ويحاجج من دون إقصاء، فالهدوء والثبات كانا واضحين في كلام إبراهيم عليه السلام فلم يتجه عليه السلام إلى السخرية أو التقليل من شأن النمرود، بل بدأ بمحاججته بكل تلطف، فبدأ متلطفاً بإيراد الحجّة البسيطة التي تناسب مستوى النمرود ليوقعه من بعد ذلك ويستدرجه بكلّ هدوء إلى الحجّة الأعظم، من دون تعنيف أو توبيخ أو إهانة أو قسوة أو تجريح للنمرود ليتركه مدهوشاً أمام عجزه الفكري، ليثبت لنا عليه السلام بهذا أن الحق لا يخشى المواجهة أو الحجاج مع الآخر لأنه المنتصر لا محالة.

ومن الشواهد القرآنية الأخرى هي الحوارية التي جرت بين نبي الله إبراهيم عليه السلام وقومه، إذ جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾^(٢)، والمعنى المراد (أي: هل يسمعون دعاءكم (إذ تدعون) معناه: هل يستجيبون دعاءكم إذا دعوتموهم (أو ينفعونكم) إذا عبدتموهم (أو يضررون) إن تركتم عبادتها، وفي هذا بيان أن الدين إنما يثبت بالحجة، ولولا ذلك لم يحاججهم إبراهيم عليه السلام هذا الحجاج^(٣)، وجوابهم لإبراهيم عليه السلام هو ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وهذه الإجابة هي الإجابة المعتادة التي أعتاد عليها كل من

(١) السمرقندي: نصر بن محمد بن محمد (ت ٣٨٣هـ): تفسير السمرقندي، تحقيق: محمود مطرجي،

مطبعة دار الفكر - بيروت، دت، ١ / ١٩٦.

(٢) سورة الشعراء : ٧٢ - ٧٤.

(٣) الطبرسي: تفسير مجمع البيان : ٧ / ٣٣٥.

يترك غيره يفكر نيابة عنه فيقلد من سبقه (وهذا إخبار عن تقليدهم آباءهم في عبادة الأصنام)^(١)، وهو بيان واضح من السماء يعلن فيه عن رفضه للتقليد الأعمى بكل وجوهه من دون دليل وحبّة فـ (أضربوا عن أن يكون لهم سمع، أو يتوقّع منهم ضرر أو نفع، والتجؤوا إلى التقليد)^(٢)، فتلطف ﷺ معهم بالحة والبرهان (وفي هذا بيان أن الدين إنّما يثبت بالحبّة، ولولا ذلك لم يحاجّهم إبراهيم ﷺ هذا الحجاج)^(٣)، فبدلاً من أن يقول لهم هذه حجارة وأنّهم جهلة ظالمين؛ عمد إلى استعمال التلطف في التعبير بالمحاجة لبيان الغاية والمعنى بهدوء، ومن الالتفاتات العميقة في بيان هذه الآيات ما أورده أحد المفسرين بقوله: (من شأن المعبود أن يسمع ويرى، وينفع ويضر، فهل تتوافر هذه الصفات فيما تعبدون؟ والاستفهام هنا للإنكار، «قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ» هذا اعتراف صريح بأنّهم مقلدون، ولا عجب فقد رأينا في القرن العشرين وعصر الفضاء، رأينا أتباع الأحزاب والمنظمات بشتى أنواعها يقلدون رؤساءهم، ويستدلون بأقوالهم، ويأخذونها أخذ البديهيّات من غير تحقيق وتمحيص)^(٤).

وفي سرد هذه الحوارية بين إبراهيم ﷺ وقومه لطف بنينا محمّد وتهوين لحاله (فقد ذكر سبحانه في هذه الآية قصّة إبراهيم ﷺ ليُعرف محمّد ﷺ أنّ حزن إبراهيم كان بسبب عدم إيمان قومه وهو كان حزنه مثل حزنك على قومك وأيّ حزن أعظم من أن يرى الإنسان أقاربه في النار وهو لا يتمكّن من إنقاذهم إلّا بالدعوة ولا يفيد الدعوة، فقال لهم: «ما تَعْبُدُونَ» وكان يعلم إبراهيم أنّهم عبدة الأصنام ولكنّه سألهم لإلقاء الحبّة عليهم فأجابوا بقولهم: «قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ» والعكوف الإقامة على الشيء)^(٥)، فخطاب العقل المبني على الاستدلال الصحيح والبرهان الذي لا يقبل الشكّ هو ما دأب عليه أنبياء الله تعالى في حوارهم مع أقوامهم، وذلك لما يختزله الحجاج من وسائل إقناعية مؤثرة وبطرح فيه من التلطف الشيء الكثير، لدحض كل معتقد فاسد، ومن نظير

(١) الطبرسي: تفسير مجمع البيان: ٣٣٥ / ٧.

(٢) الكاشاني: زبدة التفاسير: ٢٨ / ٥.

(٣) م. ن: ٢٨ / ٥.

(٤) محمد جواد مغنّية: التفسير الكاشف: ٥٠٢ / ٥.

(٥) مير علي الحائري الطهراني: تفسير مقتنيات الدرر: ٥٠ / ٨.

ذلك ما جاء في قوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(١).

فهذه الحجة العقلانية لا تقبل أدنى شك ولا يختلف فيها اثنان إذ إن (المعنى: لو كان فيهما آلهة سوى الله لفسد أهلها، وقال غيره: أي لو كان فيهما إلهان لفسد التدبير، لأن أحدهما إن أراد شيئاً والآخر ضده كان أحدهما عاجزاً، وقيل: معنى (لفسدتا) أي خربتا وهلك من فيهما بوقوع التنازع بالاختلاف الواقع بين الشركاء، ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ نزه نفسه وأمر العباد أن ينزهوه عن أن يكون له شريك أو ولد)^(٢)، فتصور إلهة غير الله مما لا يمكن قبوله؛ وذلك بـ (إننا لو فرضناه لفرضنا أن يريد أحدهما تسكين جسم والآخر تحريكه، ومستحيل أن تنفذ الإرادتان ومستحيل أن لا تنفذ جميعاً فيكون الجسم لا متحركاً ولا ساكناً، فإن صحت إرادة أحدهما دون الآخر فالذي لم تتم إرادته ليس باله)^(٣)، وقد أوجزت هذه الآية المباركة الكثير، لتؤكد الدلالة أمرين (أحدهما: وجوب أن لا يكون مدبرهما إلا واحداً، والثاني: أن لا يكون ذلك الواحد إلا إياه وحده، لقوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾، وذلك لعلمنا أن الرعية تفسد بتدبير الملكين، لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف، وهو ظاهر)^(٤)، فبدلاً من أن يقول لهم إنكم مشركون ضالون فلا يوجد إلا إله واحد، استعمل التلطف بالحجاج ليوصلهم للدلالة المرجوة، فأبي إله رحيم بعباده يورد الحجة والبرهان ويتلطف بالخلق من أجل أن يفهمهم إنّه لا إله غيره ليستدلوا عليه حين يواجهون عقولهم بهذا الدليل الذي يضيق عليهم الخناق فلا يستطيعون إن يجدوا إجابةً ولا يستطيعوا رداً لتوقن انفسهم بأنه الحق سبحانه وتعالى لا شريك له.

(١) سورة الأنبياء: ٢٢.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١١ / ٢٧٩.

(٣) ابن عطية الأندلسي: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن (ت ٥٤٢هـ): المحرر الوجيز في تفسير كتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، مطبعة لبنان- دار الكتب العلمية، الناشر: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م: ٣ / ٤٥٩.

(٤) الكاشاني: زبدة التفاسير: ٤ / ٣١٠.

ومن جنس الشواهد القرآنية على ذلك أيضاً، هو قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِمٌ﴾^(١).

ف(القصة التي دخلت عليها (إذ) مشتملة على تقاويل الملائكة وإبليس في خلق آدم، واستحقاقه للخلافة والسجود، على ما مرّ في سورة البقرة غير أنّها اختصرت إكتفاءً بذلك، واقتصاراً على ما هو المقصود منها، وهو إنذار المشركين على استكبارهم على النبي ﷺ، بمثل ما حاق بإبليس على استكباره على آدم)^(٢)، فقوله ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ مسنداً إلى (ربك) بصيغة المفرد، أفاد التربية إذ إنّ (الرب في الأصل من التربية وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام)^(٣)، وفيه كذلك دلالة على عظم الأمر الموجه منه سبحانه وتعالى، وضرورة تنفيذه من المتلقي، وقوله سبحانه ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فيه دلالة على أنّ الله ﷻ قد أعطى منزلة عظيمة لآدم، إذ خلقه وسواه، وفي إضافة الياء إلى الروح تكريماً له ﷻ، ثم أمرهم بأن يسجدوا فاختر لفظه (فقعوا) المشتقة من (وقع) دلالة على ضرورة الامتثال والخضوع لأمره تعالى، ذلك بأن الوقوع بمعنى السقوط الذي يكون من أعلى إلى أسفل^(٤)، وفيه دلالة واضحة على ضرورة الانصياع لأمره سبحانه إضافة إلى سرعة التنفيذ ووجوب إكرام آدم ﷻ كما أمروا.

وإنّ القصة قد (أوردت بقصد العظة والاعتبار وضرب المثل، والإشارة إلى ما في عصيان الله والتمرد على أوامره من جريمة منكرة، وإلى أنّ الذين يتمردون على الله ودعوته إنما هم تبع لإبليس، ثمّ إلى ما في مسارعة الملائكة إلى تنفيذ أمر الله والخضوع

(١) سورة ص: ٧١ - ٧٧.

(٢) الكاشاني: زبدة التفاسير: ٤٨ / ٦.

(٣) الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، مطبعة

سليمانزاده، الناشر: طليعة النور، ط ٢، ١٤٢٧ هـ: ١٨٤.

(٤) يُنظر: ابن منظور: لسان العرب: ١٥ / ٣٦٩.

له من المثل الحسن الذي يتضمن تقرير كون الذين يستجيبون إلى الله ودعوته هم سائرون في الطريق القويم الذي سار فيه الملائكة^(١)، فمحااجة الله ﷻ وسؤاله إبليس عن سبب عدم استجابته لأمره تعالى كان من باب التلطف وإيراد السؤال الاستنكاري عليه، مع علمه ﷻ بالمانع إلا مع ذلك سأله لاستنطاق حجته الباطلة، وبيان مدى إنصافه وعدالته ﷻ حتى مع من يعصي أوامرهم، وهو بهذا يعد أسلوباً تربوياً في كيفية التوبيخ، فرحمته ﷻ تسبق غضبه، فإن إبليس لعنه الله لا يستحق أن يُحاجج أو أن يخاطب البتة، وحقه اللعنة لكن الله جلّ وعلا خاطبه بأسلوب الحجاج التلطفي لبيان الحق ومدى عدالته سبحانه حتى مع إبليس الملعون، فمجرد التخاطب معه ومحااجته هي رحمة ولطف إلهي تدلّ على عظمة الله جلّ وعلا وتلطفه بجميع الخلق، فخاطبه باسمه لا على بصفته متمرداً، وكأنه يُبقي المجال أمامه للتوبة والتكفير عما صدر منه، وفسح أمامه المجال ليُظهر مكنون حجته الواهية فيقيم الحجة عليه بعدله لا بقدرته فقط، وسؤاله أيضاً من باب التذكير ليرجع إبليس ويفكر فيه، فالله ﷻ لا يدينه إدانة فورية قبل إلقاء الحجة على إبليس، حتى إعلان إبليس حين أجاب (أنا خيرٌ منه ...) عندها أثبت وأكد إبليس عصيانه لرب العالمين، فهو لم يمتنع امتناعاً سلوكياً فحسب، بل ونسب تفوقه بأنه خير من آدم وأعلا منه منزلة، وبهذا فإن هذه الحوارية تؤكد بشكل لا يقبل الشك أن الرحمة الإلهية تسبق الغضب، وأن الله جلّ وعلا يقيم الحجة ولا يعاجل بالعقوبة حتى مع أعدى أعدائه، فهذه الحوارية ليست مجرد سرد تاريخي، بل هي عرض قرآني يبيّن رحمة أرحم الراحمين، وهو القادر على طرد إبليس من دون حوار وسؤال، ومن دون أمهاله الوقت ليدافع عن نفسه أو أن يستدرك ما فعل، ليحكم الله ﷻ عليه عن بينة وعلم، لا عن عجلة أو غضب، فهذا شأنه ﷻ مع إبليس الملعون؛ فكيف يكون تعامله مع عباده! لذا فإن هذا التلطف الرباني في النصّ القرآني ليس ترفاً بلاغياً وجمالياً، بل هو أسلوب قرآني يُفصح عن سنن الله ﷻ في الخلق والهداية، فيقدم أنموذجاً ربانياً في الحوار العادل، الذي يلازمه التلطف.

(١) محمد عزة دروزة : التفسير الحديث : ٢ / ٣٤٣.

ومن الشواهد القرآنية التي ورد فيها الحجاج في الخلق، قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾^(١).

إذ جاءت هذه الآية الكريمة لتلقي الحجة على الخلق من خلال طرح سؤالين بسيطين يفهمهما عامة الناس كنهما عميقان في مؤداهما والمحصلة التي لا يغفل عنها أيُّ عاقل، فقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ فيه قولان: أحدهما أن معناه: أم خلقوا من غير أن يكون لهم خالق وصانع أي: تكونوا بأنفسهم ... والقول الثاني أن معناه: أم خلقوا من غير شيء أي: لغير شيء، وهو مثل قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ ومثل قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾^(٢)، فهذه الآية المباركة حجة واضحة، إذ أنها (تبين أن الذي يستحق أن يعبد هو من يخلق الخلق، ويبرزهم من العدم إلى الوجود، أما غيره فهو مخلوق مربوب، محتاج إلى من يخلقه، ويدبر شؤونه)^(٣)، فلم تدع لهم هذه الحجة أي مجال أو أي مهرب يلجأون إليه إلا أن يواجهوا الحقيقة الوحيدة فكل الاحتمالات الواردة في الإجابة عنها باطلة من دون ريب (فكأنه تعالى يقول: لا يخلو الأمر من واحدة من ثلاث حالات بالتقسيم الصحيح، الأولى أن يكونوا خلقوا من غير شيء أي بدون خالق أصلاً، الثانية أن يكونوا خلقوا أنفسهم، الثالثة أن يكون خلقهم خالق غير أنفسهم، ولا شك أن القسمين الأولين باطلان، وبطلانهما ضروري كما ترى، فلا حاجة إلى إقامة الدليل عليه لوضوحه، والثالث هو الحق الذي لا شك فيه، وهو جل وعلا خالقهم المستحق منهم أن يعبدوه وحده جل وعلا)^(٤)، ف (لم يدع القرآن الكريم وسيلة للإيمان إلا أتى بها، ولا طريقاً للكفر إلا سدّه، وناقش المشركين مناقشة هادئة في عقائدهم، لينقلهم من هذا الداء الخطير إلى الإيمان الصحيح)^(٥)، فبدلاً من أن يقول لهم

(١) سورة الطور: ٣٥.

(٢) السمعاني: تفسير السمعاني: ٥ / ٢٧٨.

(٣) الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني (ت ١٣٩٣هـ): أضواء البيان، تحقيق مكتب البحوث والدراسات، مطبعة بيروت - دار الفكر للطباعة والنشر، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م: ٢ / ٣٣٠.

(٤) الشنقيطي: أضواء البيان: ٣ / ٤٩٤.

(٥) الزحيلي: وهبة بن مصطفى: التفسير الوسيط: ٣ / ٢٥٢٠.

أنتم جاهلون بمن خلقكم كافرون به ضالون عنه صادون عن الحق، عرض عليهم تسأولاً بمنحيين تلطفاً، ليدركوا بعد التفكير أنه هو خالقهم لا محالة، وأنهم لا بد أن يعودوا لمن خلقهم ليدخلوا في الهداية ويسلكوا مسلك الحق، بهذا نجد أن أسلوب الحجاج القرآني إنماز باعتماده على التلطف في إيصال الحقائق وإقناع المتلقي، فجمع بين قوة الحجّة والتلطف في الخطاب، فالحجاج لا يعتمد فقط على المنطق والعقل، بل يوظف مناخ مبنية على التلطف والحوار الهادي الذي يحث على التفكير بهدوء مما يجعل المتلقي أكثر تأثراً وقبولاً، وهذا التوازن الخطابي من شأنه استجلاب الآخر حتى وهو بصدد الجدل وإلقاء الحجج والبراهين، وهنا يبرز دور التلطف في تعزيز فاعلية الحجاج، وإيصال رسالة مفادها أن النص القرآني لا يحتاج إلى الصدام أو الخصومة؛ لإيصال ما يبتغيه ولهداية رافضيه، بل هو قوي ببيانه ومديات إقناعه وتأثيره في النفوس.

وبذلك نكون قد بيّنا في ضوء تتبع وتحليل الأساليب البلاغية التي اعتمدها النص القرآني في مقام التلطف، ليتضح لنا إنّ المفارقة والإستدراج والحجاج ليست أدوات بلاغية منفصلة أو طارئة، بل هي مكونات أصيلة ضمن بنية تعبيرية مترابطة لتؤدي الوظيفة المرجوة والقصودة في سياق الخطاب القرآني، فهي لم تستعمل عفواً، بل آليات بلاغية تتيح للخطاب استيعاب أنماط مختلفة من المتلقين لتنسجم مع مختلف النفسيات والتبينات الفكرية بمنهج حكيم، فالمفارقة لا تهدف إلى إحداث التباين المفهومي فحسب، بل تُستثمر لإثارة الوعي والانتباه بطريقة تلطفية، والاستدراج يستعمل بحنكة لجذب الخصم أو المُخاطَب إلى دائرة القبول دون مواجهة مباشرة، بينما يُوظف الحجاج لإقناع العقل وإقامة الحجّة بأسلوب يزواج بين البيان والإحاطة النفسية المراعية، وعليه فهذه الأساليب البلاغية تتجاوز غاياتها المجتزئة لتُسهم في تحقيق غايات قرآنية للتأثير في الوعي والسلوك ضمن خطاب تربوي توعوي مقصود.

الفصل الرابع

نطاق دلالة التلطف التفسيرية في القرآن الكريم

الفصل الرابع

نطاق دلالة التلطف التفسيرية في القرآن الكريم

المبحث الأول : دلالة التلطف في القصص القرآني

المبحث الثاني: دلالة التلطف في آيات العقيدة

المبحث الثالث: دلالة التلطف في آيات الأحكام

الفصل الرابع

نطاق دلالة التلطف التفسيرية في القرآن الكريم

في هذا الفصل، نسلط الضوء على نطاق دلالة التلطف من المنظور التفسيري والتحليلي لنستقرئ ما جاء من دلالات تلطفية في آيات القرآن الكريم، وقد رصدت منها مواضع من آيات القصص القرآني وآيات العقيدة وآيات الأحكام، بغية استنطاق هذه الآيات وبيان ما انبثقت منها من دلالات التلطف ومظاهره التي تقدم فهماً يفهم منه ما للتلطف من دور في ترسيخ القيم العليا، ومن خلال تحليل الآيات التي سيتناولها هذا الفصل والتي تؤكد على منهجية النصّ القرآني وبأنه منهج مقصود وليس بعارض أو استثنائي، بل يعدُّ مكوناً أصيلاً مؤسساً في التبليغ والبيان.

المبحث الأول

دلالة التلطف في القصص القرآني

سيعوّل في هذا المبحث على دراسة دلالة التلطف في آيات القصص القرآني، في محاولة لمعرفة الوسائل التلطفية التي استعملها النص القرآني في القصص القرآني للتأثير في المتلقي، وذلك بأخذ آيات من مواضع متعددة من القصص تُظهر بوضوح مواضع التلطف فيها، إذ ترد في نطاق درامي مؤثر يدعو ويحث القارئ لمزيد التأمل والتدبر ليصل إلى التأثير في المتلقي لكي يتفاعل مع أحداث هذه القصص وينظر فيها ملتماً الموعظة من دون شعور بالنفور أو نزوع في نحو الملل أو الفتور، منجذباً إلى الإيمان بها؛ لما إنمازت به من حكمة وحكمة في حواراتها وأساليب الإقناع المكتنزة في طياتها، وما ترمي إليه من أهداف سامية.

أولاً: دلالة التلطف في قصة نوح عليه السلام

ومن قبيل ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ^(١)

إن التأمل في الآيات الكريمة التي تروي لنا حوار نوح عليه السلام مع الله تعالى وهو يدعو سائلاً ومتضرعاً له في إنقاذ ولده، والعلة في ذلك أن نوح عليه السلام ربما كان يأمل أن يهدي الله ولده في المستقبل، أو لأنه تأمل في إن يجد في وعد له بإنقاذ أهله ما يعضد أمله ورجاءه هذا، ذلك بأنه من أهله، لقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَقُونَ﴾ وهو طلب مشروع فالحسرة كانت تأكل قلب نوح عليه السلام على ولده إضافة إلى وعد الله في إنقاذ أهله، فتوجه إلى الله تعالى بالنداء سائلاً إياه في أمر ولده بسؤاله قائلاً: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ

(١) سورة هود: ٤٥ - ٤٦.

وَعَدَّكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿﴾ فظن عليه السلام أنّ ابنه ليس بكافر أو ثابت على الكفر، إذ (لم تكن له طريقة واحدة معروفة، فتارة تراه مع المؤمنين وأخرى مع الكفار، مما يوهم أنّه مؤمن، بالإضافة إلى الإحساس بالمسؤولية الكبرى التي كان نوح يجدها في نفسه بالنسبة إلى ولده، كذلك المحبة والعلاقة الطبيعية التي يجدها كل أب بالنسبة لابنه، والأنبياء غير مستثنين من هذا القانون، كل ذلك كان سبباً في أن يطلب نوح من ربه هذا الطلب ... ولكن بمجرد أن اطلع على واقع الأمر، أسف على طلبه فوراً واعتذر إلى الله راجياً عفوه - وإن لم يكن صدر منه ذنب-) (١).

فجاء خطابه عليه السلام بكل أدب ولطف في سؤال الله عن ذلك فلم يقل (يا رب أنت وعدتني بأن تنقذ أهلي فانقذ ولدي كما وعدت فلماذا أغرقته فأنت لا تخلف الوعد) وهو من أدب الأنبياء عليهم السلام في كيفية مخاطبة الله عز وجل، وظناً منه أنّه من أهله فقد (أمر الله نوحاً أن يحمل أهله في السفينة إلا من ينهاه عن حملة منهم، ولم ينه الله نوحاً عن حمل ابنه، كما لم يأمره بحمله، بل سكت عن ذلك لحكمة هناك ... فظن نوح أن الله سبحانه قد كتب النجاة إلى جميع أهله، سواء منهم الطائع والعاصي، ومن أجل هذا نادى ربه مستنجزاً وعده في ابنه بحسب ظنه، لأنه من أهله) (٢).

والتعليل الآخر في سؤال نوح عليه السلام وسؤاله النجاة لابنه هو أنّه علم بأن امرأته قد صرحت بكفرها، أمّا فيما يخص (ابنه فلم يظهر منه كفر بدعوة نوح، والذي ذكره الله من أمره مع أبيه وهو في معزل إنّما هو معصية بمخالفة أمره عليه السلام وليس بالكفر الصريح فمن الجائز أن يظن في حقه أنّه من الناجين لظهور كونه من أبنائه وليس من الكافرين فيشملة الوعد الإلهي بالنجاة) (٣).

فجاءه الجواب من لدن الله ﷻ مراعيّاً فيه تلك العواطف الأبوية المتأججة في قلبه وقد فاضت في نفس نوح عليه السلام كلّ مشاعر الحنين والعطف على ولده، فتلطف الله سبحانه معه مجيباً إياه بقوله تعالى: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ وبذلك فقد نفى أن يكون من أهله، وفي ذلك يورد الطباطبائي في الميزان عدة آراء في تفسير قوله ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾

(١) ناصر مكارم الشيرازي : الأمثل في تفسير كتاب المنزل : ٦ / ٥٥٥.

(٢) محمد جواد مغنية : التفسير الكاشف : ٤ / ٢٣٥.

(٣) الطباطبائي : تفسير الميزان : ٦ / ٢٦٦.

ومنها (أنه لم يكن ابنه على الحقيقة وإنما ولد على فراشه فقال نوح عليه السلام: إنه ابني على ظاهر الأمر فأعلمه الله أن الأمر على خلاف ذلك، ونبهه على خيانة امرأته، وينسب إلى الحسن ومجاهد، وفيه: أنه على ما فيه من نسبة العار والشين إلى ساحة الأنبياء عليهم السلام، والذوق المكتسب من كلامه تعالى يدفع ذلك عن ساحتهم وينزّه جانبهم عن أمثال هذه الأباطيل، أنه ليس مما يدلّ عليه اللفظ بصراحة ولا ظهور فليس في القصة إلا قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ وليس بظاهر فيما تجرؤوا عليه وقوله في امرأة نوح: ﴿امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما﴾ وليس إلا ظاهراً في أنّهما كانتا كافرتين تواليان أعداء زوجيهما وتسران إليهم بأسرارهما وتستجدانهم عليهما، ومنها: أنه كان ابن امرأته عليه السلام وكان ربيبه لا ابنه من صلبه، وفيه أنه مما لا دليل عليه من جهة اللفظ، على أنه لا يلائم قوله في تعليل إنه ليس من أهله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ولو كان كذلك كان من حق الكلام أن يُقال: إنه ابن المرأة، على أن من المستبعد جداً أن لا يكون نوح عليه السلام عالماً بأنه ربيبه وليس بابنه حتى يخاطب ربه بقوله: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أو يكون عالماً بذلك ويتكلم بالمجاز ويحتج على ربه العليم الخبير بذلك فينبه أنه ليس ابنه وإنما هو ربيب^(١).

وما يميل إليه الباحث هو أنه ابنه حقيقة ولا صحة لتلك الآراء التي ذكرها بعض المفسرين، ولا يمكن القول بها ولو على سبيل الفرضية، ذلك لاعتقادنا بعصمة الأنبياء عليهم السلام، ولا يليق ما ذكر من هذه الآراء بإنسان صالح فكيف بنبي معصوم اختاره الله ﷻ لهدي الناس، ولذا فقد وردت احاديث عن أهل البيت (عليهم السلام) تؤكد على ذلك بما لا يقبل الشك وتوضح أن عصيان الله ﷻ ينفي كل علاقة انتماء، فالنسب ليس هو الانتماء المبتغى بل هو مجرد وهم إذا ما رافقته معصية الله تبارك وتعالى، حينها لن تكون هناك قيمة تُذكر لهذه العلاقة وهذا الارتباط بل سيُنتفى حتماً، فقد نقل عن (علي بن موسى عليه السلام) أنه سأل بعض أصحابه يوماً: كيف يفسر الناس هذه الآية إنه عمل غير صالح ... فأجابه أحد الحاضرين: إنهم يعنقدون أن كنعان لم يكن الابن الحقيقي لنوح، فقال الإمام: (كلا لقد كان ابنه، ولكن لما عصى الله نفاه عن أبيه، كذا من كان منا لم

(١) الطباطبائي: تفسير الميزان: ٢٣٥ / ١٠.

يطع الله فليس منا^(١)، بل المراد من الآية هو (قطع الولاية بين الكافر والمؤمن، وأشار إليه بقوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ فإنه تعليل لنفي كونه من أهله، وأصله: إنه ذو عمل فاسد، فجعل ذاته ذات العمل الفاسد للمبالغة، ثم بَدَّلَ الفاسد بغير الصالح، تصريحاً بالمناقضة بين وصفي الأهلية وغير الصلاح، وانتفاء ما أوجب النجاة - من صالح العمل- لمن نجا من أهله عنه، وقرأ الكسائي ويعقوب: إنه عمل، أي: عمل عملاً غير صالح^(٢).

ويبدو أنه ﷺ قد تلطف بذلك على نبيه ﷺ فهو لم يقل بأنه كافر صراحة ولهذا لا يستطيع النجاة معك يا نوح، بل قال إنه عمل غير صالح تطفافاً به ﷺ وحفاظاً على مشاعره، وليدرك نوح ﷺ علة عدم كونه من أهله، وبيان ما خفي عنه، ولذا (فإنه تعالى انتفى الأهلية من ولده بانتفاء النسبة المعنوية بقوله: فإنه عمل غير صالح وليس لأحد شك أنه ولد نوح بحسب الصورة والنسب الصورية كان ابنه، لأنه لو لم يكن ابنه ما طلب نوح من الله نجاته، وما سماه بالأهل فكان نوح ﷺ أثبت النسب الصورية، والله تعالى قال لا عبرة به حيث ماله نسبة معنوية بالنسبة إليك فمن لم يكن له نسبة معنوية إليهم (عليه السلام) ليس بإنسان حقيقة^(٣))، وذلك رسالة واضحة وقاعدة مفادها إن الانتماء لا يكون من جهة النسب كما يتصور، بل أن الانتماء الحقيقي يكون باتباع الهدى والإيمان الذي من شأنه أن يشكل انتماءً حقيقياً ورابطاً متيناً، وهو المبتغى والغاية الاسمي، وبيان إلى أن (أهل الأنبياء هم المتقون الصالحون، وأن بعد النسب، وأن أعداءهم العاصون، وأن قرب النسب)^(٤).

ولذا تلطف الله بنبيه إذ نزهه عن ذلك، فكأنه أراد إن يقول أن من لا ينتمي للعقيدة الحقّة التي أرسلتك لتبينها للناس لا يستحق إن يكون من أهلك، بل هو أبعد ما يكون عن ذلك

(١) ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٦ / ٥٥٦.

(٢) الكاشاني: زبدة التفاسير: ٣ / ٢٨٢.

(٣) الأملي: بهاء الدين حيدر بن علي العبيدي (ت ٧٩٤هـ): تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم في تأويل كتاب الله العزيز المحكم، تحقيق: السيد محسن الموسوي التبريزي، مطبعة الأسوة، الناشر:

مؤسسة فرهنگي، ونشر: نور علي نور، ط ٤، ١٤٢٨هـ: ١ / ٥١٥.

(٤) محمد جواد مغنّية: التفسير الكاشف: ٤ / ٢٣٥.

فلا ينال شرف الانتماء لك؛ إلا من اتبعك واهتدى بهدي الإيمان، فالإيمان بالله ﷻ اثبت انتماء وصدق حقيقة؛ وهي (العلاقة الدينية، كسلمان الفارسي الذي لا هو من أهل بيت النبي ولا من قريش ولا من أهل مكة ، بل لم يكن أساسا من العرب، ولكنه طبقا لما ورد في الحديث الشريف المعروف (سلمان منا أهل البيت) كان يعد من أسرة النبي ﷺ)^(١)، فالمعيار الحقيقي لا النسب أو القرابة التي نفهمها وفق معاييرنا الدنيوية، بل هو الانتماء في العقيدة المبتناة على القيم الإنسانية العليا المستمدة من السماء والإيمان بالواحد الأحد، وعليه فالمبتغى المطلوب والعلاقة الحقيقية والمقدمة على بقية العلاقات هي علاقة الإيمان.

ثانياً: دلالة التلطف في قصة نبي الله لوط ﷺ

ومن الآيات التي تضمّنت التلطف في قصص الأنبياء عليهم السلام ما ورد في قصة نبينا لوط ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٦٠﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾^(٢).

في هذه الآيات الكريمة أخبار من الله ﷻ عما جرى مع نبيه لوط ﷺ حينما جاءت رسله إلى لوط ﷺ على هيئة الأدميين، ذلك بأن مجيء الرسل إليه في وسط قومه، كان من شأنه إن يؤدي قلب لوط ﷺ ويثير مخاوفه لذا (سيء بهم) أي ساءه محببهم، لأنه خاف عليهم من قومه)^(٣)، وهذه ردة فعل طبيعية انتابت لوط ﷺ حينما رآهم، لهذا (ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا) أي أنه (ضاق بمكانهم صدره، وهو كناية عن شدة الانقباض)^(٤).

وعلة ضيق صدر نبي الله لوط ﷺ يكمن في علمه بحال قومه الذين استحوذت عليهم الانحرافات وشاعت فيهم الفاحشة إلى الحد الذي أخرجتهم عن الطبيعة البشرية، فمثل

(١) ناصر مكارم الشيرازي : تفسير الأمثل في كتاب الله المنزل : ٦ / ٥٥٥.

(٢) سورة هود : ٧٧ - ٧٨.

(٣) الطبرسي : مجمع البيان : ٥ / ٣١٤.

(٤) الكاشاني : زبدة التفاسير : ٣ / ٢٩٩.

هذا المجتمع المنحرف من شأنه أن يشيع الأمراض وتستشري فيه الآفات مما يؤول إلى تهديد النسل البشري بالانقراض فيما لو استمروا في غيهم، فهذا الشذوذ الجنسي المنحرف فيه خطر كبير يهدد بقاء النوع البشري على هذا الكوكب، لأنه يقطع الأسباب الطبيعية لديمومة الحياة والاستمرار، وفي هذا يبين لنا الإمام الصادق عليه السلام جانباً من تلك الأحداث، إذ يقول: (جاءت الملائكة لوطاً وهو في زراعة قرب القرية فسلموا عليه، ورأى هيئة حسنة عليهم ثياب بيض وعمائم بيض، فقال لهم: انتوا المنزل، فتقدمهم ومشوا خلفه، فقال في نفسه: أي شيء صنعت؟ ! آتي بهم قومي وأنا أعرفهم، فالتفت إليهم فقال: لتأتون شراراً من خلق الله، وكان قد قال الله لجبرئيل: لا تهلكهم حتى يشهد لوط عليهم ثلاث مرّات، فقال جبرئيل: هذه واحدة، ثمّ مشى لوط ثمّ التفت إليهم فقال: إنكم لتأتون شراراً من خلق الله، فقال جبرئيل: هذه ثنتان، ثمّ مشى ولما بلغ باب المدينة التفت إليهم فقال مثل ذلك، فقال جبرئيل عليه السلام: هذه الثالثة، ثمّ دخل ودخلوا معه حتى دخل منزله، ولما رأت امرأته هيئة حسنة صعّدت فوق السطح فصفت فلم يسمعوا، فدخلت، فلما رأوا الدخان أقبلوا يهرعون)^(١).

فساءه مجيؤهم بسبب خوفه عليهم من القوم، فحينما علموا بقدم الضيوف إلى لوط عليه السلام جاؤا كما وصفهم النصّ القرآني، وضاق بهم ذرعاً، وايقن بأنّه يوم شديد عليه، فجاء قومه إليه يسرعون ف (أقبل الفساق يهرعون من كلّ جانب ومكان، وينادون، حتى وقفوا على باب لوط، ففزعوه)^(٢)، وكان ذلك الأمر نتيجة خيانة زوجة لوط عليه السلام، إذ هي من أخبرت قومها بقدم الضيوف إلى بيته من هنا كانت زوجته عليه السلام كانت همماً آخر يزداد على الهموم التي كانت تثقله وتجعل أيامه عصيبة عسيرة.

ثمّ انتقل النصّ ليروي لنا جواب سيدنا لوط عليه السلام للتخلص من ذلك الوضع الصعب، مخاطباً للقوم «يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَانْفُوا اللَّهَ وَلَا تُخْرُونِ فِي ضَيْفِي»، فخرج إليهم سيدنا لوط عليه السلام في مواجهة عصيبة وموقف شجاع، خرج إليهم بمنطق الأنبياء عليهم السلام وبأخلاق أصحاب الرسالات ليردعهم بالأدلة والبراهين عما ينوون،

(١) الكاشاني: زبدة التفاسير: ٣ / ٢٩٩.

(٢) البحراني: البرهان في تفسير القرآن: ٤ / ٣١٨.

مبيناً لهم فساد ما يقترفون موضحاً لهم السبيل المستقيم في إشباع رغبتهم والسيطرة على نزواتهم، بدلاً من طريقهم الضال.

ليُظهر لنا من خلال خطابه التلطف في معاملته إياهم على الرغم من أنهم فئة منحرفة مخاطباً إياهم بقوله (يا قوم) متلطفاً عليهم بعرضه عليهم بناته ليتزوجوهن، وإن كان هناك اختلاف في المراد بيناته في رأي آخر، فثمة من يرى أن قصده من (بناتي يعني نساء أمته فانكحوهن فهن أطهر لكم ومبيّنات إن ذلك أطهر لكم)^(١)، ومذكراً لهم بضرورة تقوى الله ﷻ، مضيفاً تساؤلاً تلطيفياً لخطابه آملاً في إن يحرك عقولهم قائلاً ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾^(٢) عليه يُثير في دفائن العقول ما من شأنه إن يعيدهم إلى فطرتهم السليمة.

ويبدو أن استعمال لوط عليه السلام لأفعل التفضيل (أطهر) لا يُراد منه التفضيل الحقيقي وإلا لاقتضى القول بأن ارتكاب الجنس مع الرجال أمر طاهر ولكنه مع النساء هو أطهر، فليس المراد هذا قط بل المبتغى من صيغة أطهر هو مطلق الطهر أي أن هن الأطهر على وجه الإطلاق دون موازنة أو مفاضلة مع أحد قط.

وخلاصة القول في ذلك أن لوطاً عليه السلام كان مثلاً للداعية الصابر في بذل كل ما في وسعه من أجل هداية القوم بلسان العقل وبمنطق التلطف، بالرغم من فسادهم وتماديهم في الأعراض عن الحق، ويتجلى هذا التلطف في خطابه معهم وهو بصدد الدفاع عن ضيوفه مبتدئاً ذلك بنداؤه لهم بـ(يا قوم) ليذكرهم بانتمائهم لهم وبأنه يريد الخير لهم على الرغم من إنحرافهم عن الفطرة السليمة، ومتلطفاً في اقتراح البديل لهم بعرض بناته عليهم ليتزوجوا منهم وأنهن الأطهر لهم فالعلاقة الشرعية بالنساء هي البديل الطاهر والطريق الصحيح في قبال الفاحشة المحرمة، واعظاً إياهم بضرورة إن يتقوا الله والعودة إلى الرشد والتفكير في عاقبة أفعالهم، من خلال سؤاله الاستنكاري لهم ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ فقد تلطف معهم وحاول بشتى الأساليب إرجاعهم إلى جادة الصواب مع علمهم بشدة بفسادهم وعمق ضلالهم.

(١) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ١٢ / ١١٠.

ثالثاً: دلالة التلطف في قصة نبي الله يوسف عليه السلام

جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾^(١).

حكى الله ﷻ عن قصة يوسف عليه السلام وإخوته وما تأمروا عليه، فتحايلوا على أبيهم يعقوب عليه السلام (فقالوا: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ﴾ لا تثق بنا ولا تعمدنا في أمر يوسف وإنا مخلصون في إرادة الخير له؟ وفي هذه دلالة على أنه عليه السلام كان يأبى عليهم أن يرسله معهم ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء (نرتع ونلعب) أي نذهب ونجيء وننشط ونلهو والرتع هو التردد)^(٢).

وكما يبدو أنهم جاؤا إلى أبيهم يسألونه بحيلة ومكيدة بأن يسمح لهم باصطحاب يوسف عليه السلام معهم إلى الصحراء بحجة اهتمامهم به وإن من حق يوسف عليه السلام أن يستنشق الهواء ويلعب ويتنعم، في محاولة لخداع أبيهم بأن طلبهم هذا يصب في مصلحة يوسف عليه السلام متعهدين ومؤكدين له بالحفاظ عليه بقولهم ﴿وإنا له لحافظون﴾ أي متكفلون بحمايته (كأنهم قالوا: ما لك لا تأمنا على يوسف فإن كنت تخاف عليه إيانا معشر الأخوة كأن نقصده بسوء فإننا له لناصحون وإن كنت تخاف عليه غيرنا مما يصيبه أو يقصده بسوء كأن يدهمه المكروه ونحن مساهلون في حفظه ومستهينون في كلاءته فإننا له لحافظون)^(٣)، فكان طلبهم هذا مبنياً على مخادعة أبيهم يعقوب عليه السلام ووسيلة ضغط على أبيهم فلا يستطيع أن يتهمهم صراحة وإلا فإن ذلك من شأنه أن يزيدهم حقداً على أخيهم وفيه خداع ليوسف عليه السلام أيضاً فهم (بهذا الأسلوب خططوا لفصل أخيهم عن أبيه بمهارة، ولعلمهم قالوا هذا الكلام أمام يوسف ليطلب من أبيه إرساله معهم، وهذه الخطة تركت الأب - من جانب - أمام طريق مسدود ، فإذا لم يرسل يوسف مع إخوته فهو تأكيد على اتهامه إياهم، وحرضت - من جانب آخر - يوسف على أن يطلب من أبيه الذهاب معهم ليتنزه كما يتنزه إخوته، ويستفيد من هذه الفرصة لاستنشاق الهواء الطلق خارج

(١) سورة يوسف : ١٣ .

(٢) مير علي الحائري الطهراني : تفسير مقتنيات الدرر : ٦ / ٧ .

(٣) الطباطبائي: تفسير الميزان : ١١ / ٩٨ .

المدينة^(١)، وبذلك أتموا مخططهم على أكمل وجه فلم يستطع يعقوب عليه السلام إلاّ القبول بمقترحهم هذا بالرغم من مخاوفه التي لم يفصح عنها.

ثمّ أعرب يعقوب عليه السلام بعد ذلك على خوفه على يوسف عليه السلام مبتدئاً ذلك بقوله: ﴿إني لَيَحْزُنُنِي﴾ ليصف حالته حينما يبتعد عنه يوسف عليه السلام عل قلوبهم تستشعر بعض الرحمة لأبيهم، وعند التأمل في النصّ نجد التلطف واضحاً وجلياً على لسان يعقوب عليه السلام وهو بصدد إخبارهم عن سبب خوفه، ولكنه لم يُعلن عن سبب خوفه الحقيقي على يوسف عليه السلام وبأنّه يخاف عليه منهم ومن كيدهم المتوقع، فلم يقل لهم أنّه يخاف عليه منهم صراحةً، بل أحال سبب خوفه عليه لسبب خارج عن إرادتهم، وبعيداً عن كيدهم؛ وبأنّ علّة خوفه هي أنّ يأكله الذئب، فقوله (قال إني ليحزني أنّ تذهبوا به وأخاف أنّ يأكله الذئب وأنتم عنه (غافلون) هذا ما ذكره أبوهم جواباً لما سألوه ولم ينف عن نفسه أنّه لا يأمنهم عليه وإنّما ذكر ما يأخذه من الحالة النفسانية لو ذهبوا به فقال وقد أكد كلامه: (إني ليحزني أنّ تذهبوا به) وقد كشف عن المانع أنّه نفسه التي يحزنها ذهابهم به لا ذهابهم به الموجب لحزنه تلطفاً في الجواب معهم ولئلا يهيج ذلك عنادهم ولجاجهم وهو من لطائف النكت^(٢)، لذا قال ذلك لخوفه منهم عليه، وأنّه أرادهم بالذئب، وخوفه إنّما كان من قتلهم له فكفى عنهم بالذئب مسaire لهم، قال ابن عباس فسماهم ذئاباً^(٣)، وهم من دون شكّ ذئاب، لا على وجه الحقيقة ولكن باعتبار ما سيكون فكأنه تعبير عن مكرهم غير صريح، فإنّ من تسوّل له نفسه إزهاق النفس من دون وجه حق فهو ذئب بمكره ووحشيته لا محالة حتماً لأنّه أقرب إلى صفة الذئب منه إلى الإنسان.

وجاء تلطفه ههنا لتنبهه أبناءه - وتأكيداً لهم - على مكان يوسف عليه السلام ومدى حبه له وخوفه عليه، وضرورة الحرص عليه وحمايته، عسى إنّ ترق قلوبهم وتصحوا ضمائرهم، فيأخذون حال أبيهم بعين العطف والرحمة، فيعدلون عن فكرتهم ونيتهم، فلم يشر لهم بإصبع الاتهام أو أن يكونوا سبباً في إلحاق الأذى بيوسف عليه السلام، أو أنّ يشكّك في نواياهم فيزدادوا حقناً وحسداً عليه، وبالرغم من تلطفه في ذلك كله؛ فقد شرعوا بتنفيذ

(١) ناصر مكارم الشيرازي : الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : ٧ / ١٤٦ .

(٢) المصدر السابق : ١١ / ٩٨ .

(٣) الماوردي: النكت والعيون : ٣ / ١٣ .

مخططهم و (من أجل تفويت الفرصة على الطرف الآخر واستغفاله وسلبه كل وسائل الدفاع يسعون إلى إخفاء عملهم تحت قناع جذاب إن إخوة يوسف أخفوا خطة هلاكه أو إبعاده تحت غطاء أسمى الأحاسيس والعواطف الأخوية، هذه الأحاسيس التي كانت تحرك يوسف من جهة لأن يمضي معهم، وكانت عند أبيهم موضع قبول من جهة أخرى أيضاً)^(١).

ويمكننا القول ههنا إن هذا التلطف كان من شأنه إن يكون له كبير الأثر في نفوسهم وتفرق جمعهم واختلاف رأيهم ومنعهم من القيام بأمر ادهى من فعلتهم هذه، إذ إن كلامه معهم وتلطفه بعدم اتهامهم بشيء صراحة؛ كان المرجو منه أن يكون له أثر في نفوسهم علهم يبدلون نيتهم.

ويبدو أن هذا التلطف كان له كبير الأثر، فوجد طريقه إلى قلوبهم؛ فتدخل أخوه آنذاك كان له مدخلية في توهين نيتهم وتغيير مسار أفكارهم، فتعهدوا له بعدم قتله كان من أحد ثمرات هذا التلطف، إلا أن الشيطان استحوذ على قلوبهم إذ اختلفت نيتهم هناك وكادوا أن يقتلوه لولا معارضة أخيه لهم، فعدلوا عن هذه الفكرة، ورجعوا إلى ما اتفقوا عليه سابقاً على أن يرموه في البئر إرضاءً لنوازعهم وحسدهم، وبالوقت نفسه فإن عدم قتله من شأنه ألا يشعرهم بذنب إزهاق نفس أخيهم، زيادة على مراعاة حال أبيهم عليه السلام وحبّه الشديد وتعلقه بيوسف عليه السلام، فهم بالمحصلة بريئون من دمه.

فكان للتلطف غاية الهداية، فعلى الرغم من خوف يعقوب عليه السلام من أبنائه فإنه عدل عن بيان مخاوفه، ولو أنه أبدى هذه المخاوف صراحة ووجه لهم الخطاب بشكل مباشر، لكانت النتيجة إلى ما لا يحمد عقباه ولازادوا حسداً وبغضاً على أخيهم لأن توجيه الاتهام المباشر من شأنه أن يجعل من المرء معانداً أكثر ومصرأً على ارتكاب ما نوى عليه وربما أشبع، وعلى العكس تماماً نجد أن التلطف ههنا جاء لإبدال تلك الفكرة وإرادة أبعادها ورجاءً في أن تكون بمثابة الرسالة التي يُحتمل إن تهديهم وتثير بصيرتهم بالرجوع إلى جادة الصواب، وعليه فإن هذه الحوارية التي دارت بين يعقوب عليه السلام وأبنائه تحمل في طياتها كثيراً من العبر، كان من جملتها بيان ما لأسلوب التلطف من

(١) ناصر مكارم الشيرازي : الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : ٧ / ١٤٨ .

ثمرات مرجوة، حتى مع الذين ينوون عملاً سيئاً ويبيتون أمراً وكيداً، فمهما انطوت عليه ضمائرهم من شر يكون هناك ثمة أمل في هدايتهم، ونهيمهم عن كل عمل شرير، واستجلابهم للخير أو على أقل احتمال إضعاف تلك النوايا، وذلك عن طريق محاكاة ضمائرهم، وتوجيه خطابٍ تلطفي معهم علَّه يطرق أبواب قلوبهم المغلقة آنذاك ويستميل جانباً من عواطفهم للرجوع عما انعقدت عليه عزيمتهم، ذلك أنّ البشر في الأعم الأغلب وأنّ ركنوا إلى النفس الأمارة بالسوء نتيجة حسد أو حقد أو أيّ نوازع شريرة قد تعتريهم، فتولد فيهم نزعات شيطانية تؤدي بهم لارتكاب الأفعال الشنيعة وتعطل فيه القيم الإنسانية النبيلة فيغدون ذئاباً شرسةً تحركهم غرائزهم الشهوانية وميولهم العدوانية، فالتلطف مع هكذا فئة، ربّما يكون له كبير الأثر في السيطرة على هذه النوازع وإرجاعها لظرفتها السليمة.

ومن قبيل ذلك أيضاً، ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ (١).

إذ تروي هذه الآيات الكريمة الأحداث التي حصلت في قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز (زليخا) هذه المرأة التي أشرفت على مراحل عدة من حياته عليه السلام، منذ اللحظة التي دخل فيها إلى بيت العزيز، ويبدو أنها قد وقعت في حبه بشكل تدريجي طوال هذه المدة، حتى حانت تلك اللحظات التي عازمت فيها على مراودته عن نفسه، فمهدت وخطت ملياً، فغلقت الأبواب وهيأت الظروف والأجواء اللازمة لكي تراوده عن نفسه، (والمراودة - كما يقول صاحب الكشاف - مفاعلة من راد يروود إذا جاء وذهب، كأن المعنى: خادعته عن نفسه، أي: فعلت معه ما يفعله المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرج من يده، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه، وهو عبارة عن التحايل لمواقفته إياها... والتعبير عن حالها معه بالمراودة المقتضية لتكرار المحاولة، للإشعار بأنّها كان منها الطلب المستمر، المصحوب بالإغراء والترفق

(١) سورة يوسف: ٢٦ - ٢٨.

والتحايل على ما تشتهييه منه بشتى الوسائل والحيل، وكان منه عليه السلام الإباء والامتناع عما تريده خوفاً من الله^(١)، إلا أنها لم تستطع أن تكمل خطتها وكيدها بدعوتها ليوسف إلى ارتكاب الفاحشة، إذ امتنع عليه السلام من تنفيذ إرادتها رافضاً لذلك العرض ولكل مغرياتها رفضاً قاطعاً، ف (أسرع بالفرار من أمامها إلى الباب هروبا من الفاحشة التي طلبتها منه، وهي أسرع خلفه لئلا تمنعه من الوصول إلى الباب ومن الخروج منه، وأفرد - سبحانه - الباب هنا، وجمعه فيما تقدم، لأنّ المراد به هنا الباب الخارجي، الذي يخلص منه يوسف إلى خارج الدار، وهو منصوب هنا على نزع الخافض أي: واستبقا إلى الباب)^(٢)، هاماً بالهروب من ذلك الموقف الذي لا يليق به وهي تلاحقه لتحول بينه والهرب وتمنعه بكل وسيلة متاحة، كان أشبه بالسباق كلّ يسعى فيه لغايته، غايتها يوسف عليه السلام إذ شغفها حباً (لامس حُبّه شغاف قلبها أيّ غلافه، والجملة كناية عن شدة حبها وهيامها)^(٣) فسأقتها أشواقها ورغابتها له، وهو عليه السلام كان يسعى إلى الخلاص من هذا الموقف وذلك بالهرب بأيّ وسيلة تتاح له، فليس في قلبه إلا الله تعالى، (فلم يكن عند يوسف عليه السلام ما يدفع به عن نفسه ويظهر به على هذه الأسباب القوية التي كانت لها عليه أصل التوحيد وهو الإيمان بالله وإن شئت فقل المحبة الإلهية التي ملأت وجوده وشغلت قلبه فلم تترك غيرها محلاً ولا موضع إصبع)^(٤)، عندها لم يعد أمامها إلا استعمال القوة فقدّت قميصه لإجباره إلى الإذعان لها، حتى انتهى بهما الأمر وقد وصلا إلى الباب فوجدا العزيز ورائه كما يصف لنا النصّ الكريم ذلك ﴿فَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ فحاولت استدراك الوضع وقلب الموقف، وذلك باتهام يوسف عليه السلام لتقلب الأحداث ووقائعها، وتدلس الحقيقة لصالحها، بل وبتعيين الحكم عليه كما يقص علينا النصّ ذلك بقوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ والملحوظ أنّ النصّ كنى ولم يصرّح حكاية عنها فالنتيجة أنها (كنّت عن نفسها بذلك ولم تقل بي بدل (بأهلك) وكنى هو عليه السلام عنها بضمير الغيبة فقال: (هي راوَدتني) ولم يخاطبها بأنت

(١) طنطاوي : التفسير الوسيط للقرآن الكريم : ٣٣٨ / ٧ .

(٢) م. ن : ٣٤٤ / ٧ .

(٣) محمد عزة دروزة : التفسير الحديث : ١٧ / ٤ .

(٤) الطباطبائي : تفسير الميزان : ١٢٧ / ١١ .

راودتيني، ولا أشار إليها بهذه راودتني وكل هذا على سبيل الأدب في الألفاظ والاستيحاء في الخطاب الذي لا يليق بالأنبياء عليهم السلام، فأبرز الاسم في صورة ضمير الغائب تادباً مع العزيز وحياءً منه^(١)، فاتهمها له كان محاولة لكسب القضية، وبغية التأثير في سيدها وإصدار الحكم بأسرع وقت من دون محاكمة أو دفاع لإنهاء الموقف لصالحها، (في هذه اللحظة التي رأت امرأة العزيز نفسها على أبواب الفضيحة من جهة، وشعلة الانتقام تتأجج في داخلها من جهة أخرى، كان أول شيء توجهت إليه أن تخاطب زوجها متظاهرة بمظهر الحق متهمة يوسف)^(٢).

ثم إن النصّ القرآني كان متلطفاً باستعمال عبارة ﴿مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ ولم يأتِ على ذكر الفاحشة صراحة بل استعمل لفظة (سوء) مراعاة ليوسف عليه السلام من أن يرد اسمه مع هذه اللفظة، مع الأخذ بعين الاعتبار (أنّه عليه السلام كان نبياً ذا عصمة إلهية تحفظه من المعصية وقد تقدم إثبات ذلك أن الذي أورده الله تعالى من كرائم صفاته وإخلاص عبوديته لا يبقى شكاً في أنّه أظهر ساحة وارفح منزلة من أن ينسب إليه أمثال هذه الألوأث فقد ذكر تعالى أنّه من عباده الذين أخلصهم لنفسه واجتباهم لعبوديته وآتاهم حكماً وعلماً وعلمه من تأويل الأحاديث وأنّه كان عبداً متقياً صبوراً في الله غير خائن ولا ظالم ولا جاهل وكان من المحسنين وقد الحقه بأبائه الصالحين إبراهيم وإسحاق ويعقوب)^(٣)، فجاء هذا التلطف مراعاة لئلا يخذش حياء المتلقي، ويكمن التلطف الآخر في القصة في أنّ يوسف عليه السلام لم يبادر إلى العزيز فيخبره بما حدث من أنّ زوجته هي التي راودته عن نفسه، فصمت ولم يفضحها أمام زوجها؛ تلطفاً بها وبزوجها واحتراماً لهذا البيت الذي تربى فيه، فلم يشأ إيذاءها أو المساس بسمعتها أمام سيدها أو أن تنتشر هذه الفضيحة على مسامع من كان حاضراً في تلك اللحظات المحرجة، ووفاءً منه لهذه العائلة التي نشأ فيها وترعرع، وهذا ما يناسب أدب الأنبياء، أما بعدما سمع اتهامها له زوراً وبهتاناً، لم يعد هناك ما يُوجب سكوته، وكان عليه الدفاع عن نفسه وتبرئة ساحته من هذه الخيانة، حينما

(١) الألوسي : روح المعاني : ١٢ / ٢١٩ .

(٢) ناصر مكارم الشيرازي : الأمل في تفسير كتاب المنزل : ٧ / ١٩١ .

(٣) الطباطبائي : تفسير الميزان : ١١ / ١٣١ .

صرّح بشكل واضح عن ذلك (هي راودتني عن نفسي) ليبعد عن نفسه هذه التهمة الشنيعة، ليبين للعزیز أنّ ما حصل هو بخلاف ما ادعته زوجته وانها حاولت الإيقاع به. وبعدهما أنكر يوسف عليه السلام هذه التهمة كان لابدّ من يكون هناك شهود، فشاعت إرادة الله تبرئة نبيّه مما نُسب إليه، فهيّا له شاهداً من أهلها لا يمكن إن يُطعن في شهادته لتكون شهادته مقبولة ومرضية غير مجروحة، فبدأ هذا الشاهد شهادته بشفافية من دون محاباة، فلم يأت على تقديم احتمالية صدق يوسف عليه السلام بل على العكس تماماً، إذ قدّم احتمالية صدق زليخا، وهو تلتف أخذ فيه داعي المساواة والإنصاف لإحقاق الحقّ وتبيينه، لتكون شهادته مبنية على الدليل الموصول إلى الحقيقة، ليستدل به من هو الصادق ومن الكاذب، تاركاً هذا الدليل بين يدي العزیز ليكتشف حقيقة ما جرى بنفسه، فجاء على لسان الشاهد ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ قُبْلِ فَصَدَقْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وهو من الحكمة بمكان، إذ يناسب المنطق المتعارف بدهاة، وهو كون احتمالية مراودة الرجل للمرأة هو الأعم الأغلب في مثل هكذا قضايا، ويستبعد كما هو معلوم من إن تكون المرأة موضع الشبهة ابتداءً، ثم جاء على ذكر الاحتمالية الأخرى بقوله (وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) وفي تقديم فرضية احتمال كذب يوسف عليه السلام وتأخير كذبها تلتف آخر بالزوج بداعي التخفيف والتهوين عليه، فالصدمة موجعة له وكان من اللائق أن تمهيد الأمر بغية إعطائه مجالاً لاستيعاب قُبْح ما حدث، وبتتبع هذين الخيطين ستتضح الحقيقة، ولا ضرر في تأخيرها بل من شأن هذا التدرج إثباتها وفي هذا بالغ الحكمة في إيراد المطلوب وهو براءته، ولو بدأ باحتمالية صدقه لاعتبر بأنّه يحكم بناء على ما يراه الشاهد، وهو ما يتناقض مع موضوعية حكم من يريد الوصول إلى الحقيقة باتباع الأدلة والقرائن من دون إصدار حكم مسبق قد يودي إلى التشكيك.

رابعاً: دلالة التلطف في قصة نبي الله أيوب عليه السلام

ومن آيات القصص القرآني التي تضمّنت التلطف، ما جاء في الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(١).

أيوب عليه السلام نبي من أنبياء الله ﷺ، ابتلاه ببلاء شديد فصبر صبراً جميلاً، فهو مثال للصبر والتوكل على الله ﷻ، ذكره الله تعالى في عدة مواضع في كتابه العزيز، إذ دلّت الآيات الكريمة على بيان ما وقع عليه من بلاء، بعدما كان يعيش بعافية وهناء، حتى جاءه البلاء فأحاط به، فوقع البلاء في نفسه وأهله، فكان نعم العبد صبوراً واثقاً بالله تعالى، وبقي على طاعته لله سبحانه فلم ييأس ولم يضعف فتحمل كل ذلك الألم وصابر مع كل تلك المحن، وبقي على هذه الحال زمناً طويلاً، حتى وصل به الحال إلى أن يتجنبه الناس ويعتزلوه ليضيفوا باعتزالهم له همماً إلى همومه، إلا أمرأته فقد بقيت بجواره صابرة تخدمه بكل حب واحترام في محنته العصبية، فكان أيوب عليه السلام صابراً محتسباً حتى غدا مثلاً للصبر حتى يومنا الحاضر.

فلما طالت به المحن توجه لله ﷻ سائلاً إياه؛ أن يرفع عنه هذا الضر (الذي قد يكون محنة وليس بمنكر أن يكون أمراض أيوب عليه السلام ومحنه في جسمه وأهله وماله بلغت مبلغاً عظيماً لكون اللطف والمصلحة فيها وإنما يُنكر الأمراض المستقدرة مثل البرص والجذام وفيه كلام كثير وأما الأمراض النازلة به فكانت اختباراً وتعريضاً للثواب بالصبر عليها والعوض العظيم في مقابلتها)^(٢)، وفي ذكر قصة أيوب عليه السلام تهويناً لنبينا محمد ﷺ ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ أي (اذكر يا محمد أيوب حين دعا ربه لما امتدّت المحنة به ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ بأنني نالني الضرّ، وأصابني الجهد، والضرّ بالضمّ خاصّ بما في النفس، كمرض وهزال، وبالفتح شائع في كلّ ضرر، ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: ولا أحد أرحم منك، وصف ربه بغاية الرحمة، بعد ما ذكر

(١) سورة الأنبياء : ٨٣.

(٢) ابن شهر آشوب : متشابه القرآن ومختلفه : ١ / ٢٣٧.

نفسه بما يوجبها، واكتفى بذلك التعريض عن التصريح بالمطلوب - الذي هو إزالة ما به من البلاء - لطفاً في السؤال^(١).

وعند التأمل في قوله (أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ) نلاحظ تلطف أيوب عليه السلام في دعائه وهو يشكو الله تعالى ما أصابه، فلم يذكر مصدر الضر الذي أصابه ومسه بل إضافة للمجهول، فاكتفى ببيان حاله فتلطف بعدم طلب حاجته فالحال يُغني عن السؤال، فلم يقل (يارب اكشف عني هذا البلاء الذي ابتليتني به وارفعه عني) فاجمل كلّ ما أبتلي به بـ (الضرُّ) عوضاً عن ذكر كلّ ما أصابه، (ولم يقل: تفاقم وتراكم كيلا تشعر شكواه بالضجر وعدم الصبر)^(٢)، ذلك أنّ الله تعالى أعلم بكلّ ما أصاب نبيه عليه السلام تاركاً الأمر لله ومشيتته وحكمته فيما يقتضيه بدلالة ما ختم به خطابه، بقوله: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فكانه أحال أمره برمته إليه تعالى ملتمساً فيه صفة الرحمة ومما يعبر عن ثقته المطلقة بالله تعالى، فهو من باب (التعريض بطلب كشف الضرّ عنه بدون سؤال فجعل وصف نفسه بما يقتضي الرحمة له، ووصف ربه بالأرحم تعريضاً بسؤاله)^(٣)، وإما ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾^(٤).

فلم يرد من باب التلطف، بل كان المسّ الذي عناه نبينا أيوب عليه السلام هو مس الشيطان بالوسوسة صراحة، لا المرض الذي أصابه فـ(مسّ الشيطان إياه، أيّ مسّني بوسواس سببه نصّب وعذاب، فجعل الشيطان يوسوس إلى أيوب بتعظيم النُصْب والعذاب عنده ويلقي إليه أنّه لم يكن مستحقاً لذلك العذاب ليلقي في نفس أيوب سوء الظنّ بالله أو السخط من ذلك، أو تحمل الباء على المصاحبة، أيّ مسّني بوسوسة مصاحبة لضرّ وعذاب، ففي قول أيوب أني مسّني الشيطانُ بِنُصْبٍ وعذابٍ كناية لطيفة عن طلب لطف الله به ورفع النُصْب والعذاب عنه بأنهما صاراً مدخلاً للشيطان إلى نفسه فطلب العصمة من ذلك على نحو قول يوسف عليه السلام: ﴿وَالأَّ تَصْرَفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ

(١) الكاشاني: زبدة التفاسير: ٤ / ٣٤٦.

(٢) محمد جواد مغنّية: التفسير الكاشف: ٥ / ٢٩٥.

(٣) ابن عاشور: التحرير والتنوير: ١٧ / ١٢٧.

(٤) سورة ص: ٤١.

وأَكُنْ من الجاهلين»^(١)، فالنصب والعذاب اللذان قصدهما أيوب عليه السلام (ليسا ما كانا له من المرض والألم أو المرض وذهاب الأهل والمال، بل أمران عرضا له وهو مريض فاقد الأهل والمال فقيل هما ما كان له من وسوسة الشيطان إليه في مرضه من عظم البلاء والقنوط من الرحمة والإغراء على الجزع كان الشيطان يوسوس إليه بذلك وهو يجاهده في دفع ذلك حتى تعب وتألّم على ما هو من البلاء فنأدى ربه يسترفه عنه ويستعينه عليه)^(٢).

وأما هذه الأمراض التي نزلت بأيوب عليه السلام تعريضاً للثواب، لم تكن إلاّ اختباراً وامتحاناً لصبر أيوب عليه السلام وبالمحصلة عوّضه الله تعالى على كلّ ذلك وجزاه في قبالتها خير الجزاء^(٣)؛ فإنّه عليه السلام لم يخرج عن رحمة الله تعالى ولم ينس ربه للحظة ولم يقل ذلك من قوة إيمانه بخالقه، ودليل ذلك أنّه التجأ إلى ربه لكي يخلصه من وسوسة الشيطان فلاجوؤه هذا دليل على أنّ الله عز وجل في داخله، ومن كان الله جل وعلا في داخله لا يمسه الشيطان محصلة، وأنّ حاول ذلك وقارب ودنى وحسب في ظنه إنّه سيفعل لكنه لم يفعل ولن يفعل؛ لأنّ ذلك أيوب وحسبك أيوب عليه السلام نبياً صابراً.

وفي رأي آخر للطباطبائي في توجيه مس الشيطان هو أمكانية (أنّ يحتمل أن يكون المراد بانتساب ذلك إلى الشيطان إغراؤه الناس بوسوسته أن يتجنبوا من الاقتراب منه وابتعادهم وطعنهم فيه أنّ لو كان نبيا لم تحط به البلية من كل جانب ولم يصر إلى ما صار إليه من العاقبة السوأى وشماتتهم واستهزاؤهم به)^(٤).

ويبدو أنّ ما قاله الطباطبائي يمكن قبوله باعتبار الكناية مما صار إليه الأمر فابتعاد الناس عنه بداعي وسوسة الشيطان لهم دعا لإصابة أيوب بالنصب والعذاب الناجم من ترك الناس له وهجرانه مما فاقم عليه ثقل المرض، لثقل غربة النفس القاسية دون

(١) سورة يوسف: ٣٣.

(٢) الألوسي: روح المعاني: ٢٣ / ٢٠٦.

(٣) الشريف المرتضى: أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى بن محمد الموسوي (ت ٤٣٦هـ): تنزيه الأنبياء، تصحيح وتعليق: فاطمة قاطي شعار، بإشراف الأستاذ علي أكبر الغفاري، منشورات المدرسة العليا للشهيد المطهري، ط ١٤٢٢، ١هـ، ١٠٣.

(٤) الطباطبائي: تفسير الميزان: ١٧ / ٢٠٩.

مؤانسة احد، فكان الشيطان قد أصابه عيناً وذاتاً بالنصب والعذاب عن طريق ابتقاء الناس له وحيداً دون معين أو مخفف عنه ما هو فيه، فإن قول أيوب هذا لا يقدح بالقول بالتلطف في آية طلب الرحمة من الله فهنا يُعرب عن إغواء الشيطان للناس بالابتعاد عنه، فكأنه قد مسّه بابتعاد الناس عنه، مما دعا إلى إصابته بالعذاب النفسي، وعليه فقد بقي أيوب عليه السلام في كنف الله، وفي نطاق طلب الرحمة وكشف الضر عنه بوصفه أرحم الراحمين، فالتلطف مسائر لأيوب وداخل في خطابه بكلّ جزئياته وتفصيله، فمن يصبر عن الأذى وإصابة جسده بشتى الأمراض القاسية والمؤذية بفقدته لأبنائه جميعاً ولأمواله قاطبة دون أن يفت ذلك من عضده، له جدير بأن لا يمسه الشيطان فمن يمتلك هذه القوة النفسية العالية ، وهذا الكم الهائل من الصبر والتسليم لأمر الله تعالى لا يمكن معه بأي حال من الأحوال أن يُمس بنصبٍ أو عذاب، ولهذا نميل إلى رأي الطباطبائي ونصطف مع مضمون ما قال من أن الأمر مرهون بإغواء الشيطان للناس بالابتعاد عنه، لا بإغوائه لأيوب عليه السلام وحتى لو قيل بأن الشيطان قد أغواه وحاصره بالوسوسة وراوده كثيراً لكي يضعف قوته الداخلية وتمسكه بالله ﷻ وصبره على البلاء يقيناً به سبحانه من أن كلّ ما يحلُّ به هو أجر عظيم له وهو مقياس لمدى صبره، فإن أيوب لا يخرج عن قوته النفسية وصلابته الذاتية.

المبحث الثاني

دلالة التلطف في آيات العقيدة

تحدد الآيات القرآنية في العقيدة ما ينبغي على المؤمنين إن يعتقدوا به، وقد ورد التلطف في عدة مواضع فيها من خلال استعمال الألفاظ المحسنة والرفيقة التي تتسم بالرحمة في دعوة الناس واستمالتهم إلى الإيمان بالله ﷻ، وبغية الإشارة إلى مدى اهتمام الخالق ﷻ بالمخلوق وبيان سبل الدعوة التي اتبعها النصّ القرآني في التعامل الحسن مع الآخرين، فالدعوة تتطلب أساليب تلطفية تحظى بقبول المتلقي وتدخل إلى قلبه السكينة والطمأنينة، وما لهذا التلطف من كبير أثر في توجيه سلوك الفرد والمجتمعات بغية هدايتهم، وهي تبرز اهتمام السماء بالإنسان وتكريمه، فالتلطف يعد جسراً يربط بين الذات الإلهية والمخلوقات، ليُظهر الرغبة الحقيقية في هداية الناس وإسعادهم والتي ستتأتى لا محالة من تقربهم إلى الله ﷻ ولا سبيل غيره.

أولاً: دلالة التلطف في خلافة الأرض

ومن آيات العقيدة تلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

فقد ورد في الخبر (عن ابن عباس «إني جاعل» أي: خالق (في الأرض خليفة) أراد بال خليفة آدم عليه السلام، فهو خليفة الله في أرضه يحكم بالحق، إلا أنه تعالى كان أعلم ملائكته أنه يكون من ذريته من يفسد فيها... وقيل: إنما سمى الله تعالى آدم خليفة، لأنه جعل آدم وذريته خلفاء للملائكة، لأنّ الملائكة كانوا من سكان الأرض، وقيل: كان في الأرض الجن فأفسدوا فيها، وسفكوا الدماء فأهلكوا، فجعل آدم وذريته بدلهم)^(٢).

فالنص يروي لنا إخبار الله ﷻ عن إرادته في إن يجعل في الأرض خليفة مخاطبا للملائكة عن ذلك، فما كان من الملائكة إلا أن ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ تعجباً من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسد فيها، كما فعل

(١) سورة البقرة : ٣٠.

(٢) الطبرسي : تفسير مجمع البيان : ١ / ١٤٧.

بنو الجانّ، أو يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية ... وقوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَيِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ حال مقرّرة لجهة الإشكال، كقولك: أحسن إلى أعدائك وأنا الصديق المحتاج؟! والمعنى أتستخلف عصاة ونحن معصومون أحقّاء بذلك؟ والمقصود منه الاستفسار عمّا رجّحهم مع ما هو متوقّع منهم من الاستخلاف، لا العجب والتفاخر، وكأنهم علموا أنّ المجعول خليفة ذو ثلاث قوى عليها مدار أمره: شهويّة وغضبّيّة تؤدّيان به إلى الفساد وسفك الدماء، وعقليّة تدعوه إلى المعرفة والطاعة، فقالوا: ما الحكمة في استخلافه^(١)، فتعجب الملائكة من هذا الأمر دفعهم إلى التساؤل عن ذلك، لعلمهم المبني على التجربة السابقة التي عايشوها كما يبدو، لذلك دُهِشوا مما سمعوا فلم يستطيعوا الصبر فبادروا إلى هذا التساؤل لشدة حرصهم على عدم تكرار التجارب التي سُفكت فيها الدماء، ومقاتلتهم هذه لم تكن في محلها ولكن وبالرغم من ذلك، فالله ﷻ لم ينهرهم ولم يردعهم بكلام قاس أو أن يستنكر جوابهم له، بل تطف في الإجابة عليهم قائلاً: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنّني أعلم من الصلاح الكائن فيمن أجعله بدلاً منكم ما لا تعلمون، وأعلم أيضاً أنّ فيكم من هو كافر في باطنه لا تعلمونه، وهو إبليس لعنه الله^(٢)، لذا فإنّ (الدرس البليغ الذي يجب أن نستفيده من هذه المحاورة بين الله وملائكته أنّ الإنسان بالغ ما بلغ من العلم ونزاهة القصد، والقوة والسلطان ليس بفوق إن يجادل ويناقش، ويشار عليه ... فالله سبحانه ﷻ وعظمته قد فسح لملائكته مجال الحوار والمقال الذي هو أشبه بالاعتراض، وهم بدورهم لم يحجموا عن ذلك، بل أقدموا على علم منهم بعظمة الله وحكمته، وقد تطف سبحانه في جوابهم، وأبان لهم برفق الدليل المحسوس الملموس، وأخذ اعترافهم بالرضى، والاعتناع، لا بالزجر والغلبة^(٣).

وبعد التأمل في هذا النص وهذا الحوار الذي دار بين الله وملائكته، أمكننا أن نستلهم منه الدروس والعبر، فهذا التلطف الذي لمسناه من إجابة الله ﷻ لملائكته يحيلنا إلى إمعان النظر في كيفية تعامل الله ﷻ بكلّ رافة ورحمة معهم بعدما أخبرهم بأنّه جاعل في الأرض خليفة وهو جل وعلا عالم الغيب والشهادة وليس من المنطق أن تسأله الملائكة

(١) الكاشاني: زبدة التفاسير : ١ / ١١٤ .

(٢) البحراني: البرهان في تفسير القرآن : ١ / ١٦٤ .

(٣) محمد جواد مغنّية: التفسير الكاشف : ١ / ٨١ .

وتتعجب من هذا القرار، ولكن الملائكة لم يجرأوا على ذلك إلا لعلمهم بالرحمة الإلهية، التي وسعت كلَّ شيء، فلم يصبهم خوف أو تردد بالبوح بما في صدورهم فبادروا بالتساؤل عن علة ذلك بشكل مباشر وبمنتهى الحرية، ذلك أنَّ همهم الشاغل هو المصلحة العامة وقصدهم مبني على الفطرة السليمة، التي تدعو إلى العقل إلى الاستفسار وطرح التساؤلات حتى مع خالق الخلق عز وجل، بل هي رسالة واضحة وجليّة إلى (الذين يرون أنفسهم فوق الاعتراضات إن يتعظوا ويستفيدوا من هذا الدرس البليغ، إنهم إذ ينزهون أنفسهم عن الرد والمراجعة يرتفعون بها فوق مكانة العزيز الجبار، من حيث لا يشعرون، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة ٢١٤: لا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استئقالاتاً في حق قيل لي، ولا التماس إعظام لنفسي، فإنّه من استئقل الحق إن يقال له، أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفوا عن مقالة بحق، أو مشورة بعدل)^(١)، فجبار الجبارة يفسح المجال أمام خلقه لمناقشته وطرح التساؤلات والحوار من دون أن يعترض على ذلك كله أو يجرهم أو ينهاهم، بل نراه سبحانه وتعالى متلطفاً في إجاباتهم ومستوعباً لما أهمهم وإن لم يك على سبيل المعارضة بل الاستبيان والتوضيح، لذا فن هذه الحوارية التي دارت بين الله سبحانه وتعالى وملائكته تؤكد بشكل واضح وصريح إلى ضرورة التلطف في حواراتنا لتكون مبنية على أساس من المحبة وتقبل الآخر لا كما نراه على أرض الواقع من سياسة تكميم الأفواه وتعطيل العقل وتهميش الفكر المتبعة حينما تختلف الأفكار وتتباين الآراء فيلجأ العاجزون إلى مقارنة من يختلف معهم أو إن يطرح التساؤلات أو أن يطرح فكراً مغايراً للأفكار والمعتقدات والمتبنيات التي ينتهجها البعض ممن يمتلكون السلطة أو اليد العليا، فلا يسمحون لأحد بالتفكير أو إبداء رأي؛ لا يتفق مع ما يعتقدون أو يخالف منهجيتهم التي يسيرون وفقها.

(١) محمد جواد مغنية: التفسير الكاشف: ١ / ٨٢

ثانياً: دلالة التلطف في التذكير بالنعمة والمساواة بإيفاء العهد

ومن جنس ذلك، ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَانْهَبُونَ﴾^(١). عند التأمل في النص نجد بأن الله ﷻ قد وجه خطابه لبني إسرائيل بتذكيرهم بنعمه عليهم، وهذا التذكير من الخالق لخالقه تلطف لا محالة لاستمالتهم عن طريق تذكيرهم بكل نعمه التي خصهم بها دون سائر الأمم فكما إنّه انعم عليهم كان ينبغي عليهم شكر هذه النعمة بأن يلتزموا بالعهد ويوفون به فـ (الوفاء به يتأتى باتباع ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، ويندرج فيه كل ما أخذ على بني إسرائيل في التوراة، من اتباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم متى بعث، والإيمان بما جاء به من عند الله وتصديقه فيما يخبر عن ربه، والمعنى: وأوفوا بما عاهدتموني عليه من الإيمان بي، والطاعة لي، والتصديق برسلي، أوف بما عاهدتكم عليه من التمكين في الأرض في الدنيا والسعادة في الآخرة)^(٢)، فجاء الخطاب لهم متلطفاً معهم، داعيه المساواة، بمعنى أنّ عهدهم هذا سيكون في قبال عهد الله ﷻ، فـ(العهد: هو الأمر المؤكد، ومعناه: ﴿أوفوا بعهدي﴾ بامثال أمري، ﴿أوف بعهدكم﴾ بالقبول والثواب)^(٣).

لذا نجد كيف أنّ الله ﷻ قد تلطف مع بني إسرائيل بتذكيرهم بنعمه وبضرورة التزامهم بعهدهم والإيفاء به، فهو خطاب عتاب أريد منه ضرورة رجوعهم إلى طريق الحق، والتزام بالعهد الذي ألزم الله ﷻ به نفسه، فإذا ما ألتزموا بعهدهم التزم الله بعهدهم اليهم، ذلك أنّ (الأوامر الثلاثة التي تذكرها الآية الكريمة وهي: تذكر النعمة الإلهية، والوفاء بالعهد، والخوف من الله، تشكل المنهج الإلهي الكامل للبشرية، تذكر النعمة الإلهية يحفز الإنسان للاتجاه نحو معرفة الله سبحانه وشكره، واستشعار العهد الإلهي الذي يستتبع النعمة الإلهية يدفع الكائن البشري إلى النهوض بمسؤولياته وواجباته، ثمّ الخوف من الله

(١) سورة البقرة : ٤٠ .

(٢) طنطاوي : التفسير الوسيط للقرآن الكريم : ١ / ١٠٦ .

(٣) السمعاني : تفسير السمعاني : ١ / ٧١ .

وحده - دون سواه - يمنح الإنسان العزم على تحدي كل العقبات التي تقف بوجه تحقيق أهدافه والالتزام بعهده^(١).

فإيفاءه ﷺ في حال التزاموا بما عليهم من العهد هو (من اللطف والتوفيق والتسديد وثواب الآخرة، ويؤخذ من الآية قاعدة كلية وهي أن من لم يف بعهد الله فيما أخذه من الدين والشريعة فهو بنفسه قد نقض عهد الله معه وخرج عن كونه أهلاً لما وعد به من اللطف والرحمة واستجابة الدعاء وعلى ذلك جاءت صحيحة القمي عن جميل عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في استجابة الدعاء)^(٢).

وعليه فقد تطف الله ﷺ بمخاطبتهم عوضاً عن التصريح بخيانتهم وعدم وفائهم بالعهد أصلاً، (أوفوا بما أمرتكم من طاعتي، ونهيتكم عن معصيتي في النبي ﷺ وغيره: ﴿أوف بعهدكم﴾ أي أَرْضَى عَنْكُمْ، وأدخلكم الجنة وسمى ذلك عهداً، لأنه تقدّم بذلك إليهم في الكتب السابقة كما قال: ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وأن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾^(٣).

لذا فتلطفه ﷺ أتى لتذكيرهم وتوجيههم إلى سبيل الهداية وبغية تذكيرهم بعهدهم باتباع النبي ﷺ وبخلافه سيكونون قد نقضوا هذا العهد، وبالمحصلة يمكننا أن نلمس التلطف في الخطاب بدءاً بنسبهم إلى إسرائيل نسبة إلى يعقوب عليه السلام فشرفهم بذلك النسب والأصل الطاهر وهو بمثابة دعوة أيضاً للرجوع إلى ما كان عليه سلفهم الصالح، ومن ثم ذكرهم بنعمه ﷺ عليهم فلم يذكر هذه النعم بالتفصيل فلم يورد أنجائهم من فرعون أو تفضيلهم على العالمين، بل اجملها بنعمتي من دون إشعارهم بالمنة ومن أجل استمالة قلوبهم وحثهم على شكر هذه النعمة بدلاً من تفريرهم أو إذلالهم، ومن ثم أشار إليهم بضرورة الوفاء بالعهد الذي أوصاهم به موسى عليه السلام من اتباع النبي ﷺ، في قبال إيفائه ﷺ لهم بعهده إذا ما التزموا به بالنجاة والنصر وحسن العاقبة، وهو من باب الإنصاف من دون تهديد أو وعيد، وأخيراً جاء منبهاً لهم بقوله تعالى ﴿وَإِيَّايَ فَازْهَبُون﴾ والمعنى أي لا ترهبوا من غيري وهو خطاب توجيه وتربية، ليبين لهم إنه ﷺ أولى بأن ترهبونه من

(١) ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ١ / ١٧٩.

(٢) محمد جواد البلاغي النجفي: آلاء الرحمن في تفسير القرآن: ١ / ٨٨.

(٣) الطوسي: التبيان في تفسير القرآن: ١ / ١٨٣.

رهبته غير من البشر حتى الطواغيت منهم، فلم يقل لهم (فأخشوني أو خافوا عقابي أو انتقامي) بل اكتفى بهذه الإشارة عن إيراد غيرها من الكلمات القاسية.

ثالثاً: دلالة التلطف في طلب موسى ﷺ رؤية الله ﷻ

ومن جنس آيات العقيدة أيضاً، ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ نُنْظِرُكَ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

بعدما طلب موسى ﷺ من ربه إن ينزل عليه كتاباً يهدي الناس إلى ما يحتاجون إليه من أمور دينهم، وعده الله سبحانه وتعالى بإنزال الكتاب عليه بعد ثلاثين ليلة ويستمر تنزيله عشر ليالٍ، ليكون المجموع أربعين ليلة، فاستخلف موسى ﷺ أخاه هارون على قومه ناصحاً له ومحذراً إياه من طبيعتهم التي تميل إلى الفساد^(٢).

وقد أورد النص ذلك بشكل موجز فقد (جعل مجيء موسى في الوقت المعين أمراً حاصلًا غير محتاج للإخبار عنه، للعلم بأن موسى لا يتأخر ولا يترك ذلك، وجعل تكليم الله إياه في خلال ذلك الميقات أيضاً حاصلًا غير محتاج للإخبار عن حلوله، لظهور أن المواعدة المتضمنة للملاقة تتضمن الكلام، لأن ملاقة الله بالمعنى الحقيقي غير ممكنة، فليس يحصل من شؤون المواعدة إلا الكلام الصادر عن إرادة الله وقدرته، فلذلك كله جعل مجيء موسى للميقات وتكليم الله إياه شرطاً لحرف (لما) لأنه كالمعلوم، وجعل الإخبار متعلقاً بما بعد ذلك، وهو اعتبار بعظمة الله وجلاله، فكان الكلام ضرباً من الإيجاز بحذف الخبر عن جملتين استغناء عنهما بأنهما جعلتا شرطاً للما^(٣).

وأما سؤال موسى ﷺ فلا (نشك في أنه سأل رؤية تليق بذات الله تعالى، وهي مثل الرؤية الموعود بها في الآخرة، فكان موسى يحسب أن مثلها ممكن في الدنيا حتى أعلمه

(١) سورة الأعراف: ١٤٣.

(٢) يُنظر: محمد جواد مغنية: التفسير الكاشف: ٣ / ٣٩١.

(٣) ابن عاشور: التحرير والتنوير: ٩ / ٨٩.

الله بأن ذلك غير واقع في الدنيا^(١)، وما دفعه ﷺ لهذا الطلب الحب الإلهي (فبعد التكلّم وإحساس لذة المناجاة والمخاطبة: اشتدّ الاشتياق والتهب حرارة اللقاء والطلب والوصل، وخرج عن حالة الاختيار وتمالك نفسه، وسأل الرؤية المطلقة الكاملة والوصل، وطلب كمال اللقاء والشهود، غير مقيد برؤية عين ولا متوجّه إلى جهة مخصوصة وإلى صورة ممكنة في عالمه أو ممتنعة)^(٢).

ففي سؤال موسى ﷺ لربه ﷻ تلطف جلي فقوله: «رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ» فلم يقل (أرني نفسك) ذلك لأن «أرني» مفعولُه الثَّانِي محذوفٌ، تقديره: أرني نفسك، أو ذاتك المقدَّسة، وإنَّما حذفه مبالغةً في الأدب، حيث لم يواجهه بالتَّصريح بالمفعول^(٣)، فلم يقل (أرني نفسك) أو (أرني ذاتك) تعقُّفاً عن ذلك، لإيمانه بأن الله عز وجل موجود، فاراد بـ(أرني) أي (بمعنى اجعني مُتمكِّناً من الرؤية التي هي الإدراك)^(٤)، ولم يكتفِ بذلك بل اتبعها بـ (أَنْظُرْ إِلَيْكَ) وتعليل ذلك هو أن النظر لا يساوي الرؤية، فأنظر إليك بمعنى أتأملك، أو أنظر إليك في بديع خلقك، فالنظر تسديد البصر نحو الشيء فلا يلزم إدراكه، على حين أن الرؤية تسديد النظر مع إدراكه، فـ(الفرق بينهما أن الرؤية هي: إدراك المرئي، والنظر: الإقبال بالبصر نحو المرئي، ولذلك قد ينظر ولا يراه، ولذلك يجوز أن يقال لله تعالى: إنّه، راء ولا يقال: إنّه ناظر، وفيه نظر)^(٥).

فالرؤية هي تشخيص الشيء، بينما النظر توجيه البصر ليس إلا من دون شرط التشخيص، لذا ففي قوله (أَنْظُرْ إِلَيْكَ) فمفاد النظر ههنا لا يراد منه بالضرورة تحقيق الرؤية فيه، بل هو إرادة الدليل فد كان بصدد الإجابة عن قومه حينما سألوه أن يروا الله ﷻ جهرة، لذلك طلب من الله ﷻ ليريهم دليلاً، وحتى لو لم يكن الأمر كذلك وكان الطلب

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير: ٨٩ / ٩.

(٢) حسن المصطفي: التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ١٥ / ٤.

(٣) الدمشقي: أبو حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحلبي (ت ٨٨٠هـ): اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، نشر دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ٣٠١ / ٩.

(٤) الزمخشري: الكشاف: ١٤٤ / ٢.

(٥) العسكري: الفروق اللغوية: ٣٧٤.

من نبي الله موسى عليه السلام فهو امر مباح ولا إشكال فيه دافعه الحب والشوق لله ﷻ فاستعمل التلطف في طلبه كما أشرنا مع معرفته بأن الله جل وعلا لا يرى، ذلك أن (التعليم القرآني يعطي إعطاء ضرورياً أن الله تعالى لا يماثله شيء بوجه من الوجوه البتة فليس بجسم ولا جسماني، ولا يحيط به مكان ولا زمان، ولا تحويه جهة ولا توجد صورة مماثلة أو مشابهة له بوجه من الوجوه في خارج ولا ذهن البتة، وما هذا شأنه لا يتعلق به الإبصار بالمعنى الذي نجده من أنفسنا البتة، ولا تنطبق عليه صورة ذهنية لا في الدنيا ولا في الآخرة ضرورة)^(١).

رابعاً: التلطف في عدم ذكر الموت صراحة:

من جنس ذلك، ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(٢)، فإن (المراد باليقين هنا الموت لأنه واقع لا محالة والقصد أن يستمر الإنسان في العبادة والإخلاص لله مدة حياته: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾^(٣))^(٤)، فجاءه الأمر بأن (يعبد ربه إلى الوقت الذي يأتيه اليقين، ومعناه حتى يأتيه الموت في قول الحسن ومجاهد وقتادة، وسمي يقيناً، لأنه موقن به توسعاً وتجوزاً، لأنه مما يوقن به جميع العقلاء، ويحتمل أن يكون أراد، حتى يأتيه العلم الضروري بالموت والخروج من الدنيا الذي يزول معه التكليف)^(٥)، وكثير من التفاسير ذهبت إلى هذا المعنى فاليقين (أي: الموت، فإنه متيقن لحاقه كل حي مخلوق)^(٦)، فلم يأتِ النص القرآني ههنا على ذكر الموت صراحة، بل استعمل لفظة (اليقين) تلطفاً بنبينا محمد ﷺ أولاً وكذلك لدلالة أن الموت هو أمر متيقن وثابت الوقوع، وهو نهاية حتمية لأي إنسان فجاءت لفظة اليقين لترسيخ هذين المعنيين بلفظة واحدة.

(١) الطباطبائي: تفسير الميزان : ٨ / ٢٣٨.

(٢) سورة الحجر : ٩٩.

(٣) سورة مريم : ٣١.

(٤) محمد جواد مغنية : التفسير الكاشف : ٤ / ٤٩١.

(٥) الطوسي : التبيان في تفسير القرآن : ٦ / ٣٥٦.

(٦) المشهدي : تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب : ٧ / ١٧١.

وعليه فإنّ التعبير عن الموت باليقين يعكس غايةً بلاغيّةً لاستمالة النفوس دون إثارة الخوف والرهبّة في المتلقي، مما يجعله أكثر تقبلاً لفكرة استمرار العبادة حتى آخر لحظة من حياته.

المبحث الثالث

دلالة التلطف في آيات الأحكام

يعدّ التلطف من أبرز الأساليب البلاغية بوصفه ظاهرة تنطوي على بُعد تربوي عميق في القرآن الكريم، ولم تفارق هذه الظاهرة آيات الأحكام التي تُعنى بتنظيم حياة الإنسان في عباداته ومعاملاته، والتلطف في سياق آيات الأحكام لا يُفهم مجرد تزيين للخطاب، بل يُعبّر عن رُقيّ تعبير النصّ القرآني في إيصال التكليف بأسلوب يتسم بالحكمة والرحمة والرفق، ويستنهض وجدان المخاطب دون قهر أو تخويف أو شدة، فأيات الأحكام في القرآن الكريم وبالرغم مما تحمله من إلزام وتشريع، كثيراً ما تُصاغ بصيغة تراعي فطرة الإنسان، وتجنح إلى الرفق والتيسير، حيث ترد الأحكام ضمن أطار من الرحمة والتسهيل، مما يدلّ على أنّ التلطف ليس طارئاً فيها، بل أصيل في المنهج التشريعي.

أولاً: دلالة التلطف في آية ليلة الصيام

ومن آيات الأحكام المتضمنة للتلطف، ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾^(١).

عند التأمل في النصّ القرآني في هذه الآية نجد سمة التلطف في عدّة مواضع، منها (الرفث الجماع هاهنا بلا خلاف، وفي قراءة ابن مسعود (فلا رفوث)، وقيل: أصله فاحش القول فكّني به عن الجماع قال العجاج: عن اللغو ورفث التكلم والرفث والترفت: قول الفحش يقال رفث يرفث رفثاً)^(٢)، (الرفث أصله القول الفاحش، فكّني به عن

(١) سورة البقرة : ١٨٧.

(٢) الطوسي : التبيان في تفسير القرآن : ١٣٢ / ٢.

الجماع، لأنه لا يكاد يخلو من قبح، فيجب أن يكفى عنه، وعدّي به (إلى) لتضمّنه معنى الإفضاء^(١)، فالمراد من الرفث كما أشار المفسرون جاء كناية عن الجماع والكلام الممهّد له، فلم يُصرّح به بشكل مباشر من باب التلطف، ذلك أن (أصل الرفث قول الفحش والتكلم بالقبيح، ثم جعل ذلك اسماً لما يتكلم به عند النساء من معاني الإفضاء، ثم جعل كناية عن الجماع)^(٢)، فقد تعفف النصّ القرآني عن إيراد العلاقة الزوجية صراحة ولأته الكلام الفاحش، كما هو معهود آنذاك، فكفى النصّ عن هذه العلة بالرفث ليُدرك أهمية إيلاء هذه العملية الخصوصية المبنية على الاحترام للذات الإنسانية، فتحرّى الأدب عند ذكرها، فيتجنب التصريح بالكلمات التي قد تستثقل في السمع خاصة الحساسة منها كالجماع، مما يجعله أنسب في التعبير عن الممنوع ليشيع المباح في سياقات النصّ القرآني.

ثم جاءت الآية التي تليها لتثبت هذا المعنى فقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ فعند النظر في هذه الآية نجد أن لفظة (اللباس) قد استعملت من باب التلطف، إذ (الظاهر من اللباس معناه المعروف وهو ما يستر به الإنسان بدنه ... فإنّ كلاً من الزوجين يمنع صاحبه عن اتباع الفجور وإشاعته بين أفراد النوع فكأن كلّ منهما لصاحبه لباساً يوارى سواته ويستر به عورته)^(٣)، ودليل ذلك (إنّ الإنسان يستر عورته عن غيره باللباس، وإمّا نفس اللباس فلا ستر عنه فهكذا كل من الزوجين يتقي به صاحبه عن الرفث إلى غيره وإمّا الرفث إليه فلا، لأنه لباسه المتصل بنفسه المباشر له)^(٤)، وقد بيّن الله تعالى صلة الرجل بإمراته بأدق تعبير وأرق قول في هذه الآية ذلك بأنّ (العلاقة بين الزوجين تجعل الزوجة كأنها لباس لزوجها تستره، وتمس جسمه وتكون منه

(١) الكاشاني: زبدة التفاسير: ٣٠٧/١.

(٢) مير علي الحائري الطهراني: تفسير مقتنيات الدرر: ٢٧/٢.

(٣) الطباطبائي: الميزان: ٤٤/٢.

(٤) م. ن: ٤٥/٢.

بمنزلة الشعار والذثار، وهو لها كأنه لباس يسترها ويكون فيها بمنزلة الشعار والذثار، يلامس جسمها جسمه، فتكون المشاعر التي تثير وتهيج...^(١).

على حين ذهب بعض المفسرين إلى معنى آخر في توجيههم لفظة (اللباس) وهو (السكن) بقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لِهِنَّ﴾ أي: هن سكن لكم وانتم سكن لهن^(٢)، وعند الرجوع إلى معنى مادة (لبس) في القرآن الكريم، نجد أن العلامة المصطفوي يورد أصل هذه المفردة بقوله: (إنَّ أصل لبس هو الستر بعنوان الحفظ ومن مصاديقه لباس البدن، لباس الكعبة، لباس الهودج، وكل من الزوجين ساتر وحافظ للآخر في حياتهما، ثم أنَّ اللباس بعض مصاديقه مادية وبعضها معنوية... ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾^(٣)^(٤).

وعند إمعان النظر في التفسيرات والتوجيهات لهذه المفردة لما لها من الأهمية نجد أن النص القرآني أراد توجيه الإنسان وإفاته نظره على ما ينبغي أن تكون عليه العلاقة الزوجية من أن يكون كل من الزوجين ملاصق للآخر يحمي احدهما الآخر ويعده بمثابة السكن والحماية في إشارة إلى بناء العلاقة الزوجية على أساس متين لا يمكن أن يتزعزع بسهولة، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال تقوى الرجل والذي يتحقق بتقوى المرأة، والعكس، فلا يتحقق تقوى المرأة إلا بتقوى الرجل، وإذا ما التفتنا إلى أن الابتداء أو التقديم له مدخلية تدلّ على الأهمية أو الأشرفية سيتضح حينها أن حاجة الرجل للمرأة أكثر وأشد من حاجة المرأة إلى الرجل، فبالرغم من أن سياق الآية مرتبط بالبعد الجنسي، ولكن هذا لا يمنع من أن تكون هناك مجموعة مصاديق تنضوي تحت البعد الذي تبتغيه الآية وهذا ما لمسناه من خلال توجيهات بعض المفسرين إلا أن لفظة اللباس قد يراد منها السكن وهي مزية تضاف إلى مزايا التلطف في إيراد هذه المفردة دون غيرها، فمع أن اللباس شيء والسكن شيء آخر، كما هو معلوم، إلا إنهم أخذوا أحد

(١) أبو زهرة: محمد أحمد مصطفى: (ت ١٣٩٤ هـ): زهرة التفاسير، دار النشر: دار الفكر العربي: ١/ ١٧٤.

(٢) الألوسي: روح المعاني: ١٤٠/٣.

(٣) سورة الأعراف: ٢٦.

(٤) حسن المصطفوي: التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ١٧٨/١٠.

مصاديق اللباس وهو الحفظ و الستر فكما أنّ اللباس يستر البدن كذلك السكن فهو يحفظ الإنسان ويأويه من الحر والبرد ويحميه، لذا استعمل التلطف كمفهوم عام ارتبط بعدة مصاديق أوسع مما فهم.

ثانياً: دلالة التلطف في آية كفارة الظهر

فمن جنس آيات الأحكام التي وردت بأسلوب التلطف، قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تُوَعِّظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(١).

الآية تتحدث عن (الذين يظاهرون من نسائهم ما هن أمهاتهم إنّ أمهاتهم إلّا اللاتي ولدنهم... الخ، نفي لحكم الظهر المعروف عندهم وإلغاء لتأثيره بالطلاق والتحرير الأبدي بنفي أمومة الزوجة للزوج بالظهار فإنّ سنة الجاهلية كانت تلحق الزوجة بالأم بسبب الظهر فتحرم على زوجها حرمة الأم على ولدها حرمة مؤبدة)^(٢)، فالآية بصدد توجيه أمر تشريعي عكف عليه الناس منذ أيام الجاهلية، وذلك بمظاهرة زوجاتهم فكأنهم يلحقون الزوجة كالأم وهو أمر أستنكره الإسلام وأكد على عدم حرمة وأوجب عليه الفدية، ثم أنّ في النصّ القرآني تلطف آخر ففي قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾، إذ لم يقل (ثُمَّ يُجَامِعُونَهُنَّ) أو (ثُمَّ يَعُودُونَ إِلَى نِسَائِهِمْ) بل اتكأ النص على بيان ذلك من بالإشارة بالنصّ (ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا) فكان الخطاب يستنكر عليهم القول قبل الفعل والمضمر فيما قالوه و صدر منهم، فركز النصّ على القول ومؤداه في أنّ معاً لا على الفعل وهو الميل الغريزي للزوجة، وبهذا فإنّ النصّ القرآني يُرَبِّي المتلقي على تحمل مسؤولية الكلمة قبل الفعل، ثمّ يجيء النصّ القرآني بصيغة المجهول قائلاً (فتحرير) بدلاً من الأمر المباشر (فحرّروا) وفي ذلك تلطف يبعد الإلزام المباشر ليجعل من الحكم نتيجة طبيعية لمن يعودون إلى هذه المخالفة وهو بهذا يكون أسلوباً أكثر تأثيراً في النفس.

أمّا تعبير النصّ القرآني بـ (الرقبة) وهنا دون سائر أعضاء الجسد فهو من باب الكناية عن الإنسان، وذلك باعتبار أنّ الرقبة أرقّ أعضاء جسم الإنسان حساسية، ولذا يُعبر عن

(١) سورة المجادلة : ٣.

(٢) الطباطبائي : الميزان : ١٧٨ / ١٩.

الشخص رأس فيقال خمسة رؤوس بدلاً من خمسة أشخاص^(١)، وهو يعبر على حالة العبودية بالتحديد، وفي ذلك تلطف آخر يضم إلى المفردات التي ذُكرت، فلم يأتِ النص على ذكر (عبد) أو (أمة) متجنباً بذلك عن إيراد وصف مهين أو من شأنه إن يجرح مشاعر من أستعبد ويدلّ أيضاً على احترام الإنسان حتى وهو في حال الرق، فاستعمل المعنى المجازي، وإما لفظة (يتماسا) التي وردت في سياق الآية، فهي من أبلغ صور التلطف فلم يستعمل الألفاظ الحسية المباشرة كـ (الجماع) أو (النكاح)، بل لجأ إلى كناية رقيقة عوضاً عن غيرها، ذلك أن (الله حيّ كريم يعفّ ويكفّر فيعبر عن المباشرة بالملامسة)^(٢)، لما تحمله هذه المفردة من تلطف في إيراد المعنى المراد إلاّ هو المباشرة لكن النصّ ينتقي من الألفاظ أجملها وأعماها، لزيادة في المعنى ولتوكيد عدة جوانب لو لم تستعمل هذه المفردة واستبدلت بغيرها لما كان لها المعنى نفسه، بل أنّ هناك قصدية ومبتغى من وراء هذا الانتقاء، وكما أوضح المفسرون من أنّ موضوع الآية كان الظهار فكانت لهذه المفردة دون سواها مغزى يفسر ذلك، فبالرغم من التلطف الموجود فيها ألاّ أنّها توحى بتشدّد في عدم اقتراب احدهما من الآخر فعبر بالتماس توكيداً على الحرمة، وعلى النهي عن هذه الحالة التي كانت سائدة في زمن الجاهلية لما لها من آثار في هدم الأسرة وتحقير العلاقة الزوجية بين الزوج وزوجه، إضافة إلى التجاوز المبني على الخلط بين الزوجة والأم فكيف تكون الزوجة أمّاً لكل خصوصيته فلأم مكانتها العالية والمقدسة في الشريعة الإسلامية ولا ينبغي المساس بهذه القدسية، بإلقاء الكلام الفارغ والمعيب من أجل خلافات زوجية، بدعوى الظهار ذلك إنّه (قول الرجل لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي، وكان أهل الجاهلية إذا قال الرجل منهم هذا لامرأته بانّت منه وطلقت) وهو أمر مرفوض بالمحصلة، ولذا اقتضى التشديد في ذلك (والذي يقتضيه الظاهر ألاّ يقربها بجماع على حال ولا بمماسة شهوة)^(٣)، والمساس ههنا يمكن عدّه أدنى درجات الاتصال، لكنه بلا ريب في سياق العلاقة الزوجية وهو أمر يفهم ضمناً، من أجل إيصال المعنى دون إثارة حياء أو خجل المتلقي ومراعاة للذوق العام، إضافة أنّ المساس قد ورد

(١) يُنظر: ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : ١٨ / ١٠٨.

(٢) مير علي الحائري الطهراني: تفسير مقتنيات الدرر : ٣ / ١٠٨.

(٣) الطوسي : التبيان في تفسير القرآن : ٩ / ٥٤٣.

بصيغة المضارع للدلالة على الاستمرارية والحدوث مستقبلاً دلالة على وجوب الكفارة هذه وضرورة إنجازها قبل التماس الحقيقي، وإلا وقعوا في الإثم، وفي ذلك تربية وتهذيب للنفس.

ثالثاً: دلالة التلطف في الفعل (كُتِبَ)

فمن النصوص القرآنية الأخرى التي نتلمس فيها التلطف في آيات الأحكام، هو قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

الخطاب هنا موجه إلى المؤمنين، أمرنا إياهم بالجهاد في سبيل الله والدفاع عن المال والعرض، وقد فرض الله القتال على المسلمين لا لأنه مطلوب ومحبوب لذاته، ولا ليتسع ملكهم، ويمتد سلطانهم، ويعيشوا على حساب غيرهم من الشعوب، وإنما فرضه عليهم لنصرة الحق، والدفاع عنه، فإنّ الحق من حيث هو ليس إلا مجرد فكرة ونظرية، أما تطبيقها والالتزام بها فيحتاج إلى العمل الجاد^(٢)، ولكن صيغة الأمر لم تأت على سبيل الفرض فلم يقل (فَرَضَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ) بل جاءت بدلاً عنها ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ وهو من باب التلطف بداعي التخفيف ذلك أنّ القتال من الأمور الشاقة غير المرغوب فيها لذا انتقى النصّ لفظة أخفّ وقعاً على المؤمنين وهي صياغة إخبارية تدلّ على الإنشاء الخبري لطلب هذا الشيء وفرضه ولكن بطريقة تلطفية روعي فيها تخفيف المشقة كما يمكن أن يقال، وهي من قبيل قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ فكذا الحال فيها فإنّ الصوم أيضاً شاق، ولذا استعمل النصّ القرآني التلطف في إيراده، الصيام انقطاع عن الطعام والشراب والملذات لمدة من الزمن يحرم الإنسان نفسه منها ويبتعد عن الخطايا وينأى بنفسه عن الخطيئة فيعفّ فرجاً وبطناً ولساناً ويداً، وبالتالي تعدّ مسألة تهذيب النفس البشرية، وعملية التهذيب ترتبط بالصبر، والصبر شاق على الإنسان، ولهذا قيل: (من يتقن الصبر يُتقن كلّ شيء) حتى ارتقى الصابرون إلى نطاق حب الله سبحانه، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ بالتالي فعملية الصيام شاقة فلم يأت بها قائلاً

(١) سورة البقرة : ٢١٦ .

(٢) محمد جواد مغنّية : التفسير الكاشف : ٣٢٣/١ .

(فصوموا)، بل استعمل التلطف ليخفف على المتلقي تلقيه لهذا الأمر وأداء الواجب الفرضي الذي هو ينطوي على الصعوبة والعسر ويتطلب صبراً طويلاً، وكذا الحال في قضية (القتال) فهي أمر بين الحياة والموت لأنّ الإنسان سوف يعرض نفسه إلى الموت، ويترك كلّ شيء في الحياة وهو أمر يثقل على الإنسان وعسير عليه ومتردد فيه، لأنّ الجود بالنفس أقصى غايات الجود، لذا لم يواجههم بشكل مباشر ولم يقل قاتلوا، ﴿وَهُوَ كُرَّةٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ فكأنه استعمل (كتب) ومن بعدها وهو خير لكم وذلك (لكون الجهاد مصلحة لمن أمر به، أي فرض عليكم قتال الكفرة والجهاد في سبيل الله مع أعداء الدين وهو فرض على الكفاءة)^(١)، فإن استطعتم الانتصار وما زلتم تمتلكون الحياة فهذا خير وفضل من الله وأجر عظيم، وإن فقدتم حياتكم وذهبتم إلى الله ﷻ تحت عنوان الشهادة فهذا أعظم ما يكون لأنّ الشهيد بمقام الأنبياء يوم القيامة، فكلا الأمرين هو خير، وبالنتيجة لا تأسفوا على شيء فإن انتصرتم فهو خير وإن قُتلتم وغادرتم فهو أكثر خير لأنكم ستنالوا البر من الله، وكلّ ذلك كان سبب في تلطف النصّ مع الإنسان لأته في مقام الخوف والمشقة والتردد، وبالمحصلة فـ(كتب) أوسع دلالة وأخف وقعاً، كما أنّها توحى بالتقدير السابق من الله ﷻ، فهو أسلوب تخيفي يستعمل في مقام التكاليف الثقيلة، تقيلاً من أثر الحكم. إنّ دلالة التلطف في آيات الأحكام، تكشف عن البعد البلاغي الذي يستهدف القبول النفسي للأمر والنهي ويؤكد على أنّ الشريعة الإسلامية والخطاب القرآني الموثق لهذه الشريعة لا يقف عند حدود الأحكام الجافة، بل إنّ النصّ القرآني يراعي المقامات النفسية والاجتماعية، ويخاطب الإنسان بوصفه مكلفاً عاقلاً ذا مشاعر وأحاسيس، لذا فإنّ استعمال التلطف بأساليب متعددة كالتخيير والاستدراج والتخفيف كل ذلك يعبر عن أوجه متعددة لهذه الظاهرة في سياق التشريع، من هنا كانت دراسة دلالة التلطف في آيات الأحكام تفتح آفاقاً لفهم عميق لمقاصد الشريعة، وتبرز توازن النصّ القرآني بين الإلزام والبيان وبين الحزم والرحمة، وتظهر كيف تتجلى بلاغة الخطاب القرآني في أدق مظاهر التعبير التشريعي.

(١) مير علي الحائري الطهراني : تفسير مقتنيات الدرر : ٥٣/٢

الخاتمة

وأهمّ النتائج

الخاتمة

بعد هذا المسار البحثي وما تضمّنه من دراسة ظاهرة التلطف في خطاب القرآن الكريم، فإنّه يمكن للباحث الخروج بجملة من النتائج التي يمكن إيجازها على النحو الآتي:

١. إنّ ظاهرة التلطف في القرآن الكريم ظاهرة نصيّة مقصودة، تتجاوز البعد الجمالي والبلاغي إلى مقاصد دعوية وتربوية وتأويلية، تُنتج بالمحصلة رؤية جديدة ومقاصد أعمق من النصّ القرآني إلى المتلقي، ولهذا فإنّ النصّ القرآني قد وظّف التلطف في خطابه لكافة شرائح المخاطبين، بما فيهم من لا يتفق مع الإسلام في المعتقد أو الدين، مما يدلّ على سعة الرحمة في منهج الدعوة القرآني.

٢. أصل البحث لمفهوم التلطف في القرآن الكريم إذ يتمايز عن المفاهيم الأخرى المقاربة، إذ إنفرد التلطف بكونه ظاهرة قائمة على إستبدالٍ واعٍ ومقصودٍ للألفاظ ذات الحدة أو المباشرة بأخرى أكثر رقةً وليناً بما يخدم مقاصد القرآن البلاغية والتربوية والتوعوية، وتستند هذه الظاهرة إلى دوافع عقلية ومنهجية تستهدف التأثير على المتلقي، بعيداً عن الإنقياد لأي مبررات اجتماعية ظرفيّة أو معتقدات خرافيّة وأوهام أسطورية لا أصل لها.

٣. استعمل النصّ القرآني عدّة أساليب بلاغيّة خطابية متنوعة في نطاق التلطف، كالمفارقة، والاستدراج، والحجاج، وذلك بغية تقريب المعنى وتليين القلوب دون إلغاء للحقائق العقديّة، الأمر الذي يكشف عن عمق البناء النصّي في القرآن الكريم.

٤. أظهر البحث أنّ ظاهرة التلطف في الخطاب القرآني قد تجلّت في ميادين متعددة، شملت البنية العقديّة، والسرد القصصي القرآني، وآيات الأحكام التشريعيّة، الأمر الذي يفتح آفاقاً واسعة لاستكشاف جملة من المعاني والمضامين العميقة الكامنة وراء هذا الأسلوب، بما يعكس تنوّع وظائفه وأبعاده الدعوية والأخلاقيّة.

٥. وجد الباحث أنّ الخطاب القرآني متناسقاً مع فطرة الإنسان، ويستثمر التلطف لتهيئة النفس لقبول الهداية دون عنفٍ لغويٍّ أو إكراهٍ فكريٍّ.

٦. التلطف يبرز الإعجاز القرآني، في كيفية التعبير مع واقع المتلقي ومستوى وعيه وتاريخه الثقافي، مما يجعله دائم التأثير عبر العصور.
٧. يكشف التلطف عن حكمة التشريع الإلهي في التهوين على المتلقي عن طريق استبدال، الألفاظ الخشنة بأخرى أطف وأكثر راحة وتخفيفاً على النفس من دون الإخلال بالمعنى مع انسجام بين الصياغة والغاية.
٨. يمثل التلطف استراتيجية قرآنية في الإقناع والبيان والتأثير، تجمع بين الجاذبية التعبيرية والصرامة المنهجية في عرض الحق، وتفتح آفاق التدبر أمام المتلقي.
٩. يعزز التلطف البعد التربوي في الدعوة منطلقاً من مبدأ الهداية عن قناعة، من خلال مراعاة مشاعر المخاطب وإشراكه في تلقي الرسالة بوعي لا برده فعل.
١٠. تدعو هذه الظاهرة إلى تأمل أعمق في النصوص القرآنية، وقراءة بلاغتها في ضوء المقاصد والسياقات، لا الاكتفاء بالمستوى الظاهري من الأسلوب.
١١. تؤكد الدراسة مركزية التلطف في الخطاب القرآني، ليس خياراً بلاغياً فحسب، بل ضرورة تعبيرية نابعة من رحمة الرسالة ومقصدها الإلهي.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

خير ما نبدأ به: القرآن الكريم

١. ابن إدريس الحلي: محمد بن منصور بن أحمد بن إدريس (ت ٥٩٨هـ): المنتخب من تفسير القرآن والنكت المستخرجة من كتاب التبيان، تحقيق وتقديم السيد مهدي الموسوي الخرساني، الناشر العتبة العلوية المقدسة، ط ١، ٢٠٠٨م.
٢. ابن الأثير: ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت ٦٣٧هـ): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر - بيروت، د.ط، د.ت.
- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق: د. مصطفى جواد و د. جميل سعيد، المجمع العراقي، ١٩٥٦م.
٣. ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ): زاد المسير في علم التفسير، الناشر المكتب الإسلامي - بيروت، ط ٣، ١٤٠٤هـ.
٤. ابن المنير الإسكندري: ناصر الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨٣هـ): الإنصاف فيما تضمنه الكشاف، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، عباس ومحمد محمود الحلبي وشركاهم - خلفاء، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.
٥. ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد (ت ٢٤١هـ): مسند أحمد، دار صادر - بيروت، د.ط، د.ت.
٦. ابن شهر آشوب: محمد بن علي بن شهر آشوب السروي المازندراني (ت ٥٨٨هـ): متشابه القرآن ومختلفه، انتشارات بيدار، د.ط، ١٣٢٨هـ.
٧. ابن عاشور (ت ١٣٩٣هـ): تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس، د.ط، ١٩٩٧م.
٨. ابن عطية الأندلسي: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن (ت ٥٤٢هـ): المحرر الوجيز في تفسير كتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، مطبعة لبنان - دار الكتب العلمية، الناشر: دار الكتب العلمية، د.ط، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
٩. ابن فارس: أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي (ت ٣٩٥هـ): معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د.ط، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١٠. ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم الدنيوري (ت ٢٧٦هـ): عيون الأخبار، تحقيق: منذر محمد سعيد أبو شعر، مطبعة دار الكتب المصرية - المصرية، ١٩٩٦م.
١١. ابن قدامة: قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي (ت ٣٣٧هـ): نقد الشعر، الناشر: مطبعة الجوائب - قسطنطينية، ط ١، ١٣٠٢هـ.
١٢. ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٤٧هـ): تفسير القرآن العظيم، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، نشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
١٣. ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ): لسان العرب، دار صادر، لبنان، ط ٦، ١٩٩٧م.
١٤. أبو بكر العزاوي: اللغة والحجاج، مطبعة الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠٦م.
١٥. أبو السعود: أبو السعود أفندي بن محيي الدين محمد بن مصلح الحنفي (ت ٩٥١هـ): تفسير أبي السعود، مطبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت، الناشر: دار إحياء التراث العربي.
١٦. أبو زهرة: محمد أحمد مصطفى (ت ١٣٩٤هـ): زهرة التفاسير، دار النشر: دار الفكر العربي، د. ط، د. ت.
١٧. أحمد عبد الله نصير: التلطف اللغوي في أسلوب القرآن الكريم - دراسة تحليلية في ضوء علم اللغة الاجتماعي، مجلة كلية الآداب جامعة بور سعيد، العدد الحادي والعشرون، يوليو ٢٠٢٢م.
١٨. أحمد محمد فليح العموش (معاصر): التلطف في لغة القرآن الكريم، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت - كلية الآداب والعلوم الإنسانية، إشراف د. سعيد جبر أبو خضر، ٢٠١١م.
١٩. أحمد مختار عمر (ت ٢٠٠٣م): علم الدلالة، دار النشر: عالم الكتب - مصر، ط ٥، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
٢٠. أسعد جواد كاظم: المفارقة في النص القرآني - دراسة دلالية، رسالة ماجستير، كلية التربية للعلوم الإنسانية، بإشراف الدكتور حامد عبد المحسن كاظم، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

٢١. الأزهري: أبو منصور محمد بن أحمد (ت٣٧٠هـ): تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث - بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.
٢٢. الألوسي: أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي (ت١٢٧٠هـ): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الناشر: دار إحياء التراث - بيروت، د.ط، د.ت.
٢٣. الأملّي: بهاء الدين حيدر بن علي العبيدي (ت٧٧٧هـ): تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم في تأويل كتاب الله العزيز المحكم، تحقيق: السيد محسن الموسوي التبريزي، مطبعة الأسوة، الناشر: مؤسسة فرهنكي ونشر نور علي نور، ط ٤، ١٤٢٨هـ.
٢٤. الأندلسي: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين (ت٧٤٥هـ): تفسير البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل عبد الموجود والشيخ علي محمد عوض، مطبعة الكتب العلمية - بيروت، ٢٠٠١م.
٢٥. البغوي: أبو محمد عبد الرحمن العك (ت٥١٦هـ): معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، مطبعة بيروت - دار المعرفة، الناشر: دار المعرفة.
٢٦. بلقاسم دفة (معاصر): استراتيجية الخطاب الحجاجي- دراسة تداولية في الأساليب الأشهارية العربية - مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة - الجزائر، العدد العاشر، ٢٠١٤م.
٢٧. البيضاوي: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (ت٦٨٥هـ): أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط ١، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤١٨هـ.
٢٨. التستري: أبو محمد سهل بن عبد الله (ت٢٨٣هـ): تفسير التستري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٢٣هـ.
٢٩. التهانوي: محمد بن علي بن القاضي محمد بن حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي (ت١١٥٨هـ): كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان - بيروت، ط ١، ١٩٩٦م.

٣٠. الثعلبي: أحمد أبو إسحاق(ت٤٢٧هـ): الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.
٣١. الجرجاني: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (ت٤٧١هـ): أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق: السيد محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.
٣٢. جميل صليبا(ت١٩٧٦م): المعجم الفلسفي، دار الكتب اللبناني- لبنان، ١٩٨٢م.
٣٣. الجوهرى: أبو نصر إسماعيل بن حماد(ت٣٩٣هـ): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، مطبعة العلم للملايين، ط ٢، ١٤٠٧هـ.
٣٤. حسن خميس الملح(معاصر): المحظورات النحوية في اللغة العربية، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٣٩، العدد ٢، ٢٠١٢م.
٣٥. حسن محمد رحيم المصطفوي(معاصر)، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مركز نشر آثار العلامة المصطفوي، دار الكتب العلمية - لبنان، ط ٦، ٢٠٢٠م.
٣٦. حسين يوسف موسى وعبد الفتاح الصعيدي(معاصران): الإفصاح في فقه اللغة، دار الكتب المصرية، ط ١، ١٣٤٨هـ - ١٩٢٩م.
٣٧. الحموي: تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله بن حجة(ت٨٣٧هـ)، تحقيق: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال - بيروت، ط ١، ١٩٨٧م.
٣٨. الحويزي: عبد علي بن جمعة العروسي(ت١١١٢هـ): تفسير نور الثقلين، تحقيق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، ط ٤، ١٤١٢هـ، مؤسسة إسماعيليان - قم.
٣٩. حمادي خلف سعود الركابي(معاصر): المفارقة في شعر عنتره - دراسة تحليلية، جامعة ذي قار، مجلة كلية التربية الأساسية، المجلد ٢٤، العدد ١٠٢، ٢٠١٨م.
٤٠. الخطيب القزويني: محمد بن عبد الرحمن بن عمر أبو المعالي جلال الدين القزويني الشافعي (ت٧٣٩هـ): الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبدیع، دار الكتاب الإسلامي، ط ١، ١٤١١هـ.
٤١. د. سي ميويك: موسوعة المصطلح النقدي المفارقة وصفاتها، ترجمة د. عبد الواحد لؤلؤة، الموسوعة العربية للدراسات والنشر، ط ١، ١٩٩٨م.

٤٢. داوود العطار(ت١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م): الموجز في علوم القرآن، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، ط ٣، ١٩٩٥م.
٤٣. الدمشقي: أبو حفص عمر بن علي بن عادل الحلبي(ت٨٨٠هـ): اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، نشر دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٤٤. ديفيد هاملتون (٢٠٢٥م): اللطف وآثاره الجانبية الخمسة، دار الخيال، ٢٠١٨م.
٤٥. الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القاهر(ت٦٦٦هـ): مختار الصحاح، مكتبة لبنان ناشرون، د.ط، ١٩٩٥م.
- التفسير الكبير، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، د.ط، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٤٦. الراغب الأصفهاني: الحسين بن محمد بن الفضل(ت٥٠٢هـ): محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الناشر: شركة الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ.
- مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، مطبعة سليمانزاده، الناشر: طليعة النور، ط ٢، ١٤٢٧هـ.
- المفردات في غريب القرآن، دفتر نشر كتاب، ط ٢، ١٤٠٤هـ.
٤٧. راما عبد الجليل راضي (معاصر): المفارقة في الرواية العراقية المعاصرة (٢٠٠٣م-٢٠١٦م): رسالة ماجستير، جامعة القادسية - كلية الآداب، بإشراف الدكتور عبد الله حبيب، ٢٠١٦م.
٤٨. الراوندي: قطب الدين أبو الحسين سعيد بن عبد الله(ت٥٧٣هـ): فقه اللغة، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، الناشر: مكتبة آية الله العظمى النجفي المرعشلي، ط ٢، ١٤٠٥هـ.
٤٩. رمزي البعلبكي (معاصر): معجم المصطلحات اللغوية، ط ١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠م.
٥٠. زينب حكيم عبيد الوطيفي: ظاهرة الاستدراج في النص القرآني - دراسة تفسيرية، رسالة ماجستير، كلية الفقه، ٢٠١٤م.

٥١. الزبيدي: محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى (ت ١٢٠٥هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، د.ط، ١٩٩٤م.
٥٢. الزجاج: أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل (ت ٣١١هـ): معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده الشلبي، ط ١، عالم الكتب - بيروت، ١٩٨٨م.
٥٣. الزحيلي: وهبة بن مصطفى (ت ٢٠١٥م)، التفسير الوسيط، دار الفكر المعاصر - دمشق، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر - بيروت، د.ط، ١٤١٨هـ.
٥٤. الزرقاني: محمد عبد العظيم (ت ١٩٤٨م)، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربية، د.ط، د.ت.
٥٥. الزركشي: بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الشافعي (ت ٧٩٤هـ): البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.
٥٦. الزمخشري: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ): أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.
- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر عباس ومحمد محمود الحلبي وشركاهم - خلفاء، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.
٥٧. ستيفن أولمان (ت ١٩٧٦م): دور الكلمة في اللغة، ترجم وقدم له د. كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، ١٩٧٥م.
٥٨. سعيد جبر أبو خضر (معاصر): أثر التلطف في التطور المصطلحي، المجلة العربية للعلوم الإسلامية، ٢/١١٢، ٢٠١٠م.
٥٩. السكاكي: أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي مفتاح العلوم (ت ٦٢٦هـ) ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٦٠. السعدي عبد الرحمن بن ناصر (١٩٥٦م): تيسير الكريم الرحمن في كلام المنان، مطبعة بيروت - مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٦١. السلمي: أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين (ت٤١٢هـ): تفسير السلمي، تحقيق: سيد عمران، دار الكتب العلمية- بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
٦٢. السمرقندي: نصر بن محمد بن محمد (ت٣٨٣هـ): تفسير السمرقندي، تحقيق: محمود مطرجي، مطبعة دار الفكر - بيروت، د.ت.
٦٣. السمعاني: منصور بن محمد بن عبد الجبار المروزي (ت٤٨٩هـ): تفسير السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، مطبعة السعودية - دار الوطن - الرياض، ط ١، ١٤١٨هـ.
٦٤. سيروان عبد الزهرة الجنابي (معاصر): الإعجاز في النص القرآني - قراءة في مفهومه ووجوهه، مطبعة دار الرافد - بغداد، ط ٢، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م، الناشر: دار حدود للنشر والتوزيع - لبنان - بيروت.
- تاريخ القرآن وعلومه: مطبعة دار الرائد - بغداد، ط ٢، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م، الناشر: دار حدود للنشر والتوزيع - بيروت.
- فكر أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في حلّ الإشكالات التفسيرية للنص القرآني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت،
٦٥. سيزا قاسم (ت٢٠٢٤م): المفارقة في القصّ العربي المعاصر، مجلة فصول - القاهرة، ١٩٨٢م.
٦٦. السيوري: مقداد بن عبد الله الحلي (ت٨٢٦هـ): تفسير كنز العرفان في فقه القرآن، تحقيق: الشيخ محمد باقر، مطبعة حيدري - طهران، نشر المكتبة الرضوية - طهران.
٦٧. السيوطي: أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ): الإتيان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، من إصدارات: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت، د.ت.

٦٨. الشريف الجرجاني: علي بن محمد بن علي (ت ٨١٦هـ): معجم التعريفات، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، د.ط، د.ت.
٦٩. الشريف الرضي(ت ٤٠٦هـ): أبو الحسن السيد محمد بن الحسين بن موسى الموسوي الهاشمي: تلخيص البيان في مجازات القرآن، تحقيق: محمد عبد الغني حسن، دار إحياء الكتب العربية- مصر، ط ١، ١٩٥٥م.
- نهج البلاغة، تحقيق: الشيخ قيس بهجت العطار، مؤسسة الرافد للمطبوعات، ط ١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
٧٠. الشريف المرتضى(ت ٤٣٦هـ): علم الهدى علي بن الحسين، تنزيه الأنبياء، تصحيح وتعليق: فاطمة قاطي شعار، بإشراف الأستاذ علي أكبر الغفاري، منشورات المدرسة العليا للشهيد المطهري، ط ١، ١٤٢٢هـ.
- رسائل الشريف المرتضى، مطبعة الخيام - قم، الناشر: دار القرآن الكريم - قم، ط ١، ١٤٠٥هـ.
٧١. الشعراوي محمد متولي(ت ١٤١٨هـ): تفسير الشعراوي، الناشر: مطابع أخبار اليوم، د.ط، د.ت.
٧٢. الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني(ت ١٣٩٣هـ): أضواء البيان، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، مطبعة بيروت - دار الفكر للطباعة، الناشر: دار الفكر للكتابة والنشر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
٧٣. الشوكاني: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني(ت ١٢٥٠هـ): إرشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق: أحمد عزو عناية، دار الكتب العربية، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- فتح القديرالجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الناشر: دار الكلم الطيب - دمشق، ط ١، ١٤١٤هـ.
٧٤. طنطاوي: محمد سيد : التفسير الوسيط للقرآن الكريم، راجعه: د.عبد الرحمن العدوي، دار المعارف - القاهرة، د.ط، ١٩٩٢م.
٧٥. الطباطبائي: السيد محمد حسين(ت ١٤١٢هـ): الميزان في تفسير القرآن، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية - قم المشرفة، د.ط، د.ت.

٧٦. الطبرسي: أبو علي الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ): تفسير مجمع البيان، تحقيق: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- تفسير جوامع الجامع، مؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ط ١، ١٤١٨هـ.
٧٧. الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي (ت ٣١٠هـ): جامع البيان عن تأويل القرآن، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م.
٧٨. الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي (٤٦٠هـ): التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: احمد حبيب قصير العاملي، مطبعة مكتبة الإعلام الإسلامي، ط ١، ١٤٠٩هـ.
٧٩. عاصم شمادة علي: المفارقة اللغوية في معهود الخطاب العربي - دراسة في بنية الدلالة، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، مجلة الأثر، العدد العاشر.
٨٠. عاطف عبران (معاصر): بلاغة التعبير عن المحذور اللغوي في الحديث الشريف، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مجلد: ٨، عدد: ٤، ٢٠١٩م.
٨١. عائشة عبد الرحمن (١٩٩٨م): التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، ط ٣، ١٩٧٧م.
٨٢. عبد الرحمن بن سيد أحمد البرقوقي (١٣٦٣هـ): الذخائر والعقريات، مكتبة الثقافة الدينية - مصر، ١٩٤١م.
٨٣. عبد الله صولة (معاصر): الحجاج في القرآن من خلال خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي - بيروت، ط ٢، ٢٠٠٧م.
٨٤. عبد المتعال الصعيدي (ت ١٩٦٦م): بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، ط ١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
٨٥. عدنان خالد عبد الله (معاصر): النقد التطبيقي التحليلي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ١٩٨٦م، ٢٧.
٨٦. العز بن عبد السلام: عبد العزيز بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ): تفسير العز بن عبد السلام، تحقيق: د. عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم - بيروت، ط ١، ١٤١٦هـ.

٨٧. العسكري: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى (ت ٣٩٥هـ):
الفروق اللغوية: علق عليه ووضع حواشيه: محمد باسل عيون السود، منشورات محمد
علي بيضون، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ٣، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- الصناعتين، تحقيق: علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة
العصرية، مكان النشر: بيروت، د.ط، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- الكتابة والشعر، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية - لبنان، د.ط، د.ت.
٨٨. عصام الدين بن سلام محمد إبراهيم أبو زلال (معاصر): التعبير عن المحذور
والمحسن اللفظي في القرآن الكريم - دراسة دلالية، إطروحة دكتوراه، جامعة
القاهرة - كلية الآداب، إشراف: د. عبد المنعم تليمة، ٢٠٠١م.
٨٩. الغزالي: أبي حامد محمد بن محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ): المستصفى، تحقيق: أحمد زكي
حماد، د.ط، د.ت.
٩٠. الفراهيدي: الخليل بن أحمد (ت ١٧٠هـ) العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي و د.
إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، ط ٢، ١٤٠٩هـ.
٩١. القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس
الدين (ت ٦٧١هـ): الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير، الناشر: دار عالم
الكتب، المملكة العربية السعودية، د.ط، ٢٠٠٣م.
٩٢. الكاشاني: فتح الله بن شكر الله (ت ٩٨٨هـ): زبدة التفاسير، تحقيق: مؤسسة المعارف،
مطبعة عترت، مؤسسة المعارف الإسلامية - قم، د.ط، ١٤٢٣هـ.
٩٣. كريم زكي حسام الدين: المحظورات اللغوية - دراسة المستهجن والمحسن من
الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١، ١٩٨٥م.
٩٤. الكفوي: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني (ت ١٠٩٤هـ): الكليات، تحقيق: عدنان
درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت، د.ط، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٩٥. الماوردي: علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري (ت ٤٥٠هـ): النكت والعيون،
تحقيق: السيد ابن عبد القادر بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت،
د.ط، د.ت.

٩٦. مبارك مبارك(معاصر): معجم المصطلحات الألسنية، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
٩٧. مجدي وهبة وكامل المهندس (معاصران): معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.
٩٨. محمد باقر الصدر(ت١٩٨٠م): بحوث في علوم القرآن، مجمع الثقلين العلمي، بغداد - العراق، د.ط، د.ت.
٩٩. محمد العبد(معاصر): المفارقة القرآنية - دراسة في بنية الدلالة، ط١، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٩٤م.
١٠٠. محمد جواد النجفي البلاغي (ت١٣٥٢هـ): آلاء الرحمن في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ت، د.ط.
١٠١. محمد جواد مغنية (١٤٠٠هـ): التفسير الكاشف، دار العلم للملايين - لبنان، ط٣، ١٩٨١م.
- التفسير المبين، مؤسسة الكتاب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
١٠٢. محمد طروس(معاصر): النظرية الحجاجية، دار الثقافة الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٥م.
١٠٣. محمد عبد الله دراز(ت١٩٥٨م): النبأ العظيم - نظرات جديدة في القرآن، دار القلم - الكويت، د.ط، د.ت.
١٠٤. محمد عزة دروزة السجستاني(ت١٩٨٤م): التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، د.ط، ١٣٨٣هـ.
١٠٥. محمد علي الخولي(ت٢٠١٩م): معجم اللغة النظري، ط١، مكتبة لبنان، ١٩٩١م.
١٠٦. محمود السعران(ت١٩٦٣م): اللغة والمجتمع - رأي ومنهج، طبع بالإسكندرية، ط٢، ١٩٦٣م.
١٠٧. المراغي: أحمد بن مصطفى(ت١٩٥٢م): تفسير المراغي، دار النشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، د.ط، د.ت.
١٠٨. علوم البلاغة البيان المعاني البديع، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، د.ط، د.ت.

١٠٩. المشهدي: محمد بن محمد رضا القمي(ت١١٢٥هـ): تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، تحقيق: حسين دركاهي، مؤسسة الطبع والنشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ط ١، د.ت.
١١٠. المطرزي: أبي الفتح ناصر الدين(ت٦١٠هـ): المغرب في ترتيب المعرب، تحقيق: محمود فاخوري و عبد الحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد - سوريا.
١١١. موسى بن محمد الملياني الأحمدي: معجم الأفعال المتعدية بحرف، ط ١، ١٤١٠هـ:
١١٢. مير علي الحائري الطهراني(ت١٣٥٣هـ): مقتنيات الدرر، مطبعة الحيدري، الناشر: شيخ محمد الأخوندي مدير دار الكتب الإسلامية.
١١٣. ناصر شبانة(معاصر): المفارقة في الشعر العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠م.
١١٤. ناصر مكارم الشيرازي(معاصر): الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الناشر: مدرسة الامام علي بن أبي طالب عليه السلام، د.ط، د.ت.
١١٥. نبيلة إبراهيم(ت٢٠١٧م): المفارقة، مجلة فصول، المجلد السابع، العددان الثالث والرابع (أبريل- سبتمبر) ١٩٨٧م.
- فن القص في النظرية والتطبيق، مكتبة غريب، د.ط، د.ت.
١١٦. النسفي: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود(ت٥٣٧هـ): تفسير النسفي، د.ط، د.ت.
١١٧. هاشم البحراني: السيد هاشم بن سليمان(ت١١٠٩هـ): البرهان في تفسير القرآن، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - قم، د.ط، د.ت.
١١٨. هيثم محمد جديتاوي(٢٠٠٣م): المفارقة في شعر أبي العلاء المعري، دار اليازوري - الأردن، د.ط، ٢٠١٢م.
١١٩. يحيى بن حمزة العلوي(ت٧٤٩هـ): الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، الناشر: المكتبة العصرية - بيروت، ط ١، ١٤٢٣هـ.

Abstract

Abstract

This study, entitled “The Phenomenon of Gentleness in the Holy Qur’an – An Exegetical Study”, highlights the significant importance of understanding gentleness in the Qur’an and its profound impact on softening hearts, refining discourse, and delivering ideas in a manner that is accepted by the addressee without aversion. This research constitutes a substantial contribution to comprehending Qur’anic inimitability as well as the pedagogical and missionary dimensions of the Qur’anic text.

The study approaches the concept of gentleness in the Qur’an from an exegetical perspective, unveiling deep dimensions related to guidance, education, and da‘wah. It seeks to establish that gentleness in the Qur’an is not merely a rhetorical technique but rather a deliberate textual phenomenon carrying profound legislative, educational, and missionary implications.

Methodologically, the research is built upon exegetical and rhetorical analysis of Qur’anic texts and is structured into an introduction and four chapters. The first chapter is dedicated to establishing the theoretical foundations of the study and exploring points of convergence and divergence with other related concepts. The second chapter examines the motives behind the Qur’an’s use of gentleness, followed by the third chapter, which identifies the main styles of gentleness in the Qur’an, represented by paradox, gradual persuasion, and argumentation. The fourth chapter provides an applied analysis of the exegetical implications of gentleness within Qur’anic narratives, doctrinal verses, and legal rulings.

The study concludes with several significant findings, foremost among them that gentleness in the Qur’an is not simply a matter of eloquent expression; rather, it is a divine pedagogical and missionary strategy that enhances the depth of understanding and acceptance of the Qur’anic message. Furthermore, the phenomenon reflects an embedded hermeneutical dimension within the very structure of the Qur’anic text, contributing simultaneously to its educational, invitational, and epistemological impact.

Keywords: Gentleness, Softness, Gradual Discourse, Compassion



Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Kerbala
College of Islamic Sciences
Department of Qur'anic and Jurisprudential Studies

The Phenomenon of The extravagance in the Holy Qur'an An Interpretation Study

A thesis submitted to the Council of the College of Islamic
Sciences, University of Kerbala.

This thesis is part of the requirements for a Master's degree in
Sharia and Islamic Sciences.

Written by the
student Ali Fakhri Bash Agha

Supervisor
Prof. Dr. Nahida Jalil Al-Ghalibi

AD 2025

1447 AH